

الغلاف الأمامي

من أكثر الروايات مبيعًا في العالم

حكمة من الحياة الأمريكية الرائعة لرجل يبلغ من العمر 109 أعوام

كتاب تشارلي

"رواية تجمع بين
الأماله وسلاسه
الأسلوب عن حياة
أمريكية رائعة".

- صحيفة وول ستريت جورنال

"أوصي بشده
بقراءة هذه
الرواية!".
توم هانكس



ديفيد فون دريل

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a bookstore...
... ليست مجرد مكتبة ...

الغلاف الأمامي

من أكثر الروايات مبيعًا في العالم

حكمة من الحياة الأمريكية الرائعة لرجل يبلغ من العمر 109 أعوام

كتاب تشارلي

"رواية تجمع بين
الأهالة وسلاسة
الأسلوب عن حياة
أمريكية رائعة".

- صحيفة وول ستريت جورنال



"أوصي بشدة
بقراءة هذه
الرواية!".
توم هانكس

ديفيد فون دريل

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة ... not just a bookstore

حقوق الطبع والنشر

كتاب تنشأ ربي

حكمة من الحياة الأمريكية الرائعة لرجل يبلغ من العمر 109 أعوام

ديفيد فون دريل

تحديد مسؤولية / إخلاء مسؤولية من أي ضمان
هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والنتيجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسؤولية ونُخلي مسؤوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمل أي مسؤولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

حقوق النشر

- لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .
- إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاء شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- رجاء عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

الطبعة الأولى 2025

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير
ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2025. All rights reserved.

Copyright © 2023 by David Von Drehle
All Rights Reserved
Published by arrangement with the original publisher, Simon & Schuster LLC.

للتعرف على فروعنا نرجو زيارة www.jarir.com
إذا كانت لديك أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على:
jbpublications@jarirbookstore.com



The Book *of* Charlie

*Wisdom from the Remarkable American Life
of a 109-Year-Old Man*

David Von Drehle

كتب أخرى للمؤلف

**Among the Lowest of the Dead: The Culture of Capital
Punishment**

Deadlock: The Inside Story of America's Closest Election

Triangle: The Fire That Changed America

Rise to Greatness: Abraham Lincoln

and America's Most Perilous Year

إهداء

ديفيد فون دريل

إلى روبرت دي. ريتشاردسون الابن (بوب)

2020 - 1934

المعلم، والقائد، والصديق

الأول

كنت كل ليلة، عندما كان أطفالى الأربعة صغارًا، أجلس بمصباح يدوي خارج غرف نومهم على أرضية الممر المظلم، وأقرأ لهم قصصًا من كتب الأطفال. وقد قرأنا آلاف الصفحات من كتب هاري بوتر، وصنعنا المئات من الدونات مع هومر برايس، وقضينا وقتًا مع رامونا وبيزوس في شارع كليكتات، وأقمنا في نارنيا مع أطفال بيفينس وغصنا في مجلدات ليمونى سنيكتس، كما استمتعنا بقراءة Diaries of a Wimpy Kid وشعرنا بالإثارة مع قراءة The Red Badge of Courage وبكىنا أثناء قراءة Where the Red Fern Grows. وبالطبع عدنا أكثر من مرة إلى مزرعة أرابل، حيث كانت العجائب تحدث في Charlotte's Web.

لسنوات عديدة، استمتعت بجمهورى الصغير من المستمعين المخلصين، ولكن مع نمو الأطفال واهتمامهم بمشاغلهم الخاصة، كنت أعلم أن وقتنا معًا قد بدأ يقترب من نهايته. وسوف ينشغلون قريبًا بالدراسة لامتحاناتهم النهائية، والتواصل مع الأصدقاء عبر برنامج FaceTime، ومشاهدة الأفلام والمسلسلات على نتفليكس حتى وقت متأخر من الليل. وقد جاءت اللحظة التي كنت أخشاها بعد أن أنهينا قراءة آخر صفحة من مغامرة جديدة في رواية Peter and the Starcatchers، فقد اقترحت ابنتى الوسطى أن نعلق قراءتنا الليلية إلى أجل غير مسمى، وسرعان ما وافق الآخرون (بسرعة أكبر مما كنت أتمنى) على هذا الاقتراح.

قبل أن نصل إلى نهاية قراءتنا، اكتشف الأطفال أن أباهم يجيد الكتابة، وبدأوا يطلبون منى أن أولف لهم كتابًا على غرار ذلك النوع من الكتب الذي يمكننى قراءته عليهم بصوت عالٍ في الظلام باستخدام مصباحى اليدوي. كنت أرغب بشدة في أن أحقق لهم أمنيتهم، بأن

أخرج قليلاً من السحر من قبعتي، وأصنع منه قصة مليئة بالإثارة والمرح، نتحدث عن صغار شجعان وماهرين يصنعون طريقهم في عالم رائع وخطير. ولكن كل محاولة قمت بها لكتابة رواية للأطفال باءت بالفشل بطريقة أو بأخرى. وشيئاً فشيئاً، أدركت أن أيام قراءتي معهم ستقضي قبل أن أتمكن من تحقيق رغبتهم، وأن فشلي في تقديم قصة ملائمة سيكون خيبة أمل أخرى تضاف إلى ما خذلتهم فيه. فالأب يتمنى أن يكون على الدرجة نفسها من الاستثنائية التي يتصوره بها أبنائه ببراءتهم، لكيلا يصابوا أبداً بخيبة الأمل تجاهه. وربما ينجح بعض الآباء في تحقيق ذلك، أما بالنسبة لي، فقد نضج أطفالي، وانتبهوا إلى عيوب والدهم، وتوقفوا عن طلب كتاب من أجلهم فقط.

ولكن الآن، ها هو ذا الكتاب بين يديك.

من المؤكد أنه ليس ذلك الكتاب الذي كانوا يتطلعون إليه. ورغم أن الصفحات القادمة ستكون مليئة بالمغامرات والمخاطر والمآسي والمرح، فإنها تخلو من القلاع أو سفن القراصنة أو حتى الرومانسية الرقيقة. تمتلك الشخصية الرئيسية سحرًا لا يمكن إنكاره، لكنه ليس بطلاً، وبالتأكيد ليس بطلاً خارقاً، فهذا الكتاب خالٍ من السحرة، والأيتام الذين يحلون الألغاز، والسفر عبر الزمن، والعناكب القادرة على التحدث. قد لا يكون هذا الكتاب الذي يتمنونه، ولكنني أعتقد أنه الكتاب الذي يحتاجون إليه.

هذا كتاب عن النجاة، بل حتى عن الازدهار في وجه الشدائد والتغيرات الثورية؛ فالأطفال اليوم -أطفالك وأطفالي على حد سواء- يعيشون حياتهم في خضم موجة من التغيير المستمر. بينما يمكن التنبؤ ببعض هذه التحديات، يأتي البعض الآخر بشكل مفاجئ، مثل جائحة عالمية. وأعتقد أن السيارات ذاتية القيادة والروبوتات التي تحاور الآخرين ليست سوى البداية، مثل نسمة هادئة قبل العاصفة القوية. إن السيارات والروبوتات ليست سوى أدوات، والأدوات تتطور دون أن تُحدث بالضرورة تغييرات في العالم. لقد نشأ جيلي على أجهزة الراديو الترانزستور وشاشات تلفاز بحجم تسع عشرة بوصة. والآن لدينا سبوتيفاي وأجهزة تلفاز فائقة الوضوح UHD بحجم خمس وثمانين بوصة. ومع ذلك، ما

زلنا نستمع إلى الموسيقى عبر أجهزة محمولة، ونشاهد صورًا متحركة ثنائية الأبعاد خلف شاشات زجاجية.

أما التغيير الثوري، فمسألة مختلفة تمامًا؛ فالثورات تمتلك القدرة على إعادة تشكيل المجتمعات والثقافات والاقتصادات والأنظمة السياسية. فكر في طباعة جوتنبرج؛ فقبل ظهور الطباعة، لم يكن هناك سبب يدفع معظم الناس لتعلم القراءة والكتابة، فقد كانت المعلومات تنتقل ببطء وبطريقة غير موثوقة، إما عن طريق الرواية الشفوية أو عبر المخطوطات المنسوخة يدويًا. وكانت المعرفة تُكتسب ببطء شديد، حيث كان الناس يعتمدون فقط على ما يتعلمونه من كبار السن في أسرهم أو قراهم. ولقد تمكّنت الطباعة لأول مرة من ربط الناس بفاعلية وبتكلفة منخفضة عبر مسافات شاسعة، وحتى عبر الزمن. وكانت التأثيرات التي تلت ذلك استثنائية: حركة الإصلاح والتنوير، والثورات العلمية والصناعية، وصعود الديمقراطية والأسواق الحرة، ونهاية العبودية القانونية، وعصر الاستكشاف، بما في ذلك استكشاف الفضاء. وكل هذه التحولات أصبحت ممكنة بفضل الطباعة، وإذا كانت المطبوعات المتحركة - مجرد كتل خشبية وقطع من الرصاص - قد أحدثت كل هذه التغييرات، فماذا يمكن أن تُحدث ثورة تضع مكتبات العالم ولغاته في راحة اليد، وتمنح كل إنسان قوة التواصل الشامل؟

كما أن طبيعة العمل تتغير، حيث أصبحت نسبة كبيرة من إنتاجية العالم تعتمد على التفاعل بين البشر وأجهزة الكمبيوتر. ويعلمنا التاريخ أن الاضطرابات الكبيرة تتبع الثورات التي تحدث في أماكن العمل، فعندما حلت الزراعة محل التنقل بحثًا عن الطعام، تحول عالم القبائل والبدو إلى عالم المدن والدول والأمم والإمبراطوريات. وأُعيد تشكيل الثقافات مجددًا في كل مكان حلت فيه الصناعة واقتصادات السوق محل زراعة الاكتفاء الذاتي. وأصبح عالم الملوك والقيصرة الإقطاعي عالمًا آليًا من المال والبيروقراطية. وبالنسبة لبعض الناس، كان هذا يمثل عالمًا من الاغتراب والصراع؛ وللبعض الآخر كان عالمًا من الحرية والطموحات. فعلى سبيل المثال: أصبحت للنساء الحرية في أن ينجبن عددًا أقل من الأطفال. وأتاح إنجاب عدد أقل من الأطفال للنساء حياة أطول ووقتًا أكبر للتفكير.

وصار الأطفال الذين ينجبهم يحصلون على تغذية أفضل ويتمتعون بحياة أقل مشقة. وأتاحت الحياة الأطول وقتًا للتعليم، والتعليم جعل الناس يحلمون. قد نزن اليوم أن الآباء دائمًا ما كانوا يأملون أن يكون لأبنائهم مستقبل أكثر إشراقًا، لكن في معظم تاريخ البشرية، كان الآباء يتوقعون أن يعيش أطفالهم حياة بائسة وقصيرة مثل حياتهم. وسواء كان المولد في قصر أو كوخ، كان مكان الولادة يحدد مصير الشخص.

أعتقد أن الثورة الرقمية بدأت بالفعل في إحداث تأثيرات هائلة وشاسعة بالقدر نفسه التي أحدثته الثورات السابقة. فالسياسة تتغير بفعل القوة المدمرة للشبكات الاجتماعية، ومصادر أخبارنا ومعلوماتنا - التي كانت منبعًا للحوار الحضاري - تتداعى تحت تأثير الخيارات اللامتناهية. وطقوس الزواج أصبح يُعاد تشكيلها بفعل خوارزميات الثروة على الشبكات الاجتماعية ومواقع التعارف الافتراضية. كما تتعرض المؤسسات للتقويض، فيما أصبحت التهديدات التي كانت محلية في السابق، مثل الإرهاب والفيروسات الجديدة، عالمية.

يرغب الآباء في تزويد أطفالهم بالأدوات التي يحتاجونها للنجاح في الحياة؛ لكن أطفالنا ينطلقون إلى عالم غريب وغير متوقع، لدرجة أن الآباء لا يسعهم إلا القلق من أن الأدوات المتاحة اليوم قد تمثل عبئًا في المستقبل. وندعو الله ألا تأخذهم نصائحنا في الاتجاهات الخطأ.

ومع مشاهدتي لتزايد أهمية الثورة الرقمية، بدأت أخشى أنني لا أعرف ما يكفي عن التغيير لأكون عونًا كبيرًا لأطفالي، فأنا أعرف التغييرات على مستوى الأدوات والأجهزة، ولكنني قد شهدت القليل منها مقارنةً بتلك التي تحدث على مستوى الثقافات والمجتمعات بأكملها. وعلى الرغم من أنني انبهرت بالعديد من العجائب التكنولوجية على مر السنين، فلم تكن حياتي مختلفة تمامًا عن حياة والدي. فقد نشأ والدي ووالدتي في زمن كان فيه الراديو حديث العهد، وقد عشت لأرى الراديو يتطور إلى بث إذاعي وقمر صناعي وبث لاسلكي؛ لكنني ووالدي عشنا جميعًا في زمن الراديو. ويمكن قول الشيء نفسه عن

الطائرات، والصحف، ومحركات الاحتراق الداخلي، وشبكات التليفزيون، وصراع الجمهوريين ضد الديمقراطيين، والطب الحديث، وألف فئة أخرى قد أضفت استقرارًا على حياتنا، حتى مع انبهارنا بالأدوات الجديدة. لكن خلال حياة أطفالي، قد تُمحي هذه الفئات نفسها، وتُخلق فئات جديدة.

لقد أدركت أن عليّ العودة جيلاً أو جيلين للوراء لأجد نموذجًا يُحتذى به، ربان حقيقي في بحر التغيير. كان عليّ أن أعود إلى السنوات الأخيرة من العصر الزراعي، عندما كان الناس من الطبقة الوسطى يعيشون من دون كهرباء أو مياه جارية، وعندما لم يكن الطيران متاحًا للبشر ولم تبتكر المضادات الحيوية. كنت بحاجة إلى العثور على شخص تشبه حياته المبكرة حياة المزارعين في زمن نابليون أو ليوناردو دا فينشي؛ شخص من عالم كانت فيه العربات التي تجرها الخيول تفوق أعدادها أعداد السيارات، وحيث كانت الصور غير متحركة، وحيث كان الملوك والأباطرة يحكمون؛ شخص أمريكي وُلد في أوائل القرن العشرين وعاش حتى الألفية الجديدة، وبالتالي عاصر الزمن الذي استخدمت فيه الحيوانات في نقل الأشياء، وظهر فيه مرض الخناق، ولم يكن يتخرج فيه سوى 6% من الأمريكيين من المدارس الثانوية، وكذلك شهد عصر المحطات الفضائية والجراحة الروبوتية؛ شخص عاش من زمن فيلم «The Birth of a Nation» الذي أُنتج في عام 1915 إلى زمن باراك أوباما؛ شخص انتقل من زمن كان ممنوعًا على النساء فيه التصويت، إلى زمن تدير فيه النساء الأمم والشركات؛ شخص انتقل من عصر الولايم الهادئة مع الجيران إلى جنون المباريات الكروية، حيث يتم إعادة عرض كل هدف على شاشات بارتفاع خمسة طوابق؛ شخص ولد في زمن لم تكن قد وطئت فيه أي قدم بشرية القطب الشمالي أو الجنوبي أو قمة جبل إيفرست، وعاش ليرى آثار أقدام البشر على القمر.

لقد شهد الأشخاص الذين وُلدوا في أوائل القرن العشرين وعاشوا لأعمار طويلة تغيرات هائلة في حياتهم ومجتمعاتهم، وفي أماكن عملهم ودور عبادتهم، وفي عائلاتهم وعاداتهم، حيث تززع كل شيء وتحول وأعيد تشكيله. لقد دخلوا العالم في اللحظة التي (على حد تعبير هنري آدمز) «كُسر فيها عنق التاريخ من خلال الاجتياح المفاجئ لقوى جديدة

تمامًا»، وعاشوا خلال التبعات المستمرة لهذه التغييرات. ما الذي تطلبه الأمر للازدهار وإيجاد السعادة وسط كل هذه الاضطرابات؟ أيًا كان ما تطلبه الأمر، فإن تلك هي الأدوات التي أريد أن أنقلها إلى أطفالي: الأدوات اللازمة للمرونة والالتزان وسط الاضطرابات الهائلة وعدم اليقين.

قررت أن أؤلف قصة لأطفالي تكشف أسرار الحياة في خضم العاصفة. وبمجرد أن أدركت أن هذه هي مهمتي باعتباري والدهم، كنت على استعداد للذهاب إلى أقصى أرجاء الأرض للعثور على مثل هذه القصة، لكن هذا لم يكن ضروريًا؛ لأنه في صباح أحد أيام أغسطس الحارة، رفعت بصري من حيث كنت واقفًا في ممر السيارات، ورأيت قصتي تقف أمامي عبر الشارع مباشرة!!

الثاني

في عام 2007، أخرجت أنا وزوجتي أطفالنا من موطنهم في واشنطن العاصمة - حين كانت أعمارهم بين تسع، وسبع، وست، وأربع سنوات - ونقلناهم للعيش في ضواحي مدينة كانساس في ولاية ميزوري. وكما فسّرت كارين ذات مرة قرارنا، كانت قد سئمت من متاعب تربية الأطفال في المدينة، كالازدحام المروري، والطواوير الطويلة، ودروس السباحة التي تُحسب بالدولار في الدقيقة. كنت أنا أيضًا قد سئمت من جدال الناس المستمر مع بعضهم، وهي التسلية الرئيسية في عاصمة البلاد. كنت على وشك البدء في وظيفة جديدة تسمح لي بالعمل عن بُعد، وبعد سنوات عديدة مثيرة في الساحل الشرقي، صرت - أنا القادم من كولورادو- مستعدًا للعودة إلى وسط البلاد، حيث الطبيعة الشاسعة والمفتوحة التي يسكنها أناس أكثر تواضعًا بكثير.

في صباح ذلك اليوم، كان منزلنا الجديد لا يزال مليئًا بالصناديق التي لم تُفرغ بالكامل. وقد اجتاحت موجة حر أغسطس الغرب الأوسط في الولايات المتحدة الأمريكية، ورغم أن الساعة كانت الثامنة صباحًا فقط، فقد شعرت بما يشبه جدارًا من الرطوبة الخانقة يصطدم بي بمجرد خروجي لجلب صحيفة يوم الأحد، وكأنني فتحت غسالة الصحون قبل انتهائها. ثم في منتصف ممر السيارات رفعت بصري، ومن خلال وهج الشمس الساطعة، رأيت شيئًا جعلني أتسمر في مكاني.

كان جاري الجديد يغسل سيارته في ممشى سيارته الدائري في الجهة المقابلة من الشارع. وكما أتذكر (وهو أمر يختلف فيه الناس في الحي) كانت السيارة التي يغسلها جديدة لامعة من طراز كرايسلر بي تي كروزر، بلون مشروب صودا العنب. أعتقد أن ذاكرتي أدق من ذاكرة كل من يقولون إنها كانت سيارة أقل تميزًا، كما أن خيالي ليس قويًا بما يكفي

ليخترع سيارة بلون مشروب الصودا تتألاً في ممر جيراننا. لكن حتى لو كانت تلك التفصيلة غير حقيقية، فإن خيالي ابتكرها كطريقة للتعبير عن إعجابي بصاحبة السيارة، فهي امرأة ذات جاذبية تجعل السيارات العادية غير جديرة بها. (سئلني بها في الوقت المناسب، وستجد أن معرفتها تستحق الانتظار).

ولكن الأمر الذي لا خلاف عليه هو أن جاري كان يغسل سيارة حبيبته في صباح أحد أيام أغسطس المُشمسة. ولم يسعني إلا أن ألاحظ أن تلك السيارة كانت متوقفة في المكان نفسه الذي تركتها صاحبها فيه في الليلة الماضية. وقد استنتجت أن موعدهما الرومانسي صار على خير ما يرام، لدرجة أن الرجل شعر برغبة في أن يكون لطيفاً بشكل خاص في صباح اليوم التالي.

كان جاري يقف عاري الصدر، لا يرتدي سوى سروال سباحة قديم، ويمسك بخرطوم المياه في يده، وفي اليد الأخرى إسفنجة مليئة بالصابون، وكانت عضلات صدره المفتولة تبرز مع كل حركة من ذراعيه، بينما يتدلى شعره المموج بشكل عشوائي على إحدى عينيه. كان هذا هو تشارلي وايت.

وكان عمره 102 سنة!

كنت قد تعرّفت على ذلك الطبيب الوسيم قبل بضعة أيام عن طريق صهره دوج، الذي كان يسكن في المنزل المجاور. وكانت زوجة دوج في ذلك الوقت هي ابنة تشارلي الصغرى، وكانوا قد انتقلوا إلى هذا الشارع للاعتناء بوالدها. بصراحة، لم أكن أرى حاجة لذلك. كان تشارلي قوي البنية وبصحة جيدة وحاد الذكاء. وعندما التقينا، صافحني مصافحة قوية، ليست ساحقة للعظام، ولكن حازمة وصادقة. كانت عيناه صافيتين بلون الياقوت الأزرق، وكان سمعه جيداً، كما كان يتنقل في حديثه بسهولة من موضوع إلى آخر، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ثم يعود مجدداً. وقد منحه شعره الأبيض المنسدل وشاربه الأنيق مظهرًا أنيقًا ومؤثرًا - حتى إنه ذكّرني قليلاً بشخصية الطبيب جالين آدامز في مسلسل Gunsmoke - وقد عزز ذلك الانطباع عصاه التي كان يمسكها بخفة ورشاقة.

الأدهى من ذلك هو أنني اكتشفت عند الفحص الدقيق أن العصا كانت في الواقع مضرب جولف مقلوبًا. هذا الانطباع من الأناقة العفوية واستخدام مضرب جولف كعصا للمشي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت الأناقة طبيعة في الشخص. وقد أخبرني تشارلي بأسى في ذلك اليوم الأول بأن بعض المشاكل البسيطة في التوازن صارت تمنعه من لعب الجولف، وأضاف وهو يلوح بالمضرب المقلوب أنه يتوقع أن يعود إلى اللعب قريبًا.

باختصار، كان تشارلي شخصًا استثنائيًا. ومع ذلك، لا يتوقع المرء عند اللقاء برجل يبلغ 102 عام أنهما سيبدأان صداقة طويلة وحافلة بالأحداث. فلا مكان للعواطف أو الأمنيات في جداول الإحصاء التي تقول: وفقًا لإدارة الضمان الاجتماعي، وفي عينة عشوائية من 100,000 رجل، يصل فقط نحو 350 منهم - أي أقل من نصف في المائة - إلى سن 102. ومن بين هؤلاء الصامدين الأقوياء، فإن الرجل العادي يتبقى لديه في المتوسط أقل من عامين. وبعد سن 104 تنسل الحياة بسرعة، مثل آخر حبات رمل في ساعة الرمل.

ومع ذلك، وفي صباح هذا الأحد الرطب، عندما رفع تشارلي رأسه من غسيل سيارته ونظر إليّ، ولوح لي بمرح بيده التي تحمل الإسفنجة، كان هناك شيء فيه جعلني أعتقد أن الاحتمالات الخاصة به لن توجد في أي مخطط أو إحصائية. بدت حياته أبسط من غيره من الرجال. على الرغم من أنه، كما سنرى، واجه الكثير من الأحزان والكدر والمشقة، لم يكن تشارلي يسخط على نوائب الحياة أو يحتج على مذلاتها. كما لم يفوّت الاستمتاع بلحظات الحياة الجميلة العابرة، ومن بينها الفرصة النادرة لغسل سيارة حبيبته بيده بعد وقت قصير من ذكرى ميلاده الثانية بعد المائة، تحت ظل شجرة قديمة كانت تقرب من الموت أسرع منه. في حين أن كل شيء آخر؛ السيارة، والشجرة، والإسفنجة المبللة بالصابون، والجار المتفاجئ الذي كان يتوجه لالتقاط صحيفته، والحببية النائمة، وتشارلي نفسه - كان يدور بسرعة عبر الفضاء خارج - الكوكب المعجزة المسمّى الأرض.

لاحقًا، سمعت قصة عن تشارلي بدت كأنها تجسد هذه الصفة المميزة المتمثلة في الامتنان لجمال الحياة، وهو ما يسميه الفرنسيون «joie de vivre» أو «بهجة الحياة». إنها تجربة

بسيطة، ليس فيها شيء معقد أو غامض، لكنها تشير بطريقة ما إلى أكثر دروس الحياة تحريراً وتمكيناً. وهناك أمثلة على ذلك، مثل ماييل كارتر، رائدة الموسيقى الأمريكية الريفية، التي كانت تعزف على جيتارها وتغني للبقاء على الجانب المشرق من الحياة. كذلك السيدة جوليان النورويتشية، الحكيمة التي عاشت في القرن الرابع عشر ونجت من الطاعون الأسود، والتي كتبت بثقة تقول إن «كل شيء سيكون على ما يرام». هذا الدرس رغم بساطته صعب التطبيق: يمكن للحياة أن تكون ممتعة رغم ما تحتويه من صعوبات وخيبات وفقدان وحتى قسوة. ونحن لدينا الخيار لرؤية جمالها في كل لحظة.

سأروي لك قصة تتعلق بتشارلي ورياضته المحبوبة؛ الجولف. فبعد فترة طويلة من وفاة أقرانه في نادي بلو هيلز الريفي، استمر تشارلي في اللعب برفقة رجال أصغر سنًا بكثير - رجال بالكاد تجاوزوا الثمانين. في أحد الأيام، وجد تشارلي نفسه واقفًا على المساحة الخضراء من ملعب الجولف، بينما نزل شريكه إلى حفرة الرمل ليضرب كرة لم تصب الهدف. وبعد فترة من اختفاء الرجل عن الأنظار داخل حفرة الرمل العميقة، رأى تشارلي رذاذ الرمل ينتشر، ثم رأى كرة شريكه تقفز وتدور حتى توقفت على السطح الأخضر للملعب، ثم... لم يحدث شيء. وبعد مرور بعض الوقت، مشى تشارلي نحو حافة المنطقة الخضراء ونظر إلى الأسفل ليرى الرجل الأصغر وهو يحاول دون جدوى الخروج من الحفرة الرملية. شك تشارلي في قدرته على إخراج الرجل من الحفرة، فماذا يفعل؟ لم يكن رد فعله متسمًا بالقلق أو الفزع، ولم يدر بخاطره: ماذا نفعل هنا؟ نحن كبار جدًا على كل هذا، بل انفجر ضاحكًا واستمر في الضحك حتى انطلق صديقه يضحك هو أيضًا. كانا لا يزالان يضحكان عندما وصلت المجموعة التي كانت خلفهما لإنقاذ الثمانيني العالق في الحفرة.

لقد جعل تشارلي من الحياة فنًا، فلقد أدرك كما يفعل الفنانون العظماء أن الحياة مزيج من الكوميديا والمآسي، والفرح والحزن، والشجاعة والخوف. ونحن نختار لحن حياتنا من تلك الأنغام المتضاربة. وحتى عندما بدأت قوة تشارلي تتضاءل، وغدا ملعب الجولف كأنه

مضمار للتحديات، ولم يعد بإمكانه إنكار الوهن والضعف بسبب تقدم العمر، فقد اختار أن يحول مضربه إلى عصا مشي يستخدمها بأناقة.

كانت إقامتنا في الشارع المقابل لتشارلي وايت بداية صداقة استمرت سبع سنوات. ولقد تحدى تشارلي كل الحسابات ليصبح واحدًا من آخر الرجال الباقين، واحدًا من خمسة فقط من أصل 100,000 كان يُتوقع لهم أن يصلوا إلى سن 109. (من الناحية الإحصائية، لم يصل سوى اثنين فقط إلى سن 110، وآخرهما توفي في سن 111). كان تشارلي من بين آخر الأمريكيين الذين عاشوا خلال فترة رئاسة ويليام هوارد تافت، ومن بين آخر الضباط الناجين من الحرب العالمية الثانية، ومن بين آخر الأطباء الذين عرفوا ما كانت تعنيه ممارسة الطب قبل اكتشاف البنسلين، ومن بين آخر الأمريكيين الذين يمكنهم وصف الحال قبل وجود الطرق السريعة، ومن بين آخر الأشخاص الذين شعروا بالانبهار عندما تحركت الصور على شاشة وخرجت الأصوات من صندوق، ثم عندما انتهت حياة تشارلي، كان قد عاش ما يقرب من نصف تاريخ الولايات المتحدة. فقد وُلد تشارلي قبل أن يصنع والتر بي. كرايسلر أول سيارة له، وعاش لأكثر من سبعة عقود بعد وفاة كرايسلر، ما أتاح له رؤية مبنى كرايسلر الشاهق وهو يتحول من رمز لمستقبل نيويورك المجيد إلى رمز لماضيها. لقد عاش بما يكفي ليجد نفسه يغسل (كما أتذكره) سيارة رودستر أرجوانية لامعة تحمل شعار كرايسلر الذي رحل منذ زمن طويل، ومجهزة بنظام دخول عن بعد ومنفذ آي بود.

كان تشارلي رجل علم. فبصفته طبيبًا، كان يعرف كيف يعمل الجسم البشري وكيف يتوقف عن العمل. وكان أول من يعترف بأن عمره الاستثنائي كان نتيجة مصادفة جينية وحظ. ومع ذلك، وعند تأملي لهذا الصديق الرائع، أدركت أنه كان أكثر من مجرد درس حي في التاريخ، وأكثر من مجرد شخص محظوظ جينيًا. فقد كان تشارلي دراسة حالة في كيفية الازدهار - ليس فقط في البقاء على قيد الحياة، بل الازدهار - خلال أية فترة زمنية، قصيرة أو طويلة. غالبًا ما كان يسأله الناس عن سر العمر الطويل، وكان تشارلي دائمًا صادقًا تمامًا: لا يوجد سر، بل مجرد حظ. لكن إن لم يكن يعرف أسرار الحياة الطويلة، فقد كان يعرف الكثير عن الحياة السعيدة. فمن خلال المآسي والخسارات، والفقر والإخفاقات،

والأخطاء والفرص الضائعة، استطاع أن يحافظ على ثبات وتوازن واعتماد على النفس على النحو الذي يوصف اليوم بمصطلح «المرونة». فقد كانت لديه موهبة في العثور على السعادة واغتنام الفرص، والتمسك بالأشياء المهمة. وكان يتمتع بقدرة غير عادية على أداء مهمة أكثر صعوبة، ألا وهي: التخلي عن كل ما عدا ذلك.

ذات مرة أخبرت ابنته مادلين زوجتي قصة تجسد سمة جوهرية في شخصية تشارلي. لقد وجدت نفسها متورطة في مشكلة في حيهم السكني، حيث تبادل الجيران التعليقات المؤذية، وتكررت التصرفات المستفزة بشكل أدى إلى تصاعد الموقف. وعبرت مادلين عن تعجبها من تصرفات الأشخاص الآخرين في تلك المواقف. في النهاية وجدت نفسها تتلقى مكالمات هاتفية غاضبة. كان تشارلي يستمتع من مكانه على طاولة المطبخ، لكنه لم يتدخل. انتظر حتى أنهت المكالمات، ثم انتظر بعض الوقت الإضافي بينما كانت تصف الموقف. وبعد فترة من الصمت، نصح ابنته الصغرى بأن تتجاوز الأمر. قال: «ستنهكين نفسك إذا انغمست في هذه الأمور. لا أملك وقتًا لأشخاص كهؤلاء».

كانت ثمة حكمة قرون مجسدة في تلك النصيحة المختصرة. رغم أن تشارلي لم يكن طالبًا للفلسفة، فإنني أدركت في كلماته جوهر فلسفة الرواقية (قوة العزيمة والصمود)، وهي واحدة من أكثر المدارس الفكرية صمودًا وفائدة. إنها فلسفة جذبت عبيدًا مضطهدين، مثل إبيكتيتوس، العبد الروماني في القرن الأول الذي ابتسم بينما كان سيده السادي يلوي ساقه حتى انكسرت، وجذبت أباطرة مثل الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس في القرن الثاني. لقد علم الرواقيون أن الحياة الطيبة تتطلب فهمًا عميقًا لما يمكننا التحكم فيه، والأصعب من ذلك، إدراكنا لكل ما هو خارج عن سيطرتنا. نحن لا نقرر إلا أفعالنا وردود فعلنا. اختياراتنا الإرادية. ووفقًا لإبيكتيتوس، فإن التعليم الحقيقي يتضمن فهم «أن بعض الأمور تقع ضمن نطاق قدرتنا، بينما لا يقع البعض الآخر ضمنها؛ ويشمل الإرادة وكل الأفعال التي تعتمد عليها». أما ما لا يقع ضمن نطاق قدرتنا فيشمل الجسم وأجزاءه، والممتلكات، والوالدين، والإخوة، والأبناء، والبلد، وبشكل عام كل من نعيش معهم في المجتمع.

كانت هذه الفكرة تعكس تصميم إبيكتيتوس على العيش بكرامة وأن تكون له غاية حقيقية، حتى إن كان عبدًا وكان سيده يتحكم في جسده وأفعاله. فقد كان يمكن شراؤه وبيعه وجعله يعمل كما الحيوانات، لكن لم يكن يمكن إجباره على التفكير أو التصرف - أو أن يكون - كالحیوان. بعد أن نال حریتة علّم طلابه أن «الظروف هي التي تكشف عن حقيقة الناس؛ لذا عندما تواجه صعوبة، فتذكر أن الله يجهزك ويختبرك من خلال الصعوبات، مثلما يختبر المدرب المصارعين ليعدهم للمنافسة. النجاح لا يتحقق دون جهد وتعب».

وللأسباب نفسها، نالت الرواقية اهتمام فيكتور فرانكل، وهو طبيب أعصاب نمساوي نجا من معسكرات العمل بالسخرة في داكاو. فمن خلال ملاحظته للسجناء المثاليين الذين حافظوا على كرامتهم ونواياهم الطيبة حتى في تلك الظروف الجحيمية، استنتج فرانكل أن «كل شيء يمكن أن يُؤخذ من الإنسان باستثناء شيء واحد: آخر الحريات الإنسانية؛ أن يختار المرء موقفه في أي ظرف كان، وأن يحدد طريقته بنفسه في مواجهة ما تطرحه الحياة». وقد نالت هذه الفلسفة اهتمام أجيال من المدمنين على الكحول الذين يسعون للتحرر من الإدمان الذي يستعبدهم، حيث يرددون في دعائهم: «اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، وامنحني الشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة لمعرفة الفرق بينهما».

ما فهمه ماركوس أوريليوس هو أن جميعنا عبيد من نواحٍ معينة، حتى الإمبراطور الروماني نفسه. نحن عبيد للزمان والمصادفات؛ ونحن ملزمون بالقدر. وقد كتب في تأملاته: «أحب اليد التي يقدّمها لك القدر وتصرف بها كما لو كانت يدك». وذكر في موضع آخر: «ما يدهشني دائمًا هو أننا جميعًا نحب أنفسنا أكثر من حبنا للآخرين، ومع ذلك نهتم برأي الآخرين أكثر من اهتمامنا برأينا الخاص».

كما توصل رالف والدو إمرسون إلى الحكمة نفسها: «على الإنسان أن يتصرف في مواجهة كل معارضة كما لو أن كل شيء عابر وزائل إلا هو». وأشاد روديارد كيبلنج بأولئك الذين

«يمكنهم مواجهة النصر والهزيمة / والتعامل معهما كجزء من الحياة دون تركهما يؤثران عليك كثيرًا»، أما تشارلي فقد نصح بأن «ندع الأمور تمضي» فيما يتعلق بالأشياء التي لا يمكننا التحكم فيها. والالتزان الذاتي الرواقي هو أيضًا الأساس الذي تُبنى عليه الصفات التي نتحدث عنها الآن، مثل المثابرة والمرونة، فالرواقية هي الوقود البشري الذي يمنحنا أكبر قدر من الصمود. تمتدح قصيدة كيبلنج الشهيرة الاعتماد على النفس الذي يسمح لك بأن:

... تحت قلبك وأعصابك وطاقتك

على مواصلة الخدمة حتى بعد رحيلها،

وتظل صامدًا عندما لا يبقى فيك شيء

سوى الإرادة التي تقول لكل شيء آخر: «اصمد واستمر!».

في كثير من الفلسفات العظيمة، يعد هذان المفهومان المتناقضان ظاهرًا «التخلي» و«التشبث!» في الواقع وجهين لعملة واحدة. لكي تتمسك بالأهداف المحكمة التي تحددها إرادتك، عليك التخلي عن الوهم القائل بأنك تستطيع التحكم في الأشخاص أو الأحداث أو مجريات القدر. لا يمكنك تغيير الماضي، ولا التحكم بالكامل في المستقبل؛ لكن يمكنك اختيار مَنْ تكون، وما تمثله، وما تسعى لتحقيقه.

وقد قضيت نحو ستين عامًا وأنا أتعلم هذا الدرس وأنساه وأعيد تعلمه مرة أخرى. ولكنني أعتقد أن تشارلي قد استوعب جوهره في يوم واحد فقط، ولم ينسَه بعد ذلك أبدًا. لقد كان سريع التعلم ونابعة؛ لأنه استوعب هذه الحكمة، وهذا السر الغامض للرضا في الحياة، وهو لا يزال في سن الثامنة. إنه شيء لفت للنظر حقًا.

ولكنه في الواقع كان لديه معلم قايٍ ذو كفاءة بشكل صارم.

الثالث

كان تشارلي هو ثالث ابن يولد باسم تشارلز هيربرت وايت في شجرة عائلته، لكن الاسم لم يكن يعني له الكثير؛ فقد قال ذات مرة: «كل ما في الأمر أن أُمِّي اتبعت التقليد العائلي في تسمية الأبناء بأسماء الآباء»، ومع ذلك كان تشارلي فخورًا جدًا بأصوله الأمريكية العريقة؛ فنسبه من ناحية والدته يعود إلى الكابتن توماس جريفز، أحد المستوطنين في جيمس تاون والعضو في أول هيئة تشريعية في مستعمرة فرجينيا. ومن جهة والده، تعود أصول تشارلي إلى عائلة كارتر الأرستقراطية في فرجينيا، التي استقرت أيضًا في جيمس تاون. قبل قرن من إعلان الاستقلال، كان روبرت كارتر يجمع مساحات شاسعة من الأراضي والعبيد، ويتمتع بنفوذ سياسي كبير، لدرجة أن سكان فيرجينيا الآخرين أطلقوا عليه لقب «الملك»، كما كان من بين أحفاده اثنان من رؤساء الولايات المتحدة، والجنرال الكونفيدرالي روبرت إي. لي. كان لدى تشارلي شعور قوي بأن هناك شيئًا مميزًا في اندماج تلك الأنساب. قال متفكرًا: «إنه شيء غريب وغير عادي أن تلتقي هاتان العائلتان بعد نحو عشرين جيلًا بزواج والديّ. إنها فرصة تكاد تُقدَّر بواحد في المليار. يمكنك أن تقول إن هاتين العائلتين هما الرائدتان الأوليان لأمريكا. وأنا محظوظ بهذا الإرث».

وُلد تشارلي في 16 أغسطس عام 1905، في زمن كانت فيه آثار الحرب الأهلية ملموسة. كان المحاربون القدامى الذين عايشوا صدمات الحرب الأهلية الدامية بين الشمال (جيش الاتحاد) والجنوب (الجيش الكونفيدرالي) لا يزالون جزءًا نشطًا من المجتمع، وكانت قصصهم وتجاربهم حاضرة في الحياة اليومية لتشارلي والناس في زمنه. بالنسبة لتشارلي وقتها كانت معاركهم حاضرة في ذهنه ومؤثرة على الحياة من حوله مقارنة بتأثير حرب فيتنام بالنسبة لطفل وُلد اليوم مثلًا. وعلى الرغم من أن تشارلي وُلد في جايلسبيرج، إلينوي، أرض لينكون، فإن أصله من فيرجينيا جعله يميل إلى «الجنوبيين». كان تشارلي

الصغير معجبًا بجده من جهة والده، (تشارلز إتش. وايت الأكبر)، الذي كان كشافًا في سلاح الفرسان الكونفيدرالي، واحتفظ بمهاراته في الفروسية حتى بلغ الثمانين من عمره. كان يسعد بزياراته إلى مزرعة جدّيه في مقاطعة سالين في ولاية ميزوري، حيث كانت جدته تحكي له قصصًا عن إخفائها للفضة الخاصة بالعائلة في علب الحليب حتى لا يتمكن الاتحاديون من العثور عليها، بينما كان جده يبث فيه حبه للخيل. وبعد مرور نحو قرن، كان تشارلي لا يزال يحب أن يروي قصة سباق عربات الخيول الذي حدث في أواخر حياة جده، عندما انكسر قضيب العربة التي كان يقودها الفارس المسن، فاندفع إلى ظهر الحصان ليكمل السباق بشجاعة.

وقد ورث الصبي تلك الروح منه، فكان طفلًا شجاعًا مليئًا بالحيوية. وكانت أول ذكرى واضحة له في عمر الثالثة أو الرابعة لعربة الترام التي تمر أمام منزل عائلته الذي كان يقع عند نهاية خط الترام. كان تشارلي يستمتع هو وصديق من جيرانه بالتسلق على ممتص الصدمات في السيارة، بينما كانت تدور ببطء لتقوم بجولة أخرى. وقد كانا أحيانًا يحاولان القفز إلى داخل العربة ليتنزها في الترام. وذات مرة طلب المحصل من والدة تشارلي أن تضع حدًا لهذه اللعبة الخطيرة، ولكن لورا وايت كانت مشغولة للغاية بتلبية متطلبات أسرتها الصغيرة، فلم تتمكن من متابعة كل ترام يمر؛ لذا ربطت طرف حبل طوله 4.5 متر بكاحل تشارلي وربطت الطرف الآخر بشجرة. وتذكر تشارلي أنها قالت ببساطة: «أنا لن أراقبك، ولكنني سأربطك هنا مثلما أفعل مع الماشية».

كان عدد سكان مدينة جايلسبيرج يبلغ وقتها نحو عشرين ألف نسمة، وهي تقع في الأراضي المنخفضة في السهول الكبرى في أمريكا، المنطقة الشاسعة الخصبة المزروعة بالحبوب والأعشاب، والتي تتخللها البيوت الريفية وحظائر الماشية، وتعج بالطرق الترابية وآثار العربات. كانت المدينة أكثر هدوءًا خلال النهار وأشد ظلامًا في الليل مما نستطيع تخيله الآن. يمكننا اعتبارها بلدة أمريكية صغيرة، إلا أن الفرق بين المدن الصغيرة والكبيرة لم يكن واضحًا آنذاك. فقد أظهر تعداد السكان الأمريكي لعام 1900 أن هناك فقط ست مدن في جميع أنحاء البلاد يتجاوز عدد سكانها 500,000 نسمة، فإذا بلغ عدد سكان

المدينة 200,000 نسمة، كان ذلك يضع المدينة ضمن أعلى 20 مدينة اكتظاظًا بالسكان على مستوى البلاد، بينما إذا كان عدد السكان يبلغ 100,000 نسمة، فذلك يجعلها ضمن أعلى 40 مدينة. بدأ أن جايلسبيرج تتقدم بسرعة في التصنيف، وكانت بمثابة خلية من النشاط التجاري والطموح. فلم تكن منطقة الغرب الأوسط هادئة على الإطلاق. كانت الولايات التي تقع في قلب البلاد تلعب دورًا حيويًا في تغذية أمريكا والعالم. فقد كانت مدينتا أوماها في نبراسكا وسانت جوزيف في ميزوري أكثر سكانًا من لوس أنجلوس أو أتلانتا أو سياتل. ومثل جايلسبيرج التي شهدت نموًا يقارب 400% خلال العقود الأربعة السابقة، كانت أوماها وسانت جوزيف مركزين أساسيين في شبكة السكك الحديدية متسارعة النمو التي كانت تنقل المسافرين والبضائع عبر أمة تنمو بسرعة. فقد كانت ساحات تحويل وتغيير مسار القطارات تعمل على مدار الساعة بثلاث نوبات عمل لاستيعاب قطارات خط شيكاغو وبيربلينجتون وكوينسي، حيث كانت تتصل مع خطوط أتشيسون وتوبيكا وسانتا في، لتبديل العربات بأخرى جديدة في واحدة من أحدث محطات البضائع في العالم.

كان والد تشارلي (تشارلز إتش وايت الابن) رجل دين من طائفة نشأت في ولايات كنتاكي وتينيسي وغرب بنسلفانيا في أوائل القرن التاسع عشر، خلال فترة الانتعاش الديني في البلاد المعروفة باليقظة الكبرى الثانية.

نشأ تشارلز إتش وايت الابن في مزرعة العائلة في ولاية ميزوري، وكان شابًا قوي البنية بشعر مجعد منحول قليلًا من الأمام، وأنف طويل. وقد أرسله والداه إلى جامعة كنتاكي، حيث التقى الباحث الشاب بفتاة قروية اسمها لورا جريفز من بلدة بينكارد القريبة، ووقع في حبها. وبعد أن أسس دار العبادة التي سيتولى إدارتها، تزوج من حبيبته التي كانت في العشرين من عمرها وقتذاك في عام 1893.

كان رجل الدين الشاب لطيفًا ومحبوبًا ويتمتع بحس فكاهي سريع، وذلك حسبما يتذكر ابنه بعد أكثر من قرن من الزمان. كانت عذاته تميل إلى الوضوح والبساطة بدلًا من اللغة

الشعرية المعقدة، وكان يتناول مواضيع تردد صداها لسنوات لاحقة في فلسفة تشارلي، فقد نصح مثلاً في إحدى خطبه: «علينا أن ننسى إخفاقات الماضي؛ لأننا كثيراً ما نغفل عن الحاضر بينما نتأسى على لحظات فشلنا في الماضي. يتأسف بعض الناس على آخر شعاع للشمس وهي تغرب، بينما يوجّه آخرون أنظارهم نحو الشرق لانتظار أول خيوط الفجر».

ومع ذلك، لم يكن الوعظ هو أقوى مجالاته، فسرعان ما اكتشف أن موهبته تكمن في إدارة الجوانب العملية والتي يتم إهمالها غالباً في حياة دار العبادة، وعلى حد وصف تشارلي: «كان بارعاً بالتأكيد في تطبيق تعاليم الدين بشكل عملي». وجد الواعظ الشاب نفسه يتنقل بشكل متكرر بين دور عبادة مثقلة بالديون، متوقفاً في كل واحدة منها لفترة قصيرة فقط لموازنة الحسابات واستعادة ثقة الناس. وبعد أن نجح في أولى مهامه في مدينة لبنان في ولاية ميزوري بانتشالهم من الديون، استدعي السيد وايت إلى دار عبادة في جوبلين، غرباً على الطريق الذي سيصبح لاحقاً طريق 66 السريع الشهير. وعندما بدأت دار عبادة جوبلين في النمو مجدداً واستقرت أوضاعها المالية، توجه وايت إلى كلارندا بولاية أيوا، حيث الريف الجميل الممتد في وادي نهر ميزوري.

واجهت دار العبادة في كلارندا فشلاً مالياً، لكن الخطأ ربما لم يكن خطأ الإدارة بالكامل. فقد كانت تسعينيات القرن التاسع عشر فترة شهدت ازدهار وكساد في الاقتصاد الأمريكي. وفي كل مرة واجهت فيها وول ستريت أزمة جديدة، كان المزارعون في الغرب الأوسط هم من يدفعون الثمن. فقد كانت أسعار محاصيلهم تنهار، ويتم الحجز على منازلهم التي اشتروها بالرهن العقاري، وتتعرض دار العبادة في منطقتهم للإفلاس. شعر العديد من الناس بأن الاقتصاد يعمل لصالح أباطرة السكك الحديدية والممولين. وكانت الصحف تنشر قصصاً عن القصور في نيوبورت في ولاية رود آيلاند، التي تمتلك ممرات للسيارات من الرخام، ثم في العمود التالي تعرض لمشاهد للأطفال الجياع في الأكواخ المتهالكة أو الأحياء الفقيرة، حتى إن بعض أفراد جماعة وايت الذين كانوا يعانون تلك الصعوبات انضموا إلى تيار الشعبوية الذي ساد في ذلك الوقت، وهو تيار كان غالباً معادياً للمهاجرين، ويتسم بضيق الأفق، وكان رافضاً للتأثيرات الخارجية.

لكن وايت فضل اتباع تيار فكري مختلف، فقد تولى في كلارندا دورًا بارزًا في حركة شوتوكوا المحلية، وهي احتفال سنوي شعبي بالفنون والأفكار انتشر في قلب البلاد مع بداية القرن. بالنسبة لمن لم تكن لديهم أجهزة راديو أو تلفزيونات أو مسجلات الصوت (الفونوغراف) والذين كانوا يعيشون على بعد ساعات من أقرب مكتبة أو مسرح، كان مهرجان شوتوكوا الصيفي بمثابة احتفال أسبوعي بالإنسانية والجمال يستغرق أيامًا طويلة وهادئة. انضمت المدن والبلدات إلى هذا المسار لتقديم مهرجانات شوتوكوا للعائلات التي تأتي للتنزه تحت السماء التي تغطي المروج الخضراء.

كعضو في لجنة المهرجان في كلارندا، ساعد وايت في اختيار المحاضرين، والفرق التمثيلية، والموسيقيين، والشخصيات العامة من بين المئات من العروض التي كانت تُقدم في إطار برنامج شوتوكوا. وكان السياسي الشهير ويليام جينينجز بريان، المعروف بالعامي العظيم، قد ارتحل مسافات طويلة من مخيم إلى آخر، مزوجًا لبرنامج الذي يدعو إلى الإصلاحات المالية والروحية. وقد ألقى مؤسس جامعة تمبل، راسل كونول، خطبته التحفيزية بعنوان «حقول الألماس» أكثر من ستة آلاف مرة على مدار نحو أربعين عامًا، كما قدمت فرقة فيسك جوبيلي الأناشيد الروحية الأفريقية الأمريكية لمئات الجماهير من ذوي البشرة البيضاء، في حين أبكت المُصلحة الاجتماعية مود بالينجتون بوث المستمعين بوصفها لحياة السجناء في أمريكا. في أحد الأعوام، استضاف مهرجان شوتوكوا في كلارندا المعلم الشهير (بوكر تي. واشنطن) ليلقي خطبة، وهو مؤسس معهد توسكيجي ومؤلف كتاب Up from Slavery. وقد تجمّع مئات من سكان أيوا حول منصة صغيرة ليستمعوا بشغف إلى بوكر تي. واشنطن وهو يلقي خطبته تحت ظلال الأشجار العالية.

ثم في ربيع عام 1899، وبعد أن أنقذ السيد وايت دار عبادة كلارندا من حافة الإفلاس، انتقل مع عائلته إلى جيلسبيرج، حيث وصفته الصحيفة المحلية بـ«الرجل ذي الشخصية الأكثر لطفًا»، وبدأ في مهمة إنقاذ أخرى. وبحلول نوفمبر، كان رجل الدين قد جمع بالفعل 3750 دولارًا لسداد الديون واستقطب سبعين عضوًا جديدًا لدار العبادة. وكانت عائلته تكبر أيضًا؛ فقد كان لدى تشارلي ثلاث شقيقات أكبر سنًا (ورزق لاحقًا بأخت أخرى أصغر).

وهكذا بدأ القرن العشرون في عالم لم يشهد بعد إنسانًا يحلق في السماء؛ وفي بلد يزيد عدد سكانه على 75 مليون نسمة، ومجموع السيارات فيه لا يتجاوز 8,000 سيارة؛ وحيث لم يكن لدى ما يزيد على 10% من الأطباء تعليم جامعي، وكان الإسهال من الأسباب الرئيسية للوفاة. ومع ذلك، كان هناك شعور بإمكانات جديدة، لا حدود لها، ينتشر من المدن الكبرى في العالم ليصل إلى أماكن، مثل جيلسبيرج وكلارندا وجوبلين. ولا شك أن بعض من ارتادوا دار عبادة وايت قد سافروا بالقطار قبل بضع سنوات إلى المعرض الكولومبي العالمي في شيكاغو، حيث قدم إدوارد موينبريدج أول عروض للأفلام المتحركة التي شاهدها الجمهور مقابل أجر، وقدم جورج فيريس جولات مثيرة ومشوقة على العجلة الحديدية الضخمة التي تحمل اسمه. ولا بد أن بعضهم قد قرأ أيضًا عن المعرض الكبير لعام 1900 في باريس، حيث جال الزوار المذهولون في قاعة الآلات الكهربائية، حيث تستفيد المولدات العملاقة من صواعق البرق بينما تصدر صوتًا خافتًا بالكاد يُسمع. في قاموس عام 1900، كان يُطلق على هذه الآلات اسم «الدينامو»، وهو اسم يعكس تمامًا الحماسة التي أثارته في المشاهدين الذين حاولوا تخيل تأثيراتها المستقبلية. كانت هذه القوة قادرة على التغلب على ظلام الليل، وتنظيم درجات الحرارة، والقضاء على الأعمال الشاقة، وربما في يومٍ ما (رغم أن هذا اليوم كان بعيدًا جدًا بالنسبة للكثيرين) تمكين الحواسيب. وفي تلك اللحظة، وفي وجود الدينامو في باريس، أعلن هنري آدمز—بمشاعر مختلطة من الدهشة والقلق—أن عنق التاريخ قد انكسر.

في هذا الفجر، وُلد تشارلي وايت ليكون محط رعاية شقيقاته، وليقضي وقتًا قصيرًا مربوطًا بشجرة في الفناء على يد والدته. لكن هذا التصرف كان بعيدًا عن طبيعة لورا جريفز وايت تمامًا. ففي معظم ذكريات طفولة تشارلي الأخرى، كان يستمتع بتساهل والدته ولطفها. فقد أتاحت له حرية التجول والاستكشاف وإشعال النيران وبناء الحصون، ولعب أدوار رعاية البقر والسكان الأصليين مع أصدقائه.

2

في الوقت الذي كان فيه تشارلي يستعد للالتحاق بالمدرسة للمرة الأولى، اتسع عالمه عندما قبل والده دعوة لقيادة دار عبادة تعاني الصعوبات في حي شعبي للطبقة العاملة في مدينة كانساس. كانت تكلفة تربية خمسة أطفال قد أصبحت تمثل عبئًا على راتب رجل الدين، وسمحت له الحياة في مدينة أكبر بزيادة دخله من خلال العمل وكيل تأمين على الحياة، حيث لم تعد حياة التنقل المستمرة لإنقاذ دور العبادة مناسبة لرجل لديه عائلة.

بالنسبة لطفل في الرابعة أو الخامسة من عمره، كانت مدينة كانساس ضخمة بحق حيث سكنها نحو 250,000 شخص وقتها، مع وجود عدد مماثل تقريبًا من الأبقار والأغنام والخيول في الحظائر والإسطبلات المزدهمة في منطقة ويست بوتومز. وبينما كانت عائلة وايت تقترب من المدينة بالقطار، حملت نسمة الهواء المنتشرة رائحة الثراء المميزة لمدينة كانساس إلى عربة القطار الخاصة بهم، فلم تكن هناك مدينة في العالم تفوقها في عدد مزارع الماشية سوى شيكاغو. كان الزوار يشمون رائحة المدينة قبل أن يروها. وكانت أسماء مثل أرمور وسويفت وكوداهي تزين واجهات مصانع تعبئة اللحوم التي برزت من النوافذ، بينما كان قطار تشارلي يصل إلى محطة يونيون، التي كانت تعاني أضرار الفيضانات، وتبدو كتلة معمارية غير متناسقة. بعد تسلّم الأمتعة، عبرت عائلة وايت إلى الشارع المزدهم. وعلى الفور ملأت أذني الصبي أصوات الماشية، إضافة إلى الموسيقى المنبعثة من المقاهي القريبة. بكل هذه المناظر المزدهمة والضوضاء ورائحة الدم والبراز، كانت مدينة كانساس تغمر الحواس بالكامل. وربما كان طفل آخر سيشعر بالرهبة من كل ذلك، لكن تشارلي لم يفعل. وبينما كانت عائلته تستقل الترام الذي يربط محطة القطار بالحي التجاري الذي يطل على أسواق الماشية، حصل تشارلي على أول لمحة حماسية للمدينة التي ستصبح منزلًا له لأكثر من قرن.

وعلى الرغم من أن عائلة وايت لم تكن ثرية بأي شكل، فإن جهود وايت وحكمته قد آتت ثمارها. ففي عام 1912، تمكن من شراء منزل أنيق مكون من ثلاثة طوابق على حافة أحد أغنى أحياء المدينة. واصطفت على طول شارع كامبل مجموعة من المنازل المماثلة على قطع أراضٍ مرتبة، وكأنها جنود منتظمون، كل منها مزود بشرفة أمامية واسعة تُميز منازل

مدينة كانساس قبل الحرب. كانت هذه المجموعة من المنازل الجديدة تبعد فقط مسافة شارعين غرب القصر المهيب الذي يسكنه ويليام جيه. سميث، عملاق صناعة عربات التلفريك. وكان هذا القصر المبني من أحجار وادي جراند كانيون على الطراز الروماني القوي، يتألف من ثلاثين غرفة، وعُد الأكبر في سلسلة المنازل على طول شارع تروست المعروفة بـ«صف منازل المليونيرات».

وعلى الرغم من روعة القصور، كان تشارلي يفضل التوجه في الاتجاه المعاكس بعد انتهاء اليوم الدراسي في مدرسة هايد بارك الابتدائية. وقد وجد الفتى الجديد في المدينة تلة قريبة ليشاهد منها أكبر مشروع بناء في المدينة: وهو محطة قطارات جديدة لتحل محل القديمة الواقعة بجوار أسواق الماشية.

فكان يستمتع بالجلوس لساعات طويلة يراقب هذا المشروع الضخم. وكانت مساحة محطة يونيون نحو 850,000 قدم مربع، وبذلك كانت ستصبح ثالث أكبر محطة قطارات في البلاد في ذلك الوقت. وعلى الرغم من الطموحات الكبيرة حول هذا الصرح المعماري الجميل، فقد تم بناؤه باستخدام أساليب لم تتطور كثيرًا عن تلك التي كانت في زمن مايكل أنجلو، حيث كان العمال يجزّون الخيول والحمير لسحب المجارف الثقيلة، بينما استخدم آخرون المعاول والمجارف لشق الحفرة الشاسعة لأساس المبنى. وقد بذلت قوة العضلات -البشرية والحيوانية- جهدًا كبيرًا في نقل كميات هائلة من التراب، ورفع أطنان من الحجارة، وصب مساحات واسعة من الخرسانة. وعلى مدى أكثر من ثلاث سنوات، وفي الحر والبرد، كان الفتى يعود مرارًا وتكرارًا إلى التلة ليراقب صعود هذا الصرح العظيم. لقد وصلت الأسقف في القاعة الكبرى إلى ارتفاع خمس وتسعين قدمًا فوق أرضيات التيرازو المرصعة. وتدلت الثريات التي تزن كل واحدة منها نحو طنين في الهواء. وباقتراب ذكرى ميلاد تشارلي التاسع، كان العمل قد اكتمل أخيرًا. وافتتحت محطة القطارات الجديدة في مدينة كانساس في أواخر عام 1914، وسرعان ما أصبحت أحد أكثر مراكز السكك الحديدية ازدحامًا في أمريكا.

لكن الفتى على التلة لم يكن مجرد مراقب. إذ كانت الدراسة سهلة على تشارلي، ما أتاح له الكثير من الوقت للعب. وكانت اللعبة الجديدة؛ «كرة السلة»، تحظى بشعبية في مدينة كانساس، بل في الواقع كان مخترع كرة السلة جيمس نايسميث يقوم بتدريب فريق ناشئ في جامعة كانساس القريبة. قام تشارلي وأصدقاؤه بتثبيت سلة فواكه على ارتفاع على الحائط لتكون بمثابة السلة، وانضموا إلى موجة الهوس باللعبة. كما استمتعوا بلعب نوع من هوكي الشوارع أطلقوا عليه اسم «شيني»، حيث كانوا يستخدمون العصي وعلبة قصدير في اللعب.

كما كانوا يلعبون بأعواد الثقاب. ففي أحد الأيام، أشعل تشارلي وأصدقاؤه نارًا للتخييم في حديقة المنزل، وقرر تشارلي القفز فوقها زهابًا وإيابًا، بعدما سمع أن محاربي سكان أمريكا الأصليين كانوا يفعلون ذلك كجزء من طقوسهم الحربية. ليناسب الدور، ارتدى سروالًا به شرابش، لكن أثناء قفزه فوق النيران، اشتعلت النيران في الشرابش. لحسن الحظ، كانت والدته قريبة وسمعت صرخاته المذعورة. فهرعت ومعها بطانية وأطفأت البنطلال المشتعل. وتعلم تشارلي من هذه التجربة درسًا طبقه بعد سنوات، عندما اشتعل فستان ابنة أخته الصغيرة بسبب شرارة من ألعاب عيد الاستقلال النارية. فأمسك بسجادة من الشرفة ولفها حولها، ما أنقذ الفتاة من التشوهات أو الموت.

إذا كان لتشارلي أية ذكريات سلبية أو محزنة خلال طفولته المبكرة، فإن تشارلي لم يتحدث عنها معي أو مع أي شخص آخر. ففي ذاكرته، كانت طفولته المبكرة مليئة بالمرح. ومع ذلك، فكلما استرجع ذكريات طفولته خلال السنوات التالية، كانت ذاكرته لا تفشل أبدًا في التطرق إلى اليوم الذي تغير فيه كل شيء في بضع ثوان. كان ذلك اليوم هو اليوم الذي تعرف فيه تشارلي على تقلبات القدر.

كان العام هو 1914، وكانت محطة يونيون تقترب من الانتهاء. كانت أوروبا وآسيا لا تزالان تحت حكم الأمراء والباشوات، وكانت مستعمراتهم تمتد عبر الكرة الأرضية. بدأ يوم الحادي عشر من مايو كيوم عادي من أيام الربيع، وهو اليوم الذي كانت فيه أخت تشارلي الصغيرة ستكمل خمس سنوات. كان اليوم هو يوم الإثنين، عندما خلع رجل الدين رداءه الذي يرتديه في دار العبادة وارتدى زي وكيل التأمين على الحياة. بعد الإفطار غادر السيد وايت منزلهم في شارع كامبل واتجه نحو وسط المدينة. من المحتمل أنه استقل الترام، لكن من المحتمل أيضًا أنه استقل عربة تجرها الخيول.

كان والد تشارلي كبيرًا بما يكفي ليتذكر عندما كانت أعلى المعالم في معظم المدن هي أبراج دور العبادة أو صوامع الحبوب. أما في ذلك الوقت، فقد أصبح يشغل مكتبًا في الطابق التاسع من ناطحة سحاب مكونة من اثني عشر طابقًا في وسط مدينة كانساس. كانت هذه الناطحة الشاهقة نتيجة دمج تطورين هندسيين: وهما الهياكل الفولاذية والمصاعد الكهربائية. كان الهيكل الفولاذي للفندق أو البرج المكتبي يشبه إلى حد كبير جسرًا مائلًا مقلوبًا. وكما أظهرت جسور السكك الحديدية، يمكن لهذه الهياكل الخفيفة نسبيًا تحمل أوزان هائلة، وبالتالي لم يعد للبناء حدٌ في الارتفاع. هكذا تزايد ظهور الأبراج الشاهقة في المدن عبر البلاد، بل ووفقًا لإحدى الإحصائيات، كان يتم تدشين ثلاثة أبراج جديدة بارتفاع عشرة طوابق أو أكثر في مدينة نيويورك كل أسبوعين بين عامي 1900 و1910. ولا شك أن عائلة وايت قد قرأت عن افتتاح البرج الجديد الذي حاز لقب أطول برج في العالم، وهو برج وولورث في نيويورك، الذي كان يبلغ طوله نحو 250 مترًا فوق منطقة برودواي السفلى.

لم يكن مبنى جلويد في مدينة كانساس، والذي كان به مكتب السيد وايت، ينافس على الرقم القياسي لأطول الأبراج، لكنه كان يرتفع إلى 55 مترًا فوق شارع والنت. وقد تم بناؤه في عام 1909، وهو يقع في ظل مبنى البنك الوطني للتجارة القريب، ويشكّل جزءًا من الأفق المتنامي للمدينة، معلنًا تحولها من مدينة ريفية إلى مدينة مزدهرة. وإلى جانب

حجمه، كان مبنى جلويد يتميز أيضًا بميزاته الأمنية. وباعتباره أول برج في المدينة يتم بناؤه بالخرسانة المسلحة، كان «مقاومًا للحريق بشكل كامل».

في نحو الساعة العاشرة صباحًا، نهض والد تشارلي من مكتبه، وارتدى معطفه وقبعته وأشعل غليونه، ثم خرج في مهمة عمل. كان يعتزم المشي إلى سوق المدينة القريب لجمع قسط تأمين على حياة أحد العملاء. وعندما وصل إلى المصعد في الرواق، لاحظ أن عامل التشغيل المعتاد لم يكن موجودًا. كانت الأبواب مفتوحة، وكان هناك عامل بديل يقف عند ذراع التحكم.

وبمجرد أن دخل وايت إلى المصعد، شغل العامل البديل المصعد فجأة، ما تسبب في انطلاقه بسرعة نحو الأعلى، والأبواب لا تزال مفتوحة؛ فخلق هذا فجوة بين أرضية الممر الثابتة وأرضية المصعد التي بدأت في الصعود وأصبحت على مستوى الخصر. حدث كل شيء بسرعة لدرجة أن قدما وايت لم تلامسا أرضية المصعد، بل انزلقتا إلى الفجوة المفتوحة.

سقط الجزء العلوي من جسمه على أرضية المصعد الصاعدة، بينما كانت ساقاه تتدليان في عمق الفجوة. وفي لحظة، اصطدم جسده بالإطار العلوي للباب نتيجة حركة المصعد المفاجئة بقوة شديدة تركت أثرًا بارزًا على المعدن. وبسبب زعر عامل التشغيل من رؤية الرجل محشورًا نصفه داخل المصعد ونصفه خارجه، شغل المصعد في الاتجاه المعاكس. لكن عندما اندفع المصعد لأسفل، انزلق الجزء العلوي من جسم وايت وتبع قدميه إلى الفجوة. سقط والد تشارلي من ارتفاع تسعة طوابق فلقى حتفه، بعد أن ظل جسده يتخبط بين الجدران أثناء سقوطه. كان في الثانية والأربعين من عمره. وما تبقى منه على أرضية المصعد كان غليونه وقبعته!

لقد سمعت تشارلي يروي هذه القصة عدة مرات، ولم يسبق له أبدًا أن طرح الأسئلة التي تتبع عادة الحوادث غير المتوقعة، مثل: «لماذا هو بالذات؟» لم يعبر أبدًا عن شعوره بالظلم من وفاة هذا الرجل الطيب قبل أوانه في عالم كان فيه أبشع الطغاة في التاريخ، مثل هتلر

وستالين وماو، ما زال أمامهم عقود من الحياة ليعيشوها. لم يكن لدى تشارلي وقت للتفكير في احتمالات «ماذا لو» مثل: ماذا لو كان عامل التشغيل أكثر خبرة؟ ماذا لو كان أبوه قد انطلق في مهمته قبل خمس دقائق أو بعدها؟ ماذا لو كان قد نسي غليونه وعاد إلى مكتبه؟ فبالنسبة لتشارلي، ما حدث قد حدث، ولم يكن بالإمكان تغييره.

لكنه وصل إلى هذا الهدوء بعد جهد كبير؛ فبعد الحادث مباشرة، كان حزن تشارلي عميقًا لدرجة أنه بصعوبة كان يستطيع تناول الطعام، حتى إن والدته وأخواته الكبريات قلقت من أن يموت جوعًا. كانت العائلة بأسرها منهارا. أخبرني تشارلي: «كانت والدتي مدمرة». ففي لحظة غير متوقعة، وجدت نفسها بمفردها مع خمسة أطفال ودون دخل.

على مدار سنوات صداقتنا، قضيت ساعات أستمع إلى تشارلي وهو يروي قصصًا من حياته. ومع مرور الوقت، بدأت ألاحظ تغييرًا في نبرته بعد وفاة والده. كان الصبي الجريء الذي كانت تربطه أمه إلى شجرة يظهر بين الحين والآخر في حكايات تشارلي، لكنه صار يرتدي درعًا من الاستقلالية. ففي سن الثامنة فقط أصبح تشارلي يتمتع بالاستقلالية التي تميز شخصية هاكلبيري فين، والمهارة التي تميز شخصية جاك دوكينز الذي كان يلعب بالمرادغ البارع. وبينما كنت أتأمل هذا التغيير الطفيف في نبرته، أدركت أنه بعد أن عانى تشارلي خسارة فاجعة ونجا منها، قرر أنه قادر على مواجهة أي شيء. وعندما واجه محدودية قدرته، وقدرة أي شخص في الواقع، على التحكم في القدر أو إعادة الزمن إلى الوراء، بدأ تشارلي يركز على الأمور التي يمكنه التحكم فيها: تصرفاته الشخصية، ومشاعره، ونظراته للحياة، وقوة إرادته.

الرابع

بينما كان الطفل المكلم في مدينة كانساس يقلب طعام العشاء في صحنه دون أن يأكله، كانت أمه المصدومة والخائفة تتساءل كيف ستمكن من الحفاظ على أسرتها بعد وفاة زوجها المفاجئة. وفي مكان بعيد في فيينا في النمسا، كان الطبيب سيجموند فرويد يتصارع مع أسئلة عن فقدان والصدمات. لماذا يجد بعض الناس أنفسهم محاصرين في الأحداث الصادمة، غارقين في الحزن، ويعيشون آلامهم مرارًا وتكرارًا من خلال الهواجس أو الكوابيس أو ما كان يُعرف حينها بـ«ردود الفعل الهستيرية»؟

كان ذلك قبل أن يصبح فرويد شخصية مشهورة عالميًا. ففي تلك الفترة، كان طبيب الأعصاب الرائد يمر بأزمة في مسيرته المهنية عقب انفصاليه الدرامي عن تلميذه كارل يونج. كان فرويد يخشى أن يندثر التحليل النفسي، وهو أحد إسهاماته الجريئة في فهم العقل البشري. صحيح أن كتابه عن تفسير الأحلام أثار ضجة في بعض الأوساط الفكرية، لكن عددًا قليلًا فقط من سكان كانساس كانوا قد سمعوا باسمه. كانت تخمينات فرويد المثيرة للجدل والإبداعية والمتبصرة حول علم النفس البشري (والتي غالبًا ما كانت مخطئة) بمثابة فتيل مشتعل، لكن القنبلة لم تكن قد انفجرت بعد. وعندما انفجرت، زعزعت أسس القمع الفيكتوري وفتحت المجال للصراحة في الحديث عن التأويلات الجنسية في القرن العشرين.

لكن في ذلك الوقت، كان فرويد يشعر بالسخط. كانت رؤيته للعقل البشري تركز على نظريته حول القوة الحياتية، أو الدافع للعيش والحب. كانت القوة الحياتية (أو الشهوة الجنسية) تتجلى في أشكال مختلفة من التعلق خلال مراحل النمو المختلفة، لكنها كانت دائمًا تسعى نحو الحياة والمتعة. وقد ربط فرويد هذه القوة بالبطل اليوناني إيروس. مع

تزايد سمعته الجريئة وتوافد المزيد من المرضى إلى أريكة فرويد من أجل التحليل، بدأ يدرك ببطء أن إطار عمله أو نظريته الجنسية كانت أبسط من المطلوب بكثير. بدأ أن تأثير الصدمة والحزن على بعض المرضى كان عكس القوة الحياتية تمامًا. لم يستطع فرويد تفسير ذلك بناءً على «مبدأ اللذة»، كما كان يصف نظريته السابقة.

كانت قاعدة بيانات فرويد الخاصة بالصدمة على وشك أن تتسع بشكل هائل؛ إذ بعد ثلاثة أشهر من وفاة رجل الدين وايت، غرقت أوروبا في صراع قاري مدمر دون أن تأخذ بعين الاعتبار التبعات، وأسفر ذلك عن ملايين القتلى والجرحى. وقد تركت الحرب العالمية المدمرة فرويد في حالة من الصدمة العميقة وخيبة الأمل، تمامًا كما فعلت بجيله. كتب لاحقًا: «لم تدمر الحرب جمال المناطق التي مرت بها والأعمال الفنية التي صادفتها على طريقها فحسب، بل أيضًا حطمت فخرنا بإنجازات حضارتنا، وإعجابنا بالعديد من الفلاسفة والفنانين، وآمالنا في تحقيق انتصار نهائي على الاختلافات بين الأمم والأعراق. لقد شوهدت الحرب نزاهة علومنا النبيلة، وكشفت عن غرائزنا بكل وضوح، وأطلقت العنان للأرواح الشريرة داخلنا، التي كنا نعتقد أننا قمعناها إلى الأبد بفضل قرون من التعليم المتواصل على يد أعظم العقول».

وقد أدت هذه الكارثة إلى أن يستنتج فرويد وجود قوة أخرى، قوة ربطها تلاميذه بالرمز اليوناني ثاناتوس، تعمل أيضًا في العقل البشري، ومقيدة للنفس الجريئة بسبب الحزن والأسى والموت. كان إيروس وثناناتوس في الأساطير اليونانية يرمزان إلى الحياة والموت، أو الوجود والعدم. وقد أثارت ملاحظات فرويد ثورة في علم النفس تعادل الثورات التي شهدتها الأدب والفن والموسيقى والمجتمع بعد الحرب العالمية الأولى. وبعد فترة طويلة من تحول أريكة فرويد إلى رمز نمطي ثقافي لجلسة الطبيب النفسي ومريضه، استمر خلفاؤه لسنوات طويلة في دراسة التأثيرات الدائمة للأضرار النفسية. ومع وجود قرن من العنف والاضطرابات غير المسبوقة، كان لدى الأطباء وفرصة في حالات الصدمة لدراساتها، فقد نشبت الحرب العالمية الأولى وتلتها الثورة الروسية والإبادة الجماعية للأرمن، ثم الكساد الكبير، فالتطهير الشيوعي، فمجاعة أوكرانيا، فاجتياح مدينة نانجينج في الصين،

وصولاً إلى الحرب العالمية الثانية، والهولوكوست، والصراعات العنيفة من أجل الاستقلال عن الاستعمار.

لقد تم تطوير أفكار «الهستيريا» و«صدّات الحروب» التي كانت شائعة خلال طفولة تشارلي عدة مرات عبر قرن من الألم لتتبلور في التشخيص الحالي: اضطراب ما بعد الصدمة. تصل أعراض هذا الضرر النفسي إلى درجة عالية من الخطورة، حيث تم ربط حوادث القتل والانتحار وبقية الحوادث القاتلة كلها باضطراب ما بعد الصدمة. وفقاً لتقديرات في عام 2014— وهو العام الذي توفي فيه تشارلي، وبعد قرن من زهاب والد تشارلي إلى العمل ذات يوم وعدم عودته— يُقدَّر أن نحو 10% من النساء و5% من الرجال يعانون اضطراب ما بعد الصدمة في مرحلة ما من حياتهم.

فقط نحو نهاية ذلك القرن، بدأ الأطباء في دراسة حدود ومدى قوة ثاناتوس بعمق، محاولين فهم كيفية وسبب نجاة بعض الأشخاص من تأثيراته. ما الصفات التي تُمكن البعض من مواجهة الصدمات دون أن تدمرهم أو تقلل من قدراتهم؟ لقد أوردت سابقاً اقتباساً للفيلسوف الرواقي العظيم فيكتور فرانكل، الذي استكشف في كتابه Man's Search for Meaning هذا السؤال تحديداً في ظل أبشع الظروف. كان فرانكل طبيباً نفسياً نمساوياً يتبع خطى فرويد، وقد تمكن من النجاة لمدة عامين ونصف عام في معسكرات الاعتقال النازية بفضل عمله طبيياً. خلال تلك الفترة، شهد فرانكل ضغوطاً وصدّات مروعة، وذُهل من قدرة بعض السجناء على حفظ، وأيضاً تعزيز، مشاعر الطيبة والنزاهة والكرامة وسط الظروف اللاإنسانية. في النهاية استنتج أن البشر يمكنهم، حتى في أشد معاناتهم، اختيار أن يضيفوا معنى على تجاربهم، معبراً عن ذلك بقوله: «من يعطِ النور، عليه أن يتحمل الاحتراق».

وفي العقود الأخيرة، استند علماء النفس الذين يعتنون بالناجين من الصدمات إلى مثل هذه الاستنتاجات، وسرعان ما قامت الجمعية الأمريكية لعلم النفس بتلخيص نتائجهم في وصفة واضحة للتخلي بـ«المرونة» تحت الضغط. عند استعراض سمات وإستراتيجيات

الأشخاص المرنين، وجدت نفسي وجهًا لوجه مع الشاب تشارلي وايت. تنصح الجمعية الأمريكية لعلم النفس الناجين من الصدمات بـ«اتخاذ خطوات حاسمة»؛ ولا يجب أن تُحدث بالضرورة تغييرات كبيرة أو يكون لها نتائج، لكنها يجب أن تكون إيجابية؛ فالتصرفات الحاسمة تعكس قدرتنا على التحكم في إرادتنا حتى عندما نكون غير قادرين على التحكم في ظروفنا. وقد وصف فرانكل إحدى التجارب التي مر بها؛ حيث فُرضت عليه مسيرة إجبارية في أجواء قارسة البرودة لأداء العمل القسري في داكاو. في وسط معاناته، وجَّه تفكيره نحو حبه لزوجته، وكتب في لحظة من لحظات التسامي: «فهمت كيف يمكن للرجل الذي لا يملك شيئًا في هذا العالم أن يشعر بالسعادة، حتى إن كانت لحظة قصيرة». كان اختيار فرانكل لأفكاره هو «الإجراء الحاسم» الوحيد المتاح له في تلك الظروف الفظيعة، وقد أثبت هذا الخيار عزمته على التحرر من ثاناتوس من خلال تأكيده على قوة الحياة. في أوقات الاكتئاب أو القلق، فإن أية خطوة إيجابية تكون أفضل من الجمود. فالعمل يؤدي إلى المزيد من العمل؛ والقرار يفتح الباب أمام قرارات أخرى؛ والحياة تولد الحياة.

عندما نعود إلى قصة تشارلي بعد الصدمة الناتجة عن وفاة والده العنيفة، نلاحظ أن شيئًا في هذا الصبي قد استوعب بالفعل تلك الحقيقة الوجودية. على الرغم من قلة السيطرة التي يتمتع بها كطفل، فقد أصر تشارلي على إثبات نفسه بما كان يستطيع. ذات يوم، أخبر والدته وأخواته بأنه قرر أن ينام في الخارج كل ليلة لمدة عام. المؤثر حقًا هنا هو أن والدته وافقت. أضاف تشارلي بعد سنوات وهو يروي القصة: «للأطفال أفكارهم الخاصة كما تعلم، لكن الأمر المميز هو أن والدتي كانت تسمح لي بتنفيذ هذه الأفكار». وبحسب ما روى لي تشارلي، فقد وضع سريرًا متنقلًا على شرفة المنزل في شارع كامبل وبدأ ينام هناك كل ليلة، سواء في حر يوليو القائظ أو برد يناير القارس. أوضح: «ما زلت أذكر كثيرًا من الصباحات الباردة والمتجمدة.. لقد سمحت والدتي لي بخوض التجربة، وكان هذا هو الأمر المميز».

لقد غدّت لورا وايت ثقة ابنها بطرق كبيرة وصغيرة. تذكر تشارلي قولها له بعد وفاة والده: «أنت الآن رجل المنزل». بدأت بتكليفه بمسئوليات صغيرة، مثل العناية بفناء المنزل الصغير، ثم زادت المهام عندما أصبح قويًا بما يكفي، لتشمل إدارة إمدادات الفحم في المنزل. أوضح تشارلي: «كانت الشاحنات تفرغ الفحم في الشارع»، وذلك في كميات هائلة تصل إلى طن كامل، وكانت تبدو كجبل ضخم من الفحم بالنسبة لصبي صغير. أخبرني تشارلي: «كانت مهمتي هي أن آخذ عربة يدوية، وأنقل الفحم إلى نافذة القبو وأسكبه في صندوق الفحم. ثم كان عليّ أن أحافظ على استمرار اشتعال نار الفحم. كنت أستيقظ في نحو الرابعة صباحًا، وأزيل بقايا الفحم، ثم أضع الفحم الجديد لإشعال النار. لقد وضعت والدتي مسؤولية الحياة على عاتقي في سن مبكرة».

كان من الممكن أن تؤثر هذه الطريقة سلبيًا على طفل آخر، لكن تشارلي وجد في ثقة والدته به حرية لم يعهدها؛ فمعاملته كشخص قادر على الصمود جعلته كذلك فعلاً. ومع غياب والده، تقبل فكرة «أن الوقت حان للنضوج» ورأى في ذلك فرصة وليس عبئًا.

وبهذه الطريقة أصبح نموذجًا للصفات التي تميز الأشخاص الذين يتمتعون بالمرونة وفقًا لجمعية علم النفس الأمريكية. يُشير علماء النفس إلى أن «تطوير الثقة في قدرتك على حل المشكلات والاعتماد على حدسك يساهمان في بناء المرونة». أو كما قال تشارلي عند تذكره لطفولته: «لم تكن هناك أية قيود، إذ كنت تنجح أو تفشل بناءً على قدراتك الخاصة». أما عن والدته، فقد قال تشارلي إنها «كانت ترشدنا من خلال عدم التدخل المباشر، وتركت لنا مسؤولية الاعتماد على أنفسنا».

كانت لورا وايت تعلم ابنها من خلال القدوة. وصفها ابنها بأنها «امرأة ذكية وقوية وصاحبة مواقف ثابتة»، وأضاف: «كانت آراؤها واضحة دائمًا، ومبادئها على أعلى مستوى». ولقد تصرف بحزم وثقة بالنفس، واعتمدت على نفسها، فوجدت بسرعة عملاً في إدارة الرحلات التابعة لمنظمة دينية، وأضافت إلى دخلها من خلال تأجير بعض الغرف في منزلها. وبفضل عملها في وظيفتين، تمكنت من تدبير أمورها المالية.

لسنوات تناول تشارلي وأسرته الطعام مع مَنْ يستضيفونهم من الرجال العزاب الذين يدفعون مقابل الإقامة والطعام في غرف منزلهم الزائدة في شارع كامبل. كانت الوجبات تُقدَّم «بطريقة عائلية» من وصفات لورا وايت الجنوبية التقليدية. (كان تشارلي يفضل البسكويت وخبز الذرة بشكل خاص) وأثناء تناول الطعام، كان الصبي يراقب هؤلاء الرجال، ويتخيلهم نسجًا محتملة لمستقبله. اعتبرهم رجالًا من «أعلى مستوى»، على حد قوله. كان يلتقي على مائدة العشاء برجال، مثل جورج مانسفيلد، وهو مدير توزيع الصحيفة المحلية، وجاك نونان، الكهربائي الذي تزوج لاحقًا من إحدى شقيقات تشارلي. وقد شعر بجاذبية خاصة تجاه رجال الدين الذين كانوا يأتون إلى شارع كامبل بسبب عمل والدته في دار العبادة. كان هؤلاء الرجال شجعانًا، ويسافرون حول العالم، ويتمتعون بقدرات علاجية. وقد أخبرني تشارلي بأنه على تلك المائدة، ومن بين كل هذه النماذج، تخيل نفسه لأول مرة طبيبًا.

ولكن دعنا لا نستبق الأحداث، فموضوعنا الآن هو الصدمات والمرونة. قبل أن نتحدث عن فرويد في فيينا، لنتذكر تشارلي الصغير الحزين الذي فقد والده فجأة، ورفض تناول الطعام إلا بعض الأصناف القليلة جدًا. كان ذلك مع بداية عطلة الصيف بعد انتهاء المدرسة. لم يكن الحديث الحماسي على مائدة العشاء مع رجال الدين الزائرين قد بدأ بعد، وكانت الأجواء في المنزل كئيبة. وصف تشارلي تلك الفترة الصعبة قائلًا: «بسبب الاكتئاب وكل شيء آخر، رأيت والدتي أنه من الأفضل أن أبتعد عن تأثير الفتيات في المنزل». حاولت لورا وايت وبناتها مواساة تشارلي، لكن ربما كان ما يحتاجه الفتى حقًا هو التأثير الذكوري الذي فقده؛ لذلك قررت والدته إرساله إلى مخيم صيفي.

٢

كانت فكرة تنظيم مغامرات في البرية لفتيان المدينة (ولاحقًا للفتيات) تجسيدًا آخر للتغيرات الهائلة التي تجتاح المجتمع. فقد كانت الصناعة والتحضر يُنظر إليهما على أنهما

خطر يهدد تطور الفتيان والشباب، ونموهم كرجال في المجتمع، حتى اقترح الفيلسوف الفيكتوري جون ستيوارت ميل وجود علاقة مباشرة بين تقدم الحضارة وموت البطولة. حيث كتب: «النتيجة الطبيعية لتقدم الحضارة هي الانحطاط الأخلاقي، والعجز عن مواجهة أي نوع من التحديات». وقد روج عالم النفس جي. ستانلي هول في كتابه المؤثر Adolescence الصادر عام 1904 لفكرة أن الأطفال يبدأون بحياة فوضوية قبل أن ينضجوا ويصبحوا أكثر تماشيًا مع الحياة المستقرة. وكان يرى أن الحياة في المدينة تعيق هذا التطور وتكسر عزيمة الأولاد. أما روبرت بادن-باول، مؤسس حركة الكشفية الشبابية العالمية، فقد نظم أول مخيم للكشافة في عام 1907، وأعلن: «الصبي لم يخلق ليستقر في المنزل. الهواء الطلق هو الهدف الحقيقي للكشافة وسر نجاحها».

وفقًا لحسابات أحد الباحثين، فقد ارتفع عدد المخيمات الصيفية في الولايات المتحدة أكثر من عشرة أضعاف خلال فترة طفولة تشارلي، إذ كان العدد أقل من 100 في بداية القرن، ثم ارتفع إلى أكثر من 1,000 في عام 1918. كان المخيم الذي عثرت عليه والدة تشارلي يُدعى بوي كروسيدرز، وكان يقع بالقرب من قرية أندرسون الصغيرة الواقعة في جبال الأوزارك في أقصى جنوب غرب ولاية ميزوري. وحسبما تذكر تشارلي بعد مرور قرن تقريبًا، كان صاحب المخيم، والذي كان يبدو أنه الموظف الوحيد، طبيب عظام غير متزوج، وعائلته تدير عيادة ناجحة بالقرب من مدينة كانساس متخصصة في العلاج غير الجراحي للبواسير. كان المخيم مخصصًا للمراهقين، ولكن بسبب حاجة لورا وايت المُلحة لمساعدة ابنها الحزين، تم قبول تشارلي في المخيم في اللحظة الأخيرة. في اليوم المقرر لبدء المخيم، صعد تشارلي، الذي كان على وشك دخول الصف الثالث، إلى قطار مع مجموعة من اثني عشر صبيًا أكبر منه سنًا، معظمهم في سن المراهقة، متجهين إلى أندرسون لقضاء شهر في الجبال.

عندما وصلوا إلى موقع المخيم البسيط، اكتشف تشارلي أنهم أخذوا مفهوم العودة إلى الطبيعة إلى أبعد الحدود. أخبرني تشارلي عن قائد المخيم: «بمجرد أن وصلنا إلى هناك، أخذ جميع ملابسنا. وأمرنا: يجب أن تخلعوا ملابسكم. وهكذا قضينا شهرًا كاملًا ونحن عراة

مثل السكان الأصليين. كنا سعداء جداً! فقد عشنا مثلهم، وتذوقنا طعم الحياة القاسية حقاً». وعلى ما يبدو لم يكن طبيب العظام يولي اهتماماً كبيراً للتحضير. فعندما نفذ الحليب في المخيم، طلب من بعض الصبيان أن يرتدوا ملابسهم ويسيروا إلى مزرعة قريبة لشراء المزيد. قال تشارلي إن معظم الوجبات كانت بسيطة، حيث اقتصر على الشوفان، وهو نظام غذائي ساعده على التخلص تمامًا من عاداته الغذائية المتقلبة. وأضاف: «عندما عدت إلى المنزل، كنت مثل السكان الأصليين: أتناول أي شيء».

كانت النظرة إلى العري مختلفة في ذلك الوقت. فقد كانت أندية الصبية، وجمعيات الشباب الخيرية، وحتى المدارس الثانوية العامة، تفرض على الأولاد السباحة عراة، بناءً على الاعتقاد بأنها أفيد للصحة من السباحة في ملابس السباحة البدائية. لكن قضاء شهر كامل عارياً كان أمراً غير طبيعي حتى في ذلك الوقت، ومع مرور سنوات صداقتنا وتكرار استماعي لقصص تشارلي، بدأت أشك في أنه كان يغفل عن ذكر جزء مهم من تجربته في المخيم.. شيء مؤلم.

وإليك ما أخبرني به. بعد أن وصف إقامته غير المألوفة في «أغرب مخيم يمكنك تخيله»، كان تشارلي أحياناً يضيف بشكل عملي مباشر أن مخيم بوي كروسيدرز لم يستمر لأكثر من بضع سنوات بعد ذلك الصيف، بسبب تقديم شكاوى حول تعرض الصبية العراة للتحرش الجنسي. وفقاً لتشارلي، عندما قامت السلطات بالتحقيق في الشكاوى، استخدمت عائلة طبيب العظام ذات النفوذ علاقاتها لتغطية الفضيحة وتهدئة الأمور، وأرسلوا ابنهم للعيش في أوروبا. وقد حاولت العثور على أي سجل يتعلق بالمخيم أو الفضيحة دون جدوى، ولكنني تأكدت من أن الطبيب المذكور غادر كانساس ليقضي سنوات طويلة في أوروبا. هناك درس الفن وأصبح رساماً بارعاً في الألوان المائية، وانضم إلى عدة نوادٍ حصرية في لندن. بحلول عام 1940، كان يعيش في باريس تحت الاحتلال النازي. ولم يعد إلى الولايات المتحدة إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ يقدم محاضرات عن النازيين لجماهير شوتوكوا ونوادي الروتاري. كان تشارلي يقرأ أحياناً مراجعاته الفنية في صحيفة كانساس سيتي ستار.

لم يكن مخيم بوي كروسيدرز كبيرًا. حسبما فهمت من قصص تشارلي، كان الأولاد الذين سافروا بالقطار من كانساس هم المجموعة الوحيدة في المخيم. رغم التقارب في هذا المكان الصغير، كان تشارلي دائمًا يؤكد أنه لم يتعرض لتجربة التحرش، موضحًا: «كنت صغيرًا جدًا على أن يحدث لي ذلك». وكنت أصدق في هذا الشأن؛ فمن المحتمل أن يتجنب المعتدي الجنسي المهتم بالمراهقين استهداف الأطفال الأصغر سنًا. لكن شيئًا ما في رواية تشارلي المتفائلة كان يثير قلقي، وتأكدت شكوكي عندما استمعت إلى مقابلة سجلها بعد فترة قصيرة من بلوغه المائة عام، ففي ثلاث جلسات استمرت كل منها ساعة، سجل تشارلي سردًا شفويًا لتاريخه، وشاركت عائلته هذه التسجيلات معي بعد وفاته.

سمعت جملة لفتت انتباهي أثناء الاستماع، فقد قال تشارلي عن المخيم: «أتذكر أنني أصبحت قويًا حقًا هناك». كانت كلمة «قوي» غير متماشية مع بقية القصة، التي كان دائمًا يرويها بابتسامة وروح مرحة. ربما كان يشير ببساطة إلى تصريحه بأن الأولاد «عاشوا حياة قاسية حقًا» في المخيم. مع ذلك، قد يتساءل سيجموند فرويد عما إذا كانت هذه الكلمة تمثل علامة على شيء مكبوت أو مدفون في أعماق نفسه. كان تشارلي طفلًا في الثامنة من عمره محاطًا بمراهقين عراة يتعرضون للاستغلال. ومن المعروف أن ضحايا الاعتداء الجنسي غالبًا ما يصبحون معتدين بدورهم، وأن التنمر الذي يمارسه الأولاد الأكبر سنًا ضد الأصغر سنًا هو نمط مألوف، وإن كان مؤسفًا. عندما قال تشارلي: «كنت صغيرًا جدًا على أن يحدث لي ذلك»، كان يشير إلى مزاعم الاعتداء التي ارتكبتها الطبيب. لكن خطر في بالي أنه في مثل تلك الظروف، ربما قد يكون تعرض للاعتداء من صبي آخر أو مجموعة من الصبية. قد يكون هذا هو السبب في أنه أصبح «قويًا» جدًا في ذلك الصيف.

وقد أدى شكّي في تعرض تشارلي لصدمة كهذه في المخيم إلى أن أرى جزءًا آخر من القصة بعيون مختلفة. فعندما كان يروي قصته عن المخيم الغريب، كان تشارلي عادةً ينهيها بحكاية عن رحلة العودة إلى المنزل. أخبرني بأنه كان متلهفًا جدًا للعودة لدرجة أنه قفز من القطار المحلي البطيء عندما توقف في مدينة مارتن، على بعد نحو 30 كم إلى جنوب وسط مدينة كانساس، وسار وحده إلى أقرب ترام. في البداية، كنت مفتونًا

بشجاعة هذا الفتى الصغير وهو يتنقل عبر المزارع والمستوطنات المتناثرة ليجد طريقه إلى المنزل. لكن كلما فكرت في الأمر أكثر، بدأت أرى أن القصة لا تبدو منطقية. حتى مع الأخذ بعين الاعتبار أن القطار قد يكون اتخذ مسارًا دائريًا حول وسط المدينة للوصول إلى المحطة القديمة بالقرب من مزارع الماشية، فإن القطار بالتأكيد لم يكن أبطأ من الفتى الذي يسير على قدميه. علاوة على ذلك، لم يكن تشارلي، وهو في سن الثامنة، مسافرًا متمرسًا يعرف جميع الطرق المختصرة. على الرغم من أن لديه بعض الخبرة في السفر بالقطار إلى مزرعة جديده، فإن تلك الرحلة كانت تسلك طريقًا مختلفًا عن الطريق إلى المخيم والعودة.

هل ترك القطار لأنه كان متلهفًا للعودة إلى المنزل، أم لأنه كان يرغب في الابتعاد عن زملائه في المخيم؟ إذا كان تشارلي قد تعرض للتنمر أو الإزعاج من قبل الأولاد الأكبر سنًا، فقد يكون لديه دافع قوي لمغادرتهم في أقرب فرصة ممكنة.

بغض النظر عن دوافعه للانطلاق بمفرده، عندما عاد إلى المنزل أخيرًا، لم تتمكن والدته من التعرف عليه فورًا. فقد جعل شهرًا من التعرض للشمس عاريًا جلده يتخذ لونًا بنيًا مثل ثمار البلوط. وحين سألته عن تجربته في المخيم، قدّم تشارلي لها الموجز الإيجابي نفسه الذي ظل يقدمه طوال حياته، بغض النظر عما إذا كان حقيقيًا أم لا، فقد كان عازمًا على عدم تحميل والدته مزيدًا من الهموم: «كنت أكن لوالدي احترامًا كبيرًا، ولم أكن لأفكر في إضافة أية مشكلات أخرى إلى همومها». كان يرى أن أفضل وسيلة لحمايتها هي أن يمتنع عن تحويل تجاربه، سواء كانت إيجابية أو سلبية، إلى عبء إضافي عليها. وسار بمبدأ: «عش، وتعلم، وواصل حياتك». وهكذا، قد تكون الحقيقة الأهم في قصة مخيم تشارلي هي أنه، بغض النظر عما حدث في ذلك المكان الذي أكد أنهم «كانوا سعداء حقًا» فيه، لم يعد إلى هناك أبدًا.



بعد وفاة تشارلي بمدة، تحدثت مع صهره، صديقي وجاري دوج، عن الأسئلة التي كانت تزعجني حول مخيم بوي كروسيدرز. لقد بنى دوج المحامي المتمرس مسيرة مهنية متميزة بفضل قدرته على كشف الثغرات في القصص غير المتطابقة، واتضح أنه كانت لديه شكوكه الخاصة حول رواية تشارلي عن المخيم؛ إذ كان يشعر بأن هناك شيئًا مفقودًا.

وقد أضاف بعض الأدلة غير المباشرة من عنده: ففي شتاء عام 2012، تذكر دوج أنه كان يقضي الكثير من الوقت مع تشارلي في الوقت الذي كانت فيه الأخبار تركز على فضيحة الاعتداء الجنسي في جامعة بنسلفانيا. كانت مسيرة المدرب الأسطوري لكرة القدم جو باتيرنو قد انتهت بطريقة مهينة بعد الكشف عن أن مساعده القديم، جيرى ساندسكي، كان معروفًا عنه مصارعة الأولاد القصر الضعفاء والاستحمام معهم والسفر برفقتهم. وقد فشل المسؤولون في الجامعة، بمن فيهم باتيرنو، في اتخاذ الإجراءات اللازمة بشأن تقرير عن اعتداء جنسي ارتكبه ساندسكي. في النهاية، أدانت هيئة المحلفين في بنسلفانيا ساندسكي في أكثر من أربعين تهمة تحرش بعدة ضحايا. وقد دهش دوج حين وجد تشارلي يقلل من خطورة القضية.

خمّن أنه إذا كان تشارلي قد اختار، عندما كان صبيًا صغيرًا، التقليل من شأن تجربة صادمة في المخيم، فإن هذا جعله يقلل من تأثير تجارب مشابهة مر بها الآخرون بعد سنوات. أتذكر الطريقة التي كان والدي يتعامل بها عادةً مع الكدمات والارتجاجات والكسور التي يتعرض لها أبنائهم: كان يطمئننا بأنه عانى آلمًا مشابهة ونجا منها وصار بخير، ويطلب منا: «تجاوزوا الأمر». رغم أن هذه الطريقة قد تبدو قاسية تجاه معاناة الآخرين، فإنها تعد أيضًا إستراتيجية لتعزيز القدرة على التحمل وتعزيز الأمل. بل إن «تنمية القدرة على تجاوز الأحداث الصادمة» هو أحد الأساليب التي توصي بها جمعية علم النفس الأمريكية من أجل بناء المرونة. وإحدى الطرق لتحقيق ذلك هي تقليل تأثير هذه الأحداث لتقليل ضررها طويل الأمد.

حتى وهو صبي، لم يكن لدى تشارلي بديل سوى المضي قدمًا. فقد قال ذات مرة عن طفولته: «لا أذكر أنني كنت سعيدًا جدًّا»، لكنه اختار عدم الاستغراق في الحزن، مؤكدًا: «لم يكن لدينا وقت لنحزن». وقد أظهر تشارلي في هذا الموقف نوعًا من الفكر الرواقي المبكر. فهو لم يكن ليصبح أسيرًا لأفعال أو قرارات أو مصائر أو إساءات الآخرين. كان يتنبأ بنصيحة المؤلف ليو بوسكاليا، الذي قال: «لماذا تتمسك بالألم؟ لا يمكنك تغيير أخطاء الماضي». أو بوصف جمعية علم النفس الأمريكية لاحقًا: الأشخاص المرنون يختارون عدم اعتبار الأزمات مشاكل مستعصية، وبدلاً من ذلك، يرون في الصدمات فرصة لتصبح أكثر قوة. وكما قال إبيكتيتوس: المصاعب هي التدريب القاسي الذي يشكّل الأبطال بداخلنا.

ومع ذلك، كان تشارلي مجرد صبي، وسيكون من الخطأ أن نفترض أن قلبه لم ينكسر من وقت لآخر. فعندما نظر إلى تلك الأيام وهو في شيخوخته، كانت لحظات الوحدة تؤلمه أكثر من لحظات الصدمة. لقد تذكر بوضوح الألم الذي كان يشعر به كلما رأى صبيًا في عمره يقضي الوقت مع أب على قيد الحياة. كانوا - الآباء والأبناء - يضحكون أو يتناولون الطعام معًا أو يلعبون الكرة. وأخبرني تشارلي بأن أصعب الأوقات كانت عندما كان يشعر بالخسارة وكأنها تلطم وجهه والحزن يثقل كاهله. فقط مع مرور الوقت، ومع تحول الأشهر إلى سنوات، تعلم أن يثق بأن موجات الكآبة المظلمة تلك ستزول في النهاية.

وبمجرد أن تعلم هذه الحقيقة، لم ينسها أبدًا. فقد كانت هذه المعرفة مصدرًا يلجأ إليه طوال حياته في مواجهة الإخفاقات والخسائر. قال: «لا يتعامل الجميع مع الصعوبات بالطريقة نفسها، فبينما يشعر بعضهم بالعجز تحت وطأة المحن، يجد آخرون في التحديات فرصة لإثبات حريتهم الحقيقية».

2

كان تشارلي يمتلك موهبة في جعل كل شيء يبدو ممتعًا، حتى زهابه الإجباري الأسبوعي إلى دار عبادة لينود. فعلى ما يبدو، كانت لورا وايت قد اكتفت من عظات يوم الأحد خلال

الفترة التي كانت فيها زوجة رجل دين؛ لذا كانت ترسل تشارلي إلى دار العبادة بينما تبقى هي في المنزل. أوضح : «قالت لي، اذهب أنت إلى دار العبادة، لكنها لم تكن تذهب معي». ورغم أن تشارلي اعتبر ذلك أمرًا «غير عادي»، لكن ذلك كان يعكس أيضًا استقلاله المتنامي. كان تشارلي يستمتع بالذهاب إلى دار العبادة، والمدرسة الملحقة بها يوم الأحد. ورغم أن الدروس التي كانت تقدمها السيدة المجتهدة التي كانت تدير تلك المدرسة غالبًا ما كانت مملة، فإن القصص المثيرة عن الخارجين عن القانون في الغرب الأميركي القديم والمخاطر التي عاشها الرواد، والتي كان يرويها زوجها محقق الشرطة، كانت تضيء لمسة من الحماسة على الجلسات. كان تشارلي أيضًا معجبًا بالواعظ، الذي كان في رأيه «يقدم خطبًا رائعة». وقد التزم بالذهاب إلى دار العبادة بالعزيمة نفسها التي أظهرها خلال فترة نومه في الهواء الطلق، وحصل على شارة تقدير كمكافأة على حضوره المنتظم لمدة سبع سنوات دون انقطاع.

كان يذهب خلال الأسبوع إلى المدرسة الابتدائية في حي هايد بارك، وهو حي مزدهر على بُعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام من منزله. وعلى الرغم من أنه كان يصف نفسه بأنه «طالب عادي»، كان لمعلميه رأي آخر. فقد لاحظوا نضجًا يفوق زملاءه في الصف، خصوصًا بعد وفاة والده وقضائه الصيف في المخيم. في منتصف السنة الدراسية في الصف الثالث، قاموا بترقية تشارلي إلى الصف الرابع، وفي العام التالي، قاموا بترقيته مرة أخرى من الصف الخامس إلى السادس. وعلى الرغم من أنه كان أصغر من أقرانه بسنتين عندما بدأ المدرسة الثانوية، فقد انسجم تشارلي بسهولة وحماس في الحياة الاجتماعية في مدرسة ويستبورت الثانوية.

كانت أمريكا تمر بمرحلة انتقالية متسارعة من مجتمع كان التعليم فيه مقتصرًا على قلة محدودة إلى مجتمع يرى التعليم حقًا من الحقوق مصير حتمي — على الأقل بالنسبة للأطفال ذوي البشرة البيضاء مثل تشارلي. وقد كانت مدرسة ويستبورت الثانوية -المخصصة لذوي البشرة البيضاء - رمزًا لهذا التغيير. كان قد تم افتتاحها عام 1908، في وقت كان فيه نحو

10% فقط من الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و17 عامًا ملتحقين بالمدارس. وعندما دخل تشارلي الصف التاسع في عام 1917، كان عدد الطلاب المسجلين قد زاد نحو ثلاثة أضعاف. (وبعد جيل، وصل إلى 70%).

ومع تزايد انفتاح المدارس الثانوية على استقبال جميع الطلاب (بشروط معينة)، بدأ المعلمون يشعرون بالقلق من تصاعد تأثير أخويات الطلاب والطالبات ذات العضويات الحصرية. وقد وجه المديرين والمشرفون على المدارس في المقالات والمناقشات المتكررة اللوم لهذه الأخويات التي كانت تتخذ موقفًا متعاليًا، على تفشي كل أنواع الانقسامات بين الطلاب. اتهم تقرير صادر عن سلطات المدارس في شيكاغو عام 1904 الجمعيات السرية بأنها «تسهم في تقسيم المدرسة إلى كتلتين، وتؤدي إلى تدمير الوحدة والتعاون والتعاطف بين الأفراد، ما يصعب الحفاظ على العلاقات الإيجابية بين الطلاب والمعلمين».

كان تشارلي يختلف مع ذلك تمامًا، فبحسب وصفه «كانت أخويات الطلاب في تلك الأيام رائعة»، هكذا أخبرني بحب عن مجموعة الفتيان الذين قدموه إلى جماعتهم في مدرسة ويستبورت. كانت أخويته «دلنا أوميكرون أو ميكرون» تمتلك ميثاق شرف خاصًا بها يتم تطبيقه خلال جلسات منتظمة لمحكمة تتكون من الأعضاء الأكبر سنًا. يتذكر تشارلي: «كان لدينا محكمة صورية في كل اجتماع. وإذا تصرف أحد الأعضاء الشباب بشكل غير لائق، كان عليه أن يواجه انتقادات الآخرين». وتذكر أصدقاء شاردين تسببت لهم تلك التجربة في البكاء، لكنه ظل مؤمنًا طوال حياته بأن هذا النوع من الخضوع للمساءلة كان «من أعظم التأثيرات التي يمكن أن يمر بها أي شخص. لا يوجد شيء يفوق انتقاد الأقران. لقد تعلمنا ذلك مبكرًا في حياتنا في المدرسة الثانوية».

كان الأولاد يستقلون الترام إلى مدينة سكرانتون المعروفة بـ«المدينة الكهربائية»، والتي كانت بمثابة أرض سحرية مليئة بالأضواء اللامعة والنافورات المتدفقة والألعاب المثيرة في الطرف الجنوبي من المدينة. لقد بحثوا عن كرات جولف مفقودة في ملعب محلي

ووجدوها، وعلموا أنفسهم اللعبة. وكانوا يتجمعون في شارع مين قرب المدرسة ويمرون على بيوت الفتيات. قال لي في ظهر أحد أيام الأحد: «كنا أحياناً نזור نصف دزينة من المنازل». لم يكن الآباء يشعرون بالارتياح لرؤيتهم قادمين؛ لأن «جميع الأولاد كانوا يدخنون» ويلقون بأعقاب سجائرهم في جيوب سراويلهم. لكن كما لاحظ تشارلي، فإن العديد من هؤلاء الشباب المتفاخرين أصبحوا لاحقاً شخصيات ناجحة في مجالات مثل القانون والقضاء والطب والأعمال. وقد سافر أحد أصدقاء تشارلي المقربين من منظمة الأخوية، ويدعى تشارلز باركر، إلى جامعة أكسفورد في عام 1927 بعد حصوله على منحة رودس.

طوال الوقت كان العمل جزءاً أساسياً من حياة تشارلي، مثل المدرسة والأصدقاء. فقد كان يجز العشب لجيرانه ويعمل في حقول المزارع القريبة خلال موسم الحصاد. عندما بلغ السادسة عشرة، حصل على وظيفة كمتدرب مع صهره جاك نونان الكهربائي. كل يوم بعد انتهاء المدرسة، كان تشارلي يتوجه إلى متجر الثريات الخاص بنونان في وسط المدينة. أخبرني: «كانوا يعطونني مجموعة من الثريات لأعلقها، ويعطونني واحدة من سياراتهم. فكنت أذهب وأعلق مجموعة كاملة من الثريات في المنزل المطلوب خلال فترة بعد الظهر». كان العديد من المنازل يتحول من الإضاءة بالغاز إلى الكهرباء، ما جعل الشاب المتدرب يتعلم كيفية فصل خطوط الغاز غير المستقرة وتوصيل الأسلاك الكهربائية التي يمكنها أن تحدث شرارة. وقد نجح بطريقة ما في تجنب حرق أي منزل.

عندما تخرج من المدرسة الثانوية في ذلك العام، شعر تشارلي وايت بأنه تم اختبار صموده بما يكفي في مواجهة التحديات والصعاب، ونضج بفضل نجاحه في اجتيازها. لقد صار صديقاً صدوقاً لزملائه الأكبر سناً، وداعماً لوالدته، ومساهمًا في الشؤون المالية لأسرته. صحيح أن وفاة والده المفاجئة دفعته إلى النضوج بسرعة، لكن هذا الأمر عزز ثقته في قدراته. لقد أثبت أنه قادر على مواجهة التحديات، وكان مسئولاً ومنضبطاً ومرناً بما يكفي.

وبهذه الحالة، ومن خلال هذا الإطار من التفكير، انطلق تشارلي في رحلة غير مألوفة نحو المستقبل، رحلة بحث فريدة ومغامرة ملحمية ممتعة.

الخامس

بعد وقت ليس طويلاً من صباح ذلك اليوم الذي رأيت فيه تشارلي يغسل سيارة حبيبته، كنت في الخارج مع الأطفال. خرج تشارلي من باب منزله وصاح مُلوّحاً لنا بيده. كان لديه شيء يريد أن يرينا إياه، فتبعناه عبر البوابة على جانب منزله إلى حديقته الخلفية. في الزاوية البعيدة، كان هناك بيت صغير للأطفال تم بناؤه على طراز مشابه لمنزل تشارلي الواسع ومطلي باللون الطيني نفسه، ورغم أن البيت كان قديماً ومغطى بالشباك العنكبوتية بعد سنوات من الإهمال، بدا للأطفال مليئاً بالإمكانات. قال لهم تشارلي: «يمكنكم استخدامه في أي وقت».

قادنا تشارلي مرة أخرى عبر البوابة إلى داخل منزله. وهناك في الغرفة الأمامية، كان يقف تمثال بالحجم الطبيعي لسانتا كلوز (رغم أننا كنا في منتصف أغسطس). قال تشارلي وعيناه تتلألآن: «انتظروا حتى تروا هذا!». لم تظهر أية علامات على مشكلة في التوازن من أي نوع على تشارلي بينما ينحني بخفة ليمسك بسلك كهربائي، وبحركة بسيطة، أدخله في المقبس. هنا أضاءت عينا سانتا كلوز على الفور، ومال رأسه وبدأ يتحرك. ثم سمعنا الصوت المألوف له: «هوه، هوه، هوه!» ومع حركات ذراعيه وفمه، بدأ التمثال المتحرك يغني أغنية احتفال رأس السنة.

ألقي الأطفال نظراتهم نحوي وهم غير متأكدين مما يعنيه هذا، فبالتأكيد كان تمثال سانتا كلوز الذي يغني، ويبلغ طوله أكثر من متر ونصف، مثيراً بلا شك. لكن لماذا يوجد في غرفة معيشة رجل مسن خلال أيام الصيف الحارة؟ شرح لنا تشارلي أنه كان هدية من إحدى بناته؛ وقد وجده مبهجاً ومسلماً ولم ير سبباً لتخزينه. قال: «أحب أن أحيط نفسي بالكثير

من الأشياء». ثم قادنا إلى الغرفة التالية لنرى مجموعته الثمينة من مسدسات المبارزات العتيقة.

منذ ذلك الحين صرت أحرص على زيارة منزل تشارلي كلما سنحت لي الفرصة، ودائمًا ما كنت أعود بقصة رائعة أو أكثر. كانت محادثاتي مع تشارلي تنتقل بسلاسة بين العقود والأجيال، مترابطة بخيوط من الجرأة والابتكار والمفاجأة. الذاكرة انتقائية وكل سيرة ذاتية تكون مختصرة، لكن التفاصيل التي نستبعدها يمكن أن تكون كاشفة عنا بالقدر نفسه الذي تفعله التفاصيل التي نذكرها. وكان سرد تشارلي دائمًا مفعمًا بالتفاؤل، وحينه إلى الماضي يفتح آفاقًا جديدة؛ وبدا ماضيه كأنه مصدر إلهام لأفكار جديدة وآمال للمستقبل.



لاحظت، على سبيل المثال، أن الحرب العالمية الأولى وجائحة الإنفلونزا التي اجتاحت العالم في عام 1918 لم تظهرًا أبدًا في رواياته، رغم أن هذين الحدثين الأساسيين كانا قريبين جدًا من حياته، فلا شك أن مشاهدة صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره لجنود شباب لا يكبرونه سوى ببضع سنوات، وهم يتوجهون لإنقاذ أوروبا من كارثتها التي صنعتها بيدها، كانت تجربة مؤثرة. من بين هؤلاء كان هناك صبي أكبر من تشارلي بست سنوات، يعمل في صحيفة كانساس سيتي ستار، وهو إرنست همنجواي.

ولقد قاد القوات بطل محلي، أو ذلك كان الأقرب إلى الحقيقة. على أية حال، فقد اعتبرت المدينة الجنرال الوسيم جون جيه. بيرشينج، المعروف باسم «بلاك جاك»، قائد القوة الاستكشافية الأمريكية، واحدًا من أبنائها. ولد الجنرال الجذاب على بعد 160 كم في مدينة لاكليد في ميزوري، وكانت بطولاته قد ملأت الصحف مؤخرًا أثناء مطاردته للثائر المكسيكي بانشو فيلا، وقد أدى نجاح بيرشينج اللاحق في أوروبا إلى حصوله على رتبة «جنرال جيوش الولايات المتحدة»، وهي الرتبة الأعلى التي لم يكن قد حصل عليها سوى جورج واشنطن. ولم تُمنح هذه الرتبة لأحد آخر بعده (رغم أن هناك تشريعًا مقترحًا في عام

2021 ينص على منحها إلى يوليسيس اس. جرانت تكريمًا له بعد وفاته). وقد كرمت مدينة كانساس بعد الحرب العالمية الأولى بيرشينج بإقامة نصب تذكاري ضخم للجنود الذين سقطوا، حيث تم جمع 2.5 مليون دولار في غضون عشرة أيام فقط من سكان المدينة لتمويل هذا المشروع. وعلى التل الذي كان الشاب تشارلي وايت قد شاهد من عليه بناء محطة يونيون قبل بضع سنوات، بنت المدينة برجًا ضخمًا على قمته شعلة متوهجة.

وكانت جائحة الإنفلونزا حدثًا محليًا أيضًا، فقد ظهر الفيروس القاتل لأول مرة في معسكر تدريب للجنود الأمريكيين في ريف كانساس، ومن خلال الجنود الذين تم شحنهم من هناك عبر محطة يونيون إلى جبهات القتال، انتشر الفيروس الذي حملوه معهم إلى أنحاء مختلفة من البلاد ومن ثم إلى أوروبا. في النهاية أصاب الفيروس ثلث سكان العالم؛ وتم إغلاق مدن كاملة، وامتلات المشارح بالجثث. وقد احتج المواطنون على أوامر البقاء في المنازل وارتداء الأقنعة في الأماكن العامة. وتوفي ما يقرب من 700,000 أمريكي، وكان العديد منهم في ريفان شبابهم.

كان هذا من بين أكثر الأحداث مأساوية في القرن العشرين. لكنه لم يكن جزءًا من قصة تشارلي. فبينما كان كل ذلك الموت والمعاناة يخيمان على العالم، كان تشارلي يستمتع بمرحلة جديدة ومضيئة من حياته. إذ يبدو أنه كان يدرك، حتى في سنوات دراسته الثانوية، أنه لن يكون شابًا إلا مرة واحدة، وأنه لن يضيع هذه التجربة على الحرب والأمراض. بدلًا من ذلك، قرر وهو في سن السادسة عشرة، أي في خلال عامه الأخير في المدرسة، صياغة إعلان استقلاله الخاص.

لقد أصبحت رحلته إلى كاليفورنيا في فجر عصر السيارات هي القصة المميزة لحياته. كنت أسمع هذه الحكاية أثناء زياراتي له أكثر من أية حكاية أخرى، فقد كان يعتز بها ويعود إليها مرارًا، وكان ذكرى تلك التجربة المحورية قادرة على استحضر قرن كامل من الزمن.

وقد كان تشارلي، منذ تلك الأيام التي كان يقفز فيها فوق النيران ببنطاله ذي الشراشيب، مصابًا بالحماسة نفسها التي شكلت مدينة كانساس: الاتجاه غربًا. كانت الأمواج البشرية

التي اجتاحت أراضي قبائل السكان الأصليين، وقطارات النقل ورواد عربات الدفع، قد تجمعت وانطلقت من مدينة كانساس. كانوا يسافرون بالعربات غربًا إذا استطاعوا تحمل تكاليف ذلك، وإن لم يستطيعوا كانوا ينطلقون إلى هناك على أقدامهم، عبر محيطات من العشب الذي يصل طوله إلى أكتافهم، وصحارى جافة، مثل شرائح اللحم المقدد، وجبال بارتفاع أحلامهم. المهم هو الاتجاه دائمًا نحو الغرب، ملاحقين الغروب.

كانت تجربتهم لا تزال حية تنبض في كانساس عندما وصل تشارلي إلى هناك، بعد أن جاوز حدود الشرق إلى مناطق الغرب، وحيث انطلق لويس وكلارك في رحلتها عبر صفقة شراء لويزيانا؛ للبدء في أكبر صفقة عقارية في تاريخ العالم. كان أول من وصل هم عائلة بون الرائدة؛ دانيال وأبناؤه، وتلاههم رجال الجبال، مثل جيم بريدجر، والكشاف كيت كارسن، وبريجهام يونج، وجماعة دونر المنكوبة. كانوا جميعًا من الباحثين عن الذهب والفضة والحرية والأرض الخصبة؛ آلاف مؤلفة من الأمريكيين الطامحين الذين اتجهوا نحو الغرب بالمراكب النهرية والعربات والسكك الحديدية، عبر المكان الذي يصب فيه نهر كاو في نهر ميزوري في قلب القارة. وهذا هو المكان الذي بدأت منه جميع المسارات الغربية العظيمة؛ مسار كاليفورنيا، ومسار سانتا فيه، ومسار أوريجون.

وقد تلاقى الماضي بالمستقبل في رحلة تشارلي، فبعد فترة قصيرة من ذكرى ميلاده الثامنة، قدمت شركة فورد للسيارات واحدًا من أعظم الابتكارات في تاريخ الاقتصاد؛ خط التجميع الصناعي. وقد ساعد المصنع الجديد لشركة فورد في هايلاند بارك في ميتشيغان على تقليص الوقت اللازم لتصنيع هيكل السيارة بنسبة 75%. وبسرعة أنشئت خطوط إنتاج إضافية لتحقيق نتائج مماثلة في تصنيع المحركات وناقلات الحركة وتجميع العجلات. كما أصبحت سيارة فورد من طراز تي، التي كانت تحتاج إلى اثنتي عشرة ساعة لتصنيعها في عام 1912، تُنتج في غضون ثلاث وتسعين دقيقة فقط بحلول عام 1916. أتاحت هذه الزيادة الكبيرة في الكفاءة لشركة فورد زيادة أجور عمالها بحوالي الضعف، وتخفيض سعر كل سيارة بمقدار الثلث.

أثارت سيارة فورد تي ضجة في أمريكا. فقد كانت هذه السيارات البسيطة، التي كانت متاحة بلون واحد فقط هو الأسود، رخيصة ومتينة وسهلة الإصلاح، وقد أطلقت العنان لشيء بدائي في الطبيعة البشرية؛ فعلى مدى آلاف السنين، كان البشر يتحركون بسرعة المشي خلال مسافات يمكن قطعها سيرًا. لكن هذه الآلة النافثة المتحركة أعادت تشكيل الجغرافيا والاقتصادات والمجتمعات. كانت الطرق السريعة، ومحطات الوقود، ومحطات الشاحنات، والفنادق، ومطاعم الوجبات السريعة، ومراكز التسوق، والتجمعات السكنية في الضواحي كلها نتاج هذا الاختراع الواحد، هذه السيارة الموثوقة ذات التكلفة المعقولة. لقد كانت تجسيدًا للحرية الحقيقية، إذ يمكنك أن تتحرك كما تريد وتقف حيث تشاء.

كان واحد من كل مائة أمريكي يمتلك سيارة قبل إنشاء خط التجميع في هايلاند بارك. وبعد تسع سنوات، أي في عام 1921، ارتفع هذا العدد ليصبح تقريبًا واحدًا من كل عشرة. كان نحو نصف السيارات التي يمتلكها الأمريكيون من طراز فورد تي، وكان العديد منها قد تم تجميعه في مصنع فورد الثاني الذي افتتح في كانساس عام 1913.

تمثل سيارة فورد تي بداية عصر السيارات الحقيقي، وأساس ثقافة السيارات؛ ولذلك كان تحولًا هائلًا في عالم تشارلي. لقد استطاعت السيارات أن تغير الطريقة التي يتسوق بها الناس، وطريقة تناولهم للطعام، وطريقة تعارفهم، وحتى طريقة موتهم. لقد غيرت أماكن سكنهم، وكيفية تواصلهم الاجتماعي، وما إذا كانوا يعرفون جيرانهم، وأثرت على مستوى اللياقة البدنية للأجسام، وغيرت رائحة الهواء الذي يتنفسونه، إذ حلت رائحة العوادم الحادة محل الرائحة النتنة لبراز الخيول، واستُبدل بصريبر عجلات العربات دوي محركات الاحتراق الداخلي.

وقد بدأ بركان التغيير هذا في السيطرة على المشهد الثقافي عندما كان تشارلي في المدرسة الثانوية. وكان مفتونًا ومأسورًا بسحر الحرية، وقرر مع اثنين من أصدقائه في المدرسة إعداد خطة سرية لقيادة سيارة فورد تي من كانساس إلى لوس أنجلوس.

كانت فكرة جريئة للغاية حتى بالنسبة للبالغين، فما بالك بثلاثة صبية. كانت الطرق في حالة مزرية: غير ممهدة، أو مليئة بالحفر، أو موحلة، أو مغطاة بالغبار، كما كان العديد من الأتجار بلا جسور، ناهيك عن الجداول الصغيرة. أما قوانين المرور فلم يكن لها وجود.

يعد فلويد فيلد أحد أوائل رواد صناعة السيارات. كان عميدًا في جامعة جورجيا للتكنولوجيا، وقد انطلق من أتلانتا إلى أوريجون في أحد فصول الصيف بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة. سافر فلويد فيلد عبر البلاد ببطء في سيارة فورد تي أطلق عليها طلابه اسم «الحطام المتجول»، وكان يحتاج إلى خمسة أسابيع من القيادة للسفر في أي اتجاه كان. كانت الطبيعة هي التي تفرض حدود السرعة: نحو سبعين ميلًا في اليوم على الطرق غير محددة المعالم، وعبر أراضي بركانية وعرة، متأرجحًا فوق الممرات الجبلية، ومترنحًا عبر أخاديد العربات التي ارتسمت في السهول الشاسعة. وبفضل صمود العميد وتفأؤله، ومثانة مكونات السيارة، لا يزال ذلك «الحطام المتجول» من جامعة جورجيا للتكنولوجيا يُحتفى به حتى يومنا هذا.

كان الأولاد يخططون لرحلة مشابهة. وكانوا يعرفون، أو على الأقل يظنون أنهم يعرفون، مدى صعوبة الرحلة. كانت طرقات كانساس معروفة بسوء حالتها. في العام نفسه الذي أنهى فيه تشارلي وأصدقائه دراستهم الثانوية، كان هناك فنان شاب يكبرهم ببضعة أعوام يُدعى والت ديزني، يحاول بدء عمل تجاري بالقرب من منزل تشارلي. من خلال العمل في مجال الفن الجديد المعروف بـ«الرسوم المتحركة»، باع ديزني سلسلة من الأفلام القصيرة إلى مسرح نيو مان في وسط المدينة. كانت هذه الأفلام عبارة عن تعليقات كرتونية على القضايا المحلية، وأطلق عليها ديزني «Laugh-o-Grams». كانت هذه المشاهد القصيرة تُعرض قبل الأفلام الرئيسية في الليالي التي يكون فيها مسرح نيو مان للمنتوعات خاليًا من العروض. وقد سخرت أحد رسومات ديزني المتحركة من مخاطر القيادة في كانساس. حيث رسم الفنان الشاب راكبين في «سيارة قديمة رخيصة»، سيارة فورد تي، يبدو أنهما يطيران عدة أقدام فوق السيارة، حيث اصطدمت إحدى العجلات بصخرة بارزة بينما غاصت الأخرى في حفرة.

أعجب الجمهور بهذه الأفلام القصيرة الجديدة، والتي بدت نابضة بالحياة. لكن مشروع ديزني لم ينجح في كانساس، ولذلك قرر، مثل تشارلي، التوجه إلى كاليفورنيا — لكن ديزني اختار السفر بالقطار.

كانت هناك منظمة واقعة في كانساس مصممة على تحويل أمريكا إلى أمة من السيارات. فقد استعانت جمعية الطرق القديمة الوطنية، وهو اسمها الذي قد يذكرك بعربات النقل القديمة، بعشاق السيارات للضغط من أجل إنشاء أول طريق ممهد متصل يمتد من الساحل إلى الساحل. كان من المقرر أن يتبع الطريق المقترح مسار الطريق الوطني الأصلي من ماريلاند إلى إلينوي. ومن هناك، كان سيواصل المسار الذي رسمته عائلة بون عبر ميزوري. في كانساس، كان من المقرر أن يتبع هذا المسار الطريق المجرب والموثوق لمسار سانتا فيه عبر كانساس، مروراً بسلاسل جبال روكي، ثم يتجه جنوباً إلى نيو مكسيكو، ويتابع عبر الصحراء في الاتجاه الجنوبي الغربي وصولاً إلى لوس أنجلوس. ومن أجل الإعلان عن الطريق، وضعت جمعية الطرق القديمة علامات على أعمدة السياج والأشجار والصخور على طول الطرق الترابية الفرعية والطرق الزراعية الضيقة التي تمتد غرباً إلى المحيط الهادي. كما نشرت الجمعية دليلًا إرشاديًا للطريق، مبينة المتاجر التي تبيع البنزين على طول الطريق والمتاجر العامة التي تبيع إطارات بديلة. كان هناك بعض النصائح للعثور على الطريق مثل: انعطف يسارًا عند المزرعة المطلية باللون الأبيض، أو انحرف يمينًا عند جذع الشجرة الملتوي، وما شابه.

كان أحد زملاء تشارلي في أخوية الطلاب في المدرسة الثانوية فتى يُدعى بوب لونج، وكان والده، كما أخبرني تشارلي، «رجل عقارات ميسور الحال». كان لونج يمتلك سيارة فورد تي من عام 1917، مزودة بمصدات، ومقاعد أريكة مريحة، وسقف قابل للطي. وكان يتوق لقيادة سيارته عبر البلاد، فدعا تشارلي وفتى آخر من الأخوية يدعى إدجار سنو، للانطلاق إلى كاليفورنيا بعد تخرجهم في المدرسة الثانوية في مايو 1922.

لقد اختار لونج رفيقيه بذكاء. كان تشارلي شجاعاً، وإدجار سنو أكثر شجاعة. وقد توطدت العلاقة بينه وبين تشارلي كأصغر أعضاء صفهما في المدرسة الثانوية، وكانا دائماً متحمسين لإثبات نفسيهما، ولديهما رؤية مشتركة للإمكانات التي ينطوي عليها العالم. كان سنو يطمح إلى مسيرة مليئة بالسفر والاكتشاف، وأن يكتشف الأماكن التي لا يجرؤ الآخرون على الذهاب إليها، ويكتب مقالات عن تجاربه فيها، وكلما كانت المغامرات أكبر، كان ذلك أفضل. وعندما لم يكن سنو منهمكاً في كتابة مقالاته لصحيفة الأخوية، كان يلاحق أحلامه كمستكشف لا يمكن ترويضه. كانت الرحلة التي اقترحها بوب لونج إلى كاليفورنيا قد حلت محل فكرة سنو التي طالما حلم بها، وهي الإبحار عبر نهر المسيسيبي.

ولم يكن سنو يعلم حينها، ولكن ربما كان يأمل، أن هذه المغامرة بسيارة فورد تي ستكون بداية مسيرته التي ستجعله في نهاية المطاف أحد أشهر المراسلين الأجانب في العالم. في الواقع، سيأتي «سبق القرن» الخاص به بعد عقد من الزمان تقريباً، حيث تعقب الصحفي الشاب أحد قادة المتمردين في المناطق الداخلية النائية في الصين. وقد رُويت تجربة سنو كأول غربي يقابل ماو تسي تونج في كتابه الشهير Red Star Over China، والذي نُشر عام 1937 وحقق مبيعات ضخمة.

لاحقاً، وعقب اتهامه بالتعاطف مع الشيوعية خلال فترة اضطهاد الشيوعيين في الخمسينيات، اختار سنو المنفى طوعاً في سويسرا، حيث زاره صديق طفولته تشارلي وايت. كان آخر حوار حصري لسنو، والذي نُشر على غلاف مجلة تايم عام 1970، هو مقابلة جديدة مع ماو، وذلك بعد فترة طويلة من انتصاره في الحرب الأهلية. وقد استغل الدكاتاتور المسن عودة سنو لتوجيه دعوة إلى الرئيس ريتشارد نيكسون لزيارة الصين، والباقي معروف.

لقد لخصنا ما يقرب من خمسين عاماً في بضع جمل، والآن لنعد إلى عام 1922، حيث لدينا ثلاثة صبية في رحلة، وتقابلهم عقبتان رئيسيتان.

كانت العقبة الأولى هي آباءهم. فوفقًا لتشارلي، كان لونج مترددًا في طلب إذن والديه للسفر. كان يعتقد أنهما سيرفضان طلبه. وبما أنه كان مؤمنًا بأن الاعتذار أسهل من طلب الإذن، فكان بحاجة إلى حيلة لتغطية مغادرته. لكن تشارلي على الناحية الأخرى، كان واثقًا بأن والدته ستوافق على الرحلة إذا طلب منها ذلك، لكنه استمتع بشكل سري بمساعدة لونج على تدبير الخدعة.

كانت العقبة الثانية هي التي ساعدتهم على انطلاء حيلتهم، فلم يكن لدى تشارلي وإد سنو المال اللازم للرحلة، لكن قمح الشتاء كان جاهزًا للحصاد في سهول كانساس، وكان الطلب على العمال في الحقول مرتفعًا، فأخبر كل ولد منهما ذويه بأنهما ذاهبان لكسب بعض المال من أجل الالتحاق بالجامعة، لكن مخططهما غير المعلن كان الاستمرار في التوجه غربًا بمجرد أن تمتلئ جيوبهما بالمال.



انطلق الأولاد في أواخر ربيع عام 1922، حيث كان اثنان منهما يجلسان في المقعد الأمامي للسيارة، والثالث يتمدد على المقعد الخلفي. كانوا يتحركون ببطء لا يتجاوز سرعة المشي السريع، وخرجوا ببطء من المدينة على أثر قوافل العربات، عبر الحقول ذات العلامات القليلة، وتجاوزوا تلال فلينت المغطاة بالعشب، وواصلوا السير على السهول العالية المنبسطة، متتبعين طريقهم بالاستعانة بدليل الطرق القديمة وحده. استرجع تشارلي ذلك قائلاً: «لم تكن هناك حقًا طرق أو خرائط. كل ما كان لدينا هو هذا الدليل الذي جاء فيه: سافر عشرين ميلاً في هذا الاتجاه، وستجد شجرة صنوبر كبيرة، ثم انعطف لليمين... إلخ. هكذا كان الأمر».

وقد وجد الأولاد في كل مفترق طرق لافتات مرسومة باليد تعلن عن العمل في المزارع مقابل ستة دولارات في اليوم، لكن بوب لونج الثري كان يحمل الكثير من المال حسبما يتذكر تشارلي، ولذا استمر في القيادة حتى وصل إلى بلدة كبيرة بما يكفي ليكون لديها

فندق مريح، حيث استأجر غرفة وقضى فيها الوقت بينما كان تشارلي وإد منشغلين بالعمل في مزرعة قريبة. أخبرني تشارلي: «عملنا تحت الشمس الحارقة في جمع القمح منذ شروق الشمس حتى غروبها».

وقد كان على الولدين القادمين من المدينة أن يتعلما الكثير. ففي أول يوم لهما، تعرف أصغر خريجي مدرسة ويستبورت الثانوية على جهاز بدائي يسمى العارضة. كانت عبارة عن أسطوانة مفتوحة ذات شفرات دوارة تجرها أربعة خيول مربوطة جنبًا إلى جنب. كانت هذه الآلة تقطع القمح ثم تضعه على حزام ناقل يهتز، ليُسكب بعد ذلك في عربة تجرها الخيول، وهي تسير ببطء بجانبها. كانت قيادة الخيول عبر الحقول الوعرة عملاً شاقًا. كان غبار القمح يملأ أنوف الصبيين ويغطي جسديهما الناضحين بالعرق. وعندما لم تعد العربة الكبيرة قادرة على تحمل المزيد، قادها الصبيان إلى مكان تجميع مركزي، حيث قاما بجمع المحصول وتكديسه في حزم تحضيرًا لآلة درس الحبوب.

أخبرني تشارلي: «كنا ننام على الأرض. كنا مرهقين جدًا. أحيانًا كنا نستحم في حوض الخيول». على الرغم من أنني سمعت تشارلي يروي هذه القصة عدة مرات، فإن ثقته الكبيرة بنفسه لم تفقد سحرها بالنسبة لي أبدًا. فهو لم يكن قد بدأ رحلته في سن السادسة عشرة عبر البلاد عبر طرق غير ممهدة فحسب، بل قام بذلك أيضًا دون أن يخبر أحدًا إلى أين هو ذاهب أو متى سيعود. فعل كل ذلك وهو لا يملك أية أموال، واثقًا من أنه سيتدبر أمره بطريقة ما. وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف شيئًا تقريبيًا عن الزراعة، فإنه كان يثق في قدرته على التعلم بسرعة والعمل الجاد. قال تشارلي متأملًا: «كان الأمر طريفًا لأننا كنا مجرد طلاب في المدرسة الثانوية. لم نكن نفهم كيفية ربط الخيول في العربات وغيرها من هذه الأمور». عندما ذهبنا إلى هناك لأول مرة، ألقى لنا المزارعون مجموعة من ألجمة الخيول في الساعة الرابعة صباحًا وقالوا: اربطوا الخيول. وواجهنا صعوبة كبيرة! فقد ربطنا الألجمة بشكل عكسي». ضحك وهو يتذكر تلك اللحظة. «تمكنا في النهاية من التعامل معها وأصبحنا خبراء فيها خلال بضعة أيام، تمامًا كما يفعل طلاب المدارس الثانوية».

أحببت تلك العبارة: «تمامًا كما يفعل طلاب المدارس الثانوية». إذ لم يكن تشارلي وصديقه الجريء إد يفتقران إلى الشجاعة، بل كانا أيضًا يدركان تمامًا نقاط القوة التي يمتلكانها، فقد كان العمال الأكبر سنًا يتفوقون عليهما في المهارة والخبرة، لكنهما تمكنا من تعويض ذلك بحماستهما للتعلم والتكيف. ترتبط الصفات مثل سعة الحيلة أو القدرة على التصرف في المواقف الصعبة كثيرًا بالمرونة. فبدلاً من الاستسلام أمام نقص خبرتهما ومؤهلاتهما، استخدم الصبيان مهارتهما في الاستفادة من الموارد المتاحة، بدايةً من موقفهما الإيجابي ورغبتهما في التعلم.

وبعد أسبوع ونصف أسبوع من العمل في حقول القمح، أصبح تشارلي وإد مزارعين قويين بحق، وكان كل منهما يحمل في جيبه خمسين دولارًا. كانا يشعران حقًا بثقل المال في جيوبهما. أوضح لي تشارلي: «هتفنا: لقد صرنا ثريين! لنذهب إلى كاليفورنيا!»



كانت قيادة سيارة فورد تي تجربة مختلفة تمامًا عن القيادة في الوقت الحاضر. فلتشغيل السيارة، كان السائق أو أحد الركاب يدخل مقبضًا يدويًا قابلاً للفصل في المحرك من خلال فتحة أسفل الشبكة الأمامية، وبعد ضبط الصمام الخانق وتجهيز محرك الاحتراق، يقوم السائق أو الراكب بالدوران نصف دورة قوية. ومن المفترض أن يتسبب ذلك في جعل المغناطيس الصغير يولد تيارًا كهربائيًا كافيًا لإشعال الوقود في الأسطوانة الأولى، ما يؤدي إلى تشغيل المحرك. كان التدوير من بين أخطر جوانب القيادة في البداية؛ لأنه إذا كان مزيج الوقود والهواء خاطئًا فقد يحدث ذلك اشتعالًا في المحرك، ما يؤدي إلى ارتداد المقبض بعنف ما قد يسبب كسرًا في المعصم. بمجرد التشغيل بشكل صحيح، كان محرك فورد ذو الأسطوانات الأربع المترابطة على خط مستقيم، والذي أصبح يُعرف بـ«المحرك الرباعي»، يولد قوة قدرها 20 حصانًا، وهو ما كان مثيرًا للإعجاب في ذلك الوقت. كانت هذه القوة تنتقل إلى العجلات الخلفية عبر نظام نقل حركة ذي سرعتين.

وبداخل السيارة، كان يوجد أمام السائق رافعتان صغيرتان تبرزان من عمود التوجيه. لم تكن هذه مؤشرات الانعطاف أو أزرار توجيه المساحات، حيث لم يكن أي من هذا من الميزات الأساسية في فورد تي. عوضًا عن ذلك، كانت الرافعة اليسرى تتحكم في توقيت المحرك بينما تنظم الرافعة اليمنى السرعة.

كانت تبرز من أرضية السيارة ثلاث دواسات معدنية ورافعة كبيرة، عندما يتم تشغيلها معًا، تصبح السيارة في وضع التحرك. ومن خلال الضغط على الدواسة في أقصى اليسار وتحريك الرافعة، ينتقل السائق من الوضع المحايد (غير المعشق) إلى السرعة المنخفضة ثم إلى السرعة العالية. كانت وظيفة الدواسة الوسطى هي الرجوع إلى الخلف. أما الدواسة الموجودة على اليمين فكانت تتحكم في المكابح التي كانت تعمل عن طريق الاحتكاك بأسطوانة ناقل الحركة. (لم تكن هناك دواسة وقود - تذكر أن دواسة الوقود كانت مثبتة على عمود التوجيه).

بافتراض أن السائق أتقن عملية الضغط على الدواسة ودفع الرافعة معًا، يمكن أن تصل سرعة فورد تي إلى 40 أو حتى 45 ميلًا في الساعة إذا كان الطريق سلسًا والرياح مناسبة. كان الطريق إلى لوس أنجلوس يمتد نحو 1700 ميل، أو 42 ساعة من القيادة بسرعة 40 ميلًا في الساعة. مع ذلك نادرًا ما كانت السيارة تصل إلى السرعة القصوى. فعلى الطرقات الوعرة غير الممهدة في غرب الولايات المتحدة، كان المسافرون يرضون بقطع - حتى ولو نصف - هذا المعدل، بالإضافة إلى اضطرابهم لإبطاء السرعة أكثر من ذلك بسبب العوائق والطرق المسدودة والمنعطفات الخاطئة. كانت الأعطال دائمًا مصدر خطر. فقد كانت حرارة المحركات ترتفع. كما قد تتسبب حفرة عميقة في كسر إحدى العجلات الخشبية للسيارة، أما الخيول التي تمر على الطريق، وهي أكثر ما كان يسير على هذه الطرق، فكانت تترك وراءها مسامير الحدوات مبعثرة على الطريق، ما يشكل تهديدًا للإطارات المطاطية الرفيعة لسيارة فورد تي.

لكن لم يكن الأولاد في عجلة من أمرهم. فقد أطلقوا على أنفسهم اسم «الثلاثة اللامبالين» وأحبوا اللقب لدرجة أنهم كتبوا الاسم على جانب سيارة لونج. انطلقوا ببطء لاكتشاف العالم الواسع، شاعرين بكل ارتطام واهتزاز عبر الهيكل الصلب لنظام التعليق (عازل الصدمات)، ومتأرجحين على النوايض المهتزة تحت تنجيد المقعد.



وفي عام 1922، كان هناك طريقان مؤكدان لعبور كانساس بالسيارة. وللأسف لم أعرف هذه الحقيقة إلا بعد رحيل تشارلي. فقد كنت أود التحقق من الطريق الذي سلكوه، وبما أنه تحدث عن الدليل الإرشادي، فقد افترضت أنهم اختاروا المسار الوارد في دليل جمعية «الطرق القديمة». كتب إليه إل ويستجارد، مؤلف أول الكتب الأمريكية عن السفر بالسيارة عبر القارات، عن هذا الطريق: «يأتي في المرتبة الأولى من حيث حالة الطريق والمناظر الطبيعية والأهمية التاريخية وجودة الإقامات الفندقية».

كان هذا الطريق سيعجب تشارلي وإد سنو بشكل خاص لو اتخذه، فهو يمر عبر إمبوريا في كانساس، حيث كان بإمكان الصحفي الطموح سنو أن يحصل على نسخة من الصحيفة المحلية الشهيرة عالمياً إمبوريا جازيت، والذي كان محررها ويليام ألين وايت أكثر الرجال شهرة في كانساس في ذلك الوقت، وربما الأكثر شهرة في الغرب الأوسط الأمريكي بأسره. على مدى نصف قرن، كانت مقالات ويليام ألين وايت تُعاد طباعتها ويقراها الناس من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي، وكان من المعروف أن شخصيات بارزة مثل الرئيس الأسبق ثيودور روزفلت والنجم السينمائي دوجلاس فيربانكس قد زاروا منزله الفخم في إمبوريا، المعروف باسم ريد روكس.

كان ويليام ألين وايت في صدارة الأخبار أثناء مرور الأولاد عبر كانساس؛ لأنه كان متورطاً في حملة ضد منظمة كو كلوكس كلان التي كانت قد أصبحت حديث الساعة، وكانت تنشر سمومها الشعبوية في قلب أمريكا. في أعقاب الحرب في أوروبا والركود الحاد عام 1920،

وعدت جماعة كو كلوكس كلان الصاعدة بالدفاع عن «النقاء الأمريكي الخالص بنسبة 100 %» ضد المهاجرين والمواطنين ذوي البشرة السوداء والملونة، وقد استخدم وايت صفحات جريدته لانتقاد الجاذبية المبتذلة لجماعة كو كلوكس كلان، وعندما بدت هذه المنصة غير كافية، قرر محرر إمبوريا الترشح لمنصب حاكم كانساس في عام 1924 ببرنامج معادٍ للجماعة. كانت هزيمته في النهاية مصدر إحراج لكانساس، ولعل الانتقادات التي تلت خسارة وايت في الانتخابات أسهمت في تقليل الكراهية التي كانت منتشرة في المجتمع بسبب تأثير الجماعة، ومع ذلك، كانت الانقسامات واسعة ومتأججة حقًا في ذلك الوقت عام 1922.

بالنسبة لتشارلي الذي كان مولعًا بقصص الغرب القديم، كانت هناك محطة استراحة أخرى على الطريق تشكل مصدر جذب أكبر له، وهي دودج سيتي في كانساس، وهي آخر وأبرز مدن ازدهار تجارة الماشية في القرن التاسع عشر، حيث كان نزلاء صالون لونج برانش المشهورون، مثل رجلي الشرطة المسلحين وايت إيرب وبات ماسترسون يترددون عليه كاستراحة من المواجهات العنيفة مع العصابات التي من المرجح جدًا أن تؤدي بحياتهم. خلال بضعة عقود قصيرة ولكنها مزدهرة بعد الحرب الأهلية، ظل مربو الماشية في تكساس يرسلون لحم أبقارهم إلى الأسواق الحضرية عن طريق قيادة العجول على طول طريق تشيشولم للاتصال بشبكة السكك الحديدية الجديدة عبر كانساس. لكن خلال تلك السنوات نفسها، كان المزارعون المستوطنون يملأون سهل كانساس، ما أجبر قوافل الماشية على التوجه أكثر فأكثر نحو الغرب. كانت مدينة أبيلين الوجهة الأصلية لقطعان الماشية من تكساس، وقد خلفت مكانها مدينة إسورث والتي أصبحت تُعرف بالمدينة «الأكثر شراً» على السهول المفتوحة خلال فترة ازدهارها القصيرة والدموية. كانت الطرق التي يسلكها رعاة البقر تأخذهم إلى دودج سيتي في رحلاتهم المتكررة، والتي أُطلق عليها لقب «مدينة الفوضى».

ثم في انتخابات عام 1883، عين سكان المدينة مجموعة من الإصلاحيين لمحاربة الرذائل التي جعلت المدينة مشهورة بسوء سمعتها، وبدأوا بصالون لونج برانش. داهمت السلطات

الحانات والبيوت سيئة السمعة وأغلقتها. وأمر الإصلاحيون مالك الصالون، لوك شور، بمغادرة دودج سيتي، لكنه انتقل ببساطة إلى مدينة كانساس بهدف جمع أصدقائه الماهرين في استخدام الأسلحة. وبحلول الوقت الذي عاد فيه بصحبة ماسترسون وإيرب وآخرين، كان اقتصاد دودج سيتي قد تأثر بشدة بسبب استيلاء العديد من رعاة البقر من غلق الصالون. وبدأ سكان المدينة المحافظون يراجعون قرارهم بغلق الصالون الذي كان زبائنه ينعشون الاقتصاد. بعد مفاوضات سريعة، أعاد شور فتح صالون لونج برانش دون الحاجة لاستخدام الأسلحة. واحتفل هو وأعوانه من حاملي السلاح بانتصارهم بالتقاط صورة شهيرة أصبحت معروفة بتعليقها الساخر: «لجنة السلام في دودج سيتي».

تستحضر هذه القصص في الذهن صوت كعوب أحذية رعاة البقر المميز وأنغام آلات البيانو في صالونات هوليوود النمطية. لكن بالنسبة للأولاد الذين كانوا يقطعون الطريق في سيارة فورد تي، لم يكن قد مر على كل ذلك 40 سنة. في الواقع، لو كان الأولاد اجتازوا الشارع الرئيسي المليء بالغبار، حيث كان حاملو الأسلحة المشهورون يقودون خيولهم في الماضي، كانوا سيجدون بات ماسترسون ووايت إيرب لا يزالان على قيد الحياة. كان ماسترسون في الواقع كاتب عمود رياضي في إحدى صحف نيويورك عام 1922، وقد كتب ملاحظة لا تُنسى: «كلنا نحصل على كمية الثلج نفسها؛ الأغنياء يحصلون عليه في الصيف، والفقراء يحصلون عليه في الشتاء». أما وايت إيرب، الذي لم يكن أقل إثارة ولكنه أقل شهرة، فقد عمل مستشارًا في مواقع تصوير أفلام الغرب الصامتة، على نحو ساعد في بناء أسطوره الخاصة.

في غرب دودج سيتي، قطع الأولاد الطريق على الحافة بين الماضي والمستقبل، عبر أراضٍ كانت تعج بقطعان الثيران الأمريكية (البيسون) اللامتناهية قبل بضعة عقود فقط. تجولوا في بلدات يمكن فيها للرجال المسنين أن يتذكروا غارات قبائل الكومانش والحملات العسكرية عليها. كانت الأرض شاسعة والسماء رحبة، وكانت قطارات أتشيسون وتوبيكا وسانتا فيه تظهر خلفهم كعلامات باهتة على الأفق الشرقي، ثم تتجاوزهم تدريجيًا، مخلفة

وراءها سحبًا من الدخان والرماد. كانت الشمس تسلك المسار نفسه، ما جعل الأولاد يشعرون بالحرارة المتزايدة التي تبعث من المقاعد الجلدية السوداء.

وجدنا بين أوراق تشارلي بعد وفاته نصًا لمقابلة أجراها بوب لونج مع كاتب سيرة إدوارد سنو، وذلك بعد نحو ستين عامًا من الرحلة. وبحسب ما يتذكر لونج، فقد عبر الثلاثة اللامبالون ولاية كنساس على طريق يتجه أكثر إلى الشمال بالقرب مما أصبح فيما بعد الطريق السريع 70 الذي يربط بين الولايات. قال لونج إنهم سلكوا الطريق الأقل شهرة المعروف بـ«مسار ميدلاند»، الذي حفره عمال المناجم خلال فترة حمى التنقيب عن الذهب في كولورادو عام 1859، حتى وصلوا إلى مدينة كولورادو سبرينجز عند سفح جبل بايكس بيك. وفقًا لرواية لونج، فقد اتجهوا نحو الجنوب بدلًا من عبور جبال الروكي المهيبة، ثم سرعان ما وصلوا إلى المسار المذكور في دليل «الطرق القديمة» بالقرب من لاجونتا في كولورادو، الذي لم يكن يبعد عن ذلك المكان على نهر الساند، حيث ارتكب المستوطنون من جيل أجداد الأولاد مذبحة ضد نساء وأطفال قبائل الشايان والأراباهو أثناء وجودهم بسلام في معسكرهم عام 1864.



على مدار الرحلة، توقف المغامرون في متاجر صغيرة لتناول الطعام والتزود بالوقود. أخبرني تشارلي: «لم تكن هناك محطات وقود. وكنا نحصل على الوقود من متاجر البقالة. لم تكن هناك محطات استراحة أيضًا. وحسبما أتذكر، لم تكن هناك أماكن للنوم، فكنا ننام على الأرض. بالطبع إذا كانت السماء ممطرة، كنا نختبئ تحت السيارة».

أثناء انطلاقهم بعد غروب الشمس، كانت أضواء سيارتهم الأمامية، التي كانت تعمل بواسطة المولد المغناطيسي الصغير، تزداد وتقل حسب سرعتهم. شرح تشارلي: «إذا كنت تقود السيارة ليلاً، كان عليك أن تسير بسرعة لا تقل عن خمسة وعشرين ميلًا في الساعة

للحصول على كمية كافية من الطاقة. فكلما زادت سرعتك، كانت الأضواء أفضل. لكن الطرق كانت سيئة جداً، لدرجة أنها كان من الممكن أن تقذفك من السيارة».

في ذلك الشوط من الرحلة كان طريقهم يمر عبر حقول الفحم في جنوب كولورادو، التي اشتهرت بالعنف والقمع الذي مورس على انتفاضات العمال هناك. قبل ثماني سنوات، أرسل حاكم كولورادو الحرس الوطني لتفريق مدينة من الخيام أقامها عمال المناجم المضربون، والمعروفة بمعسكر لودلو. كان موظفو شركة كولورادو للوقود والحديد، الذين كانوا في الغالب من المهاجرين والأمريكيين ذوي الأصل الأفريقي، يتحدون مالگًا معروفًا بالثروة والنفوذ: جون دي. روكفلر الابن. وصل الحراس على ظهور الخيول وفي سيارة مدرعة مزودة برشاش، واتخذوا مواقعهم على حافة جبلية تطل على المعسكر وبدأوا بإطلاق النار. وقد قُتل ما لا يقل عن سبعة من عمال المناجم. كما لقي أكثر من عشر نساء وأطفال حتفهم بعدما لجأوا إلى ملجأ تحت الأرض، ولكنهم اختنقوا حتى الموت عندما أضرم الجنود النار في الخيام فوقهم. أثارت مذبحة لودلو كما أصبحت تعرف، موجة من عمليات الانتقام استهدفت حراس المناجم والمشرفين والمديرين في جميع أنحاء المنطقة، في صراع استمر واشتد حتى أرسل الرئيس وودرو ويلسون قوات الجيش الأمريكي النظامية لاستعادة النظام.

لم يتذكر تشارلي سوى التغيير التدريجي في المناظر الطبيعية أثناء مرورهم عبر لا جونتا، وهي إحدى محطات التجارة الأولية على طريق سانتا فيه. فبعد مرور مئات الأميال من السهول الرمادية والبنية، دخلوا إلى الأراضي الخضراء المكسوة بالشجيرات في مناطق الشجيرات العالية. في الأفق الغربي، ملأت جبال سانجري دي كريستو المتعرجة الأفق كأنها موجة أرجوانية مغطاة برغوة ثلجية بيضاء. لو كان الأولاد من عشاق التسلق، لكانوا قد وجدوا في الأفق بعضًا من أشد القمم وعورة وأكثرها تحديًا في سلسلة جبال الروكي بأكملها. لكن بدلًا من ذلك، اتجهوا بسيارتهم الصاخبة نحو الجنوب، مع إبقاء الجبال على يمينهم، في طريقهم نحو معبر أسهل.



بعد أسبوع من الرحلة، انفجر أحد إطارات السيارة. وبما أنه لم تكن هناك رافعة في السيارة، فقد بذل إد سنو، وهو الأقوى بين الثلاثة، جهدًا كبيرًا لرفع إحدى زوايا السيارة بما يكفي لتتيح للولدين الآخرين تركيب الإطار الاحتياطي. تقدم الأولاد إلى البلدة التالية ببطء خوفًا من حدوث انفجار آخر، واشتروا أربعة إطارات بديلة من المتجر العام.

لم يكن بإمكانهم متابعة السير بمحاذاة الجبال إلى الأبد. اقتربوا من حدود نيو مكسيكو وبدأ الطريق في الصعود نحو ممر راتون. كلما زادت انحدارات الطريق، بدأت السيارة ذات المحرك رباعي الأشواط تصدر أصواتًا مقلقة. أخبرني تشارلي: «أتذكر أن الطريق كان شديد الانحدار لدرجة أن السيارة لم تستطع الصعود. فكان أحد الأولاد يقود السيارة، بينما ينزل الاثنان الآخران لدفعها. لقد دفعنا السيارة عبر ممر راتون حرفيًا. لكن السيارة كانت خفيفة للغاية، وكنا شبابًا أقوياء».

جف عرقهم سريعًا في الهواء الجبلي البارد وهم ينزلون بسرعة على الجانب الجنوبي من الممر. كتب إيه. إل. ويستجارد: «إذا حالف الحظ السائح ورأى غروب الشمس أثناء نزوله من الجبل، فسيظل يتذكر دائمًا روعة المشهد». لكنه أضاف تحذيرًا بأن السائقين سيواجهون بعدها «عقبات طبيعية مثل التربة الطينية وصخور الحمم البركانية والأراضي الرملية»، والتي ستكون «تحديات أصعب من التي توجد في معظم الولايات».

في قرية لاس فيجاس الصغيرة في نيو مكسيكو، والتي كانت على الرغم من ذلك تمثل ضعف حجم البلدة الصغيرة في نيفادا التي تحمل الاسم نفسه، أخذهم طريقهم نحو الغرب مجددًا، عبر الأراضي الشجرية النائية والصحارى في الغرب الجنوبي. كانت هذه الأرض الأحدث والأكثر برية وغرابة في قارة الولايات المتحدة. في غضون شهرين فقط من عام 1912، قبل عشرة أعوام فقط، انضمت نيو مكسيكو وأريزونا إلى الاتحاد، لتصبحا الولايتين 47 و48 على العَلَم. كانت الولايتان معًا تمتدان على مساحة تقدر بثلاثة أضعاف

ونصف من مساحة ولاية ميزوري، لكن عدد سكانها كان بصعوبة يصل إلى خمس عدد سكان ميزوري. كانت ولاية كنساس ذات الكثافة السكانية الضعيفة تمتلك كثافة سكانية أكبر بسبع مرات من كثافة السكان بهذه الأراضي البرية والمفتوحة، وكانت اللغة الإسبانية ولغة النافاهو تُستخدمان بقدر استخدام اللغة الإنجليزية نفسه.

كانت الهضاب الصغيرة والقمم الوعرة في هذه الأراضي غريبة على المسافرين الذين كانوا يحدقون بدهشة، مثلها مثل الساحات الطينية التي أنشأها الإسبان، والأكواخ ذات الأسقف القُبية التي كان يعيش فيها رعاة النافاهو. وبينما تربي الأولاد على قصص قومية متعصبة عن «الهنود الهمج»، وجدوا أنفسهم فجأة بين السكان الأصليين، يتنقلون ببطء عبر أراضي هنود الزوني والنافاهو والهوبي. وقد وجدوا السكان الأصليين مضيفين مرحبين. أخبرني تشارلي: «انتهى بنا الأمر في مخيمات الهنود في المساء، وكانوا يقدمون لنا لحم الثعابين وأشياء من هذا القبيل»، بصراحة تساءلت ما إذا كان يبالغ في القصة حتى اكتشفت أن أحد الأطعمة التقليدية لشعب الزوني في أواخر الربيع هو الجراد المقلي مع خبز الذرة الحلوة.

في غرب الجبال، أصبحت الطرق أكثر وعورة، تذكر تشارلي: «لم يكن هناك حتى حصى، فقط تراب ورمل». عندما كانت سيارة الفورد تعلق، وهو ما حدث أكثر من مرة، كانت السيارة خفيفة بما يكفي ليتمكن الأولاد من جذبها ودفعها لتحريرها. لكن لم يكن سائقو المركبات الكبيرة محظوظين بالقدر نفسه؛ فقد مر الثلاثة بجوار هياكل سيارات ثقيلة مغمورة في الأرض الرطبة. أخبرني تشارلي: «رأينا سيارة تلو الأخرى—كانت السيارات الكبيرة تعلق ولا تستطيع الخروج».

تعطلت سيارتهم في منطقة مقفرة في ولاية أريزونا التي أنهكتها الشمس المحرقة. بعد تسعين عامًا تذكر تشارلي أن هذا بسبب تلف أحد محامل العجلات. كانت ذكرى التعطل في ذلك المكان القاسي ما زالت واضحة كما لو أنها حدثت بالأمس. أخبرني: «كنا على بعد 80 كم من أي مكان ولم تكن هناك سيارات تمر من هذا الطريق. كنا جالسين لا ندري ماذا نفعل. وبقينا هناك نحو ساعة».

أو ربما ثلاث ساعات.

أو خمس ساعات.

وبعد مرور فترة من الزمن: «ظهر مزارع يقود سيارة فورد تي صغيرة، كانت شاحنة صغيرة». تتمثل إحدى الصفات المميزة لسيارة فورد تي، والتي كانت سببًا في نجاحها الكبير، في قدرتها على التكيف بسهولة مع استخدامات متعددة بفضل تصميمها الميكانيكي البسيط. إذ يمكن تحويل سيارة الرحلات الفاخرة التي يمتلكها بوب لونج بسرعة إلى شاحنة فورد الأصلية التي يقودها هذا المزارع في أريزونا، ببساطة عن طريق فك مقعد السيارة الخلفي الذي يحتوي على نابضات واستبدال صندوق خشبي قوي به. علاوة على ذلك، كانت آلية عمل سيارة فورد تي بسيطة بما يكفي ليفهمها أي شخص لديه بغض النظر عن الثقة في مهاراته الفنية.

بعد مائة عام، أصبحت السيارات أكثر تعقيدًا بشكل لا يُقارن، ويحتاج الشخص إلى خبرة متخصصة وأدوات خاصة للقيام بأكثر من مجرد تغيير الزيت أو تعبئة سائل مسّاحات الزجاج. مع ذلك، أعتقد أنه من المهم أن يكون لدى الناس معرفة أساسية بالتكنولوجيا في حياتنا، تمامًا كما كان لدى تشارلي وأصدقائه فهمٌ لسياراتهم المعطلة. فينبغي تشجيع الطلاب على تعلم كيفية بناء موقع إلكتروني بسيط، تمامًا كما يجب أن يتم تشجيعهم على تعلم كيفية استبدال صنبور به تسريب وزراعة حديقة. فالكفاءة تولد الثقة بالنفس؛ وهذا يخفف الشعور بأن التغيير قوة معادية تجرف العالم في تيارها دون رحمة.

قال المزارع وهو يبطن شاحنته: «ما الأمر أيها الأولاد؟».

أجابوه: «أحد محامل العجلات تعرض للتلف».

كان ما قاله المزارع باعثًا على الدهشة والارتياح معًا في نفوسهم: «لقد حدث لي الشيء نفسه الشهر الماضي»، ثم توقف على جانب الطريق، وفتح صندوق شاحنته الخشبي

ليخرج القطعة المطلوبة، موضحًا: «لديّ قطعة بديلة هنا».

أخبرني تشارلي: «أعطانا المزارع المحمل الاحتياطي، وركّبناه وواصلنا طريقنا». وبعد هنيهة أضاف: «كانت العناية الإلهية تشملنا».

كان الأمر أكثر خطورة في الصحراء القاسية، حيث ارتفع مؤشر حرارة السيارة ذات يوم، ما تسبب في خدش إحدى أسطوانات المحرك. وعندما جف مُبرّد السيارة تمامًا، أدرك الأولاد حينها أن الماء نفذ. كانوا على بعد أميال من أقرب بلدة، وكان عليهم إعادة تشغيل السيارة أو مواجهة خطر الإصابة بضربة شمس، وربما الموت. فتركوا المحرك يبرد، ثم صبوا زجاجة الصودا الأخيرة لديهم في مبرّد السيارة. على الرغم من أن الطريقة التي كانت الصودا تفور بها لم تبعث على الاطمئنان، فقد نجحت الخطة بما يكفي ليتمكنوا من التقدم ببطء إلى أقرب متجر عام.

وبعد أن قطعوا مسافة من الطريق، وقضوا ليلة في صحراء موهافي، استيقظ الأولاد ليجدوا رجلًا من السكان الأصليين جالسًا بصمت بجانب سيارتهم، متدثرًا ببطانية اتقاءً لبرودة الصباح المبكر. كان ينتظر بصبر ليرحب بهم، فشاركوا إفطارهم معه وأثنوا على لغته الإنجليزية. وقد فاجأهم أكثر عندما أخبرهم بأنه حصل على شهادة من جامعة هارفارد.

بعد أن قضى الأولاد الثلاثة غير المبالين أسبوعين على الطريق، وقد كانوا يسيرون بمعدل قد يصل إلى عشرة أميال في الساعة، قادوا سيارتهم المغبرة إلى أسفل المنحدر الغربي لجبال سان جابرييل، ودخلوا مدينة لوس أنجلوس. تذكر تشارلي أنه بالمقارنة بما ستصبح عليه مدينة لوس أنجلوس، فقد كانت هذه المدينة الكبيرة في القرن العشرين مجرد بلدة صغيرة: «كانت لوس أنجلوس تتكون من بعض البيوت وبينها أشجار البرتقال. برتقال في كل مكان، بساتين برتقال».

كان الثلاثة قد عبروا نصف قارة في مركبة لا يتعدى تعقيدها تعقيد جازاة العشب، ليتأملوا البحر للمرة الأولى في حياتهم. لم يطلبوا إذنًا من أحد، ولم يحتاجوا إلى مساعدة أي شيء سوى عزيمتهم الشخصية ولطف بعض الغرباء. لكن الآن، ومع كل تلك المشاعر المخيبة التي يعرفها المسافرون، أدركوا أن الوصول إلى هناك قد استهلك كل قدرتهم على التخطيط وكل الطاقة التي كانوا يمتلكونها. بمجرد أن توقفوا، واجهوا تساؤلًا كبيرًا: كيف سيعودون إلى ديارهم؟



كانوا لا يعرفون سوى شخص واحد فقط في كاليفورنيا، وبشكل سطحي فحسب، وهو تشارلز روجرز، والذي ينادونه «بادي». كان أكبر من تشارلي وايت بسنة، وينحدر من مدينة أولاث بولاية كانساس، وكانت الرحلة إليه تستغرق يومًا زهابًا وإيابًا من مدينة كانساس باستخدام الحصان والعربة. عندما كان بادي وتشارلي طفلين، كان هناك خط ترام يربط بين المدينة الكبيرة والجماعات المحلية القريبة في كانساس، ما فتح عالمًا من الفرص أمام فتیان المزارع في أولاث. استغل بادي روجرز الفرص التي أتاحها المشهد الموسيقي في مدينة كانساس لتطوير مهاراته كمؤدِّ، ومن المحتمل أن يكون فتیان ويستبورت قد التقوا به في إحدى الحفلات الموسيقية أو الرقصات. ولقد استقبلوا باهتمام خبر تركه للمدرسة للانتقال مع والدته إلى هوليوود ليحرب حظه في عالم الأفلام.

اتضح أنها كانت فرصة كبيرة بالفعل. فبعد خمس سنوات فقط من مغادرته أولاث، أصبح بادي روجرز نجمًا كبيرًا، مشهورًا بلقب «محبوب أمريكا». ففي عام 1927، دخل تاريخ هوليوود من أوسع أبوابه عندما لعب دور البطولة أمام كلارا بو في فيلم Wings، وهو أول فيلم يفوز بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم. لاحقًا تسببت علاقته الغرامية بالممثلة ماري بيكفورد في طلاقها الشهير من النجم اللامع دوجلاس فيربانكس في عام 1936. على النقيض من ذلك، كان زواج روجرز لاحقًا من ماري بيكفورد من بين أطول الزيجات التي

استمرت في عالم الفن، حيث استمر زواجهما حتى وفاة بيكفورد في عام 1979. في عام 1982، كرمت أكاديمية الفنون والعلوم السينمائية مرة أخرى بادي روجرز بجائزة تقديرًا لأعماله الإنسانية - وهي جائزة مُنحت أيضًا على مر السنين لنجوم مثل بول نيومان وفرانك سيناترا وأودري هيبورن وأنجلينا جولي.

كل ذلك سيحدث في المستقبل؛ لكن في تلك اللحظة، كان بادي روجرز مجرد مرأهق غير معروف لديه حلم يسعى لتحقيقه. كان يقف على بابه ثلاثة فتيان من مدينة كانساس، الذين كانوا مجرد معارف عابرين. بشكل ما تمكن المسافرون من تعقب أثره وصولاً إلى «كوخ صغير في لوس أنجلوس»، حيث كان روجرز يقيم بينما كان يتعلم مهنة صناعة الأفلام. عندما شرح تشارلي كيف وصلوا إلى هناك، دعا روجرز الثلاثة للدخول وقدم لهم الإفطار. بقي المسافرون لفترة طويلة بما يكفي للمبيت لليلة، ولكن في صباح اليوم التالي كما يتذكر تشارلي: «قررنا أننا لن نعيش على حساب بادي». لقد شجع روجرز ووالدته الأولاد بلا شك على هذا القرار.

أخبرني تشارلي بأنهم ظلوا ليوم أو ليومين يتناولون الطعام مجاناً عبر حضور عروض عقارية، مدعين أنهم في رحلة استطلاعية نيابة عن آبائهم المهتمين بالاستثمار في كاليفورنيا. كما كانت المخابز تقدم لهم عينات مجانية، على الأقل حتى انتبه الخبازون إلى هؤلاء الزوار المتكررين. لم يكن أي من هذين الأسلوبين يصلح ليكون حلاً دائماً، وسرعان ما أصبحت الحاجة ملحة للعودة إلى الوطن.

بالنسبة للونج، كانت رحلة العودة تتمثل ببساطة في استجداء مساعدة والديه. فقد باع سيارة الفورد المتهالكة مقابل بضعة دولارات واستأجر حجرة في فندق، وأرسل لأهله طلباً للمساعدة، فأسرعت والدته الغاضبة بالسفر بالقطار إلى لوس أنجلوس لاسترجاعه.

ترك هذا تشارلي وإد بمفردهما. كانت أموالهما التي كسبها من حصاد القمح قد نفدت، باع صديقهما الغني سيارته الفورد تي، وكانت أبواب بادي روجرز مغلقة أمامهما، كما لم يعد

لديهما المزيد من وكلاء العقارات الطيبين. فأخبرني تشارلي: «قررنا أننا سنتنقل بالقطارات».

كان هناك عيب واحد فقط في هذا المخطط بحسب تشارلي: «لم نركب قطارًا من قبل».



بعد أن وصلا إلى ساحات الشحن في لوس أنجلوس، تسلل الفتیان بصمت عبر الأرصفة الجانبية بحثًا عن قطار متجه شرقًا. كانا يعرفان ما يكفي عن السكك الحديدية ليفهما أنه يجب عليهما اللحاق بالقطار أثناء تحركه لتقليل فرصة الإمساك بهما. لكن ينبغي ألا يكون القطار متحركًا بسرعة كبيرة؛ لأن السرعة تضاعف الخطر الكبير الذي قد ينجم عن الصعود على جبل متحرك من المعدن. سيكون قطارهما المثالي هو القطار الذي بدأ للتو في التحرك.

وعندما رصدا هدفًا محتملًا، جثما على الأرض حتى بدأ القطار في التحرك مصدرًا صرير العجلات. ثم اندفعا من مخبئهما وانطلقا مسرعين على طول القضبان، وقفزا داخل إحدى عربات القطار. ثم جلسا وهما مفعمان بالحماس والفخر للاستمتاع بالرحلة، ليكتشفا بعد ذلك أنهما يسافران في الاتجاه الخاطئ. قال تشارلي بعد سنوات وهو يضحك: «ركبنا على قطار شحن اعتقدنا أنه متجه نحو الشرق، لكنه كان منطلقًا شمالًا».

توقف القطار بعد يوم كامل قرب سان فرانسيسكو. كان ذلك الخبر جيدًا وسيئًا في الوقت نفسه بالنسبة لتشارلي وإد. الجزء الجيد هو أن الصديقين تعلمتا كيفية ركوب القطارات خلسة، أما الجزء السيئ فهو أنهما لم يقتربا من العودة إلى المنزل، كما أن حالتها المالية كانت في غاية السوء.

وبينما كانا يسيران بعيدًا عن ساحة السكك الحديدية بحثًا عن وجبة بسيطة، اكتشف الصبيان أنهما استقلا القطار في خضم واحد من أسوأ الإضرابات العمالية التي ضربت

السكك الحديدية الأمريكية، فبعد أن قامت الحكومة الفيدرالية بتأميم السكك الحديدية خلال فترة الحرب، كانت الآن بصدد إعادة السكك إلى سيطرة القطاع الخاص. كان المشغلون مصممين على خفض التكاليف. وقد أثارت اقتراحات بتخفيض الرواتب بنسبة 12% لعمال الورش إضرابًا شاملاً امتد من الساحل الشرقي إلى الغربي.

عرف الفتيان بذلك من خلال اللافتات المنتشرة حول ساحة السكك الحديدية. كانت شركات السكك الحديدية قد أقامت مخيمات للعمال البدلاء المناهضين للإضراب للحفاظ على سير القطارات رغم الإضراب. أعلنت إحدى اللافتات عن حاجتها لنادلين وعمال تنظيف للعمل في أحد مخيمات العمال البدلاء. تذكر تشارلي: «قالت اللافتة إنهم بحاجة إلى مساعدة في الخدمة على الطاولات للعمال المكسيكيين الذين كانوا يقومون بتبريد العربات لنقل المنتجات إلى الشرق»، باتباع التعليمات على اللافتة، وصل المسافران المفلسان إلى بوابة في سياج شديد الحراسة في مكان ما في أوكلاند. وقف الحراس المسلحون الذين يعملون لحساب سكة حديد غرب المحيط الهادي يتفقدون الفتيين من أعلى لأسفل، ثم أشاروا لهما بالعبور. وقدم الفتيان نفسيهما لمسئولي التوظيف.

وعلى مدار الأيام العشرة التالية، قدم تشارلي وإد الطعام للعمال البدلاء داخل عربات الركاب المعدلة. كان الأجر ثلاثة دولارات في اليوم بالإضافة إلى وجبات الطعام ومكان للنوم. كانت جيوبهما تزداد ثقلاً كل يوم، وعندما أصبح لدى كل منهما ثلاثون دولارًا، قدرا أن هذا المبلغ سيكفيهما للعودة إلى الديار بأمان.

ولأنهما كانا في عجلة كبيرة قررا المخاطرة وركوب قطار ركاب. وقد وجدا في الساحة قطارًا ينبعث منه بخار المحرك استعدادًا للتحرك. بعد انتظار صفارة القطار التي تشير إلى إغلاق الأبواب، اندفعا إلى مؤخرة العربة وأمسكا بالسلم المؤدي إلى السطح. تسلقا إلى قمة العربة بينما بدأ القطار في التحرك، ثم تمددا على السطح لتفادي أن يراهما أحد من على الرصيف. وبدأ القطار المتحرك المهتز من تحتها يكتسب السرعة تدريجيًا.

اتجه القطار شرقًا من منطقة خليج سان فرانسيسكو، مبتعدًا عن الشمس الغاربة، ثم اتجه شمالًا عبر ساكرامنتو وأوروفيل قبل أن يعود مجددًا إلى الاتجاه الشرقي. حجب الليل المسافرين الممددين على السطح، بينما كان القطار ينطلق عبر جبال سييرا نيفادا عبر وادي نهر فيزر. لم يكن أي من الصبيين مستعدًا للانخفاض الحاد في درجة الحرارة مع حلول الليل فوق الجبال، واقتربا من بعضهما وأسنانهما تصطك طلبًا للدفع. تذكر تشارلي بحزن قائلاً: «ربطنا أنا وإد نفسينا على قمة العربة، وكنا على وشك التجمد حتى الموت ونحن نعبر الوادي ليلاً».

لم يستمر البرد طويلاً. فقد بزغ الفجر على الولدين البائسين، وكان القطار ينحدر بين الجبال نزولًا إلى صحراء بلاك روك في شمال نيفادا، حيث تتجاوز درجات الحرارة 90 درجة فهرنهايت في أيام شهر يوليو. بعد الليلة الطويلة التي قضياها في السفر خلال أشجار الصنوبر العالية وبالقرب من منحدرات الصخور العارية، كانت اتساع الصحراء غريبًا وصادمًا. كانت صحراء بلاك روك مساحة هائلة مغطاة بغبار الطباشير ذي اللون البني المائل إلى الرمادي، وكأنها مهيأة لعمالقة الفنانين لتمثيل مسرحية أمام جمهور متمثل في القمم البعيدة التي يلفها الضباب. لم أخبر تشارلي أبدًا بما حدث في ذلك المكان الفارغ، فبحلول الوقت الذي عرفته فيه، كانت تلك الصحراء قد أصبحت مشهورة بمهرجان «الرجل المحترق» السنوي، وهو احتفال جامح يمزج بين الفن، والغموض، والمخدرات، والرؤية المستقبلية، والعودة إلى الأصول البدائية، ويجذب نحو خمسة وستين ألف شخص كل صيف. لم أدر إن كان سيصدقني إن أخبرته.

عندما توقف القطار، لم يكن هناك سوى برج مياه وحيد، ومنه تم ملء غلايات المحرك المتعطشة للماء. شعر الفتیان بالقلق عندما رأوا عامل الفرامل يهبط ويبدأ في تفقد كل عربة على طول القطار. عندما وصل إلى عربتهما، رأى الولدين على السطح وأمرهما بالنزول، فاعترضا على أن يتم تركهما في الصحراء، لكن موظف السكك الحديدية لم يستمع لاعتراضاتهما. كانت خزانات مياه القطار قد امتلأت تقريبًا؛ وصدرت الصفارة كتحذير، بينما واصل عامل الفرامل سيره نحو آخر عربة في القطار.

كانت نظرة سريعة حول الفضاء الملهب بفعل الشمس كافية لإقناع الولدين المتسللين بأنه لم يكن لديهما خيار آخر. قال تشارلي موضحًا: «لم يكن من الممكن أن نظل عالقين هناك في الصحراء». بعد تبادل حديث هامس، سار تشارلي وإد مبتعدين كما لو كانا متجهين إلى مستوطنة صغيرة في الأفق. وعندما أصبح القطار يفصل بينهما وبين عامل الفرامل، تسلا «كالهنود الحمر» إلى المحرك وراقبا تحركات عدوهما من خلال الفجوة بين القضبان والعربة.

من فوقهما، كانت الغلايات في ذلك الوقت ممتلئة، وكان اللهب داخل الموقد يصدر بخارًا متصاعدًا. كان يبرز من مقدمة المحرك، مثلما تبرز الشوارب على الذقن، طرف معدني يُعرف باسم «سياج الحيوانات». يخبرنا الاسم عن الغرض منه: فإذا واجه قطار في أحد البراري النائية قطيعًا من الحيوانات على القضبان، فقد تحت هذه الأداة الحيوانات على التفرق أثناء تقدم القطار إلى الأمام. كما يعمل إسفينها أيضًا على إزاحة الأشجار المقطوعة والصخور الصغيرة وحتى الثلوج عن القضبان. والأفضل من ذلك كله من وجهة نظر الولدين، أن زوايا المحرك قد منعت الرجال في الكابينة من رؤية سياج الحيوانات في الأسفل.

ألقي الولدان نظرة أخرى تحت العربات فشاهدوا أقدام عامل الفرامل تختفي مع صعوده إلى القطار. فاندفع تشارلي وإد إلى الأمام نحو سياج الحيوانات، وصعدا على متنه. أخبرني تشارلي: «أعتقد أننا قطعنا المائتين وخمسين كيلومترًا التالية في هذا الوضع».



استمرت لعبة القط والفأر هذه عبر نصف قارة. أخبرني تشارلي: «كنا نتعرض للطرد ويتم إنزالنا من القطار. فنركب قطارًا آخر بعده». وقد جعل الإضراب كل شيء أكثر صعوبة؛ لأنه تم تعيين حراس إضافيين لمنع التخريب. تعلّم تشارلي وإد كل مكان ومخبأ في الجزء الخارجي من القطار. كانت درجات سلم عربة الركاب بمثابة عرش ملكي - ولكنه أيضًا أول

مكان يفتشه الحراس عندما يتوقف القطار في المحطة. وكان الركوب في سياج الحيوانات مثيرًا مع القوة الهائلة للقطار الهادر الذي يدفعه إلى الأمام. لكنه كان يصبح غير مريح بشكل رهيب بعد ثلاث أو أربع ساعات، وخطير للغاية كذلك. أخبرني تشارلي: «المكان المعتاد للاختباء هو المنطقة الصغيرة الشاغرة خلف عربة الفحم، بين عربتي الفحم والنقل السريع. كانت تلك منطقة لا يفتشون فيها كثيرًا؛ لذا كنا نختبئ هناك».

ولكن حتى هذا المخبأ كانت له عيوبه. ففي كل مرة يمر القطار عبر نفق - وكان هناك العشرات من الأنفاق أثناء صعود القطارات في جبال الروكي - «كانت هذه القطارات التي تعمل بحرق الفحم تنفث رمادًا ساخنًا» من ممراتها إلى أسقف الأنفاق ثم تعود إلى القطار. قال لي تشارلي: «ما زلت أتذكر ذلك الرماد الساخن الذي كان يتساقط علينا».

وقد وجدهم الحراس مرة أو مرتين. قال تشارلي عن الرجال الذين اقتادوه هو وصديقه من المحطة إلى السجن: «أطلقنا عليهم اسم «أوغاد القطارات». كانوا يبقوننا هناك طوال الليل، وفي الصباح يقدمون لنا إفطارًا جيدًا، ثم يطردوننا».

وقد صادف تشارلي وإد، في عدة مواقع على طول الطريق، معسكرات يقطنها رجال يعيشون على مقربة من السكك الحديدية. لم يُعجب الولدان بالطريقة المريبة التي كان يتم فحصهما بها من الأعلى إلى الأسفل. قال تشارلي متذكرًا: «كانت لدي ساعة يد. عندما توقفنا لأول مرة عند معسكر للمشردين، قال أحد الرجال: يا بني، من الأفضل أن تخلع تلك الساعة. سيقنتك أحدهم من أجلها. بعد ذلك، بدأت أخبئ ساعتني». كان تشارلي يروي تفاصيل هذه الرحلة إلى كاليفورنيا عدة مرات خلال زياراتي له في منزله عبر الشارع. لقد أدركت بعد عدة مرات من سرده لهذه الرواية أنه لم يذكر أبدًا شعوره بالخوف. بدأت أتخيل خطورة ساحات السكك الحديدية؛ تلك الكتل الضخمة من العربات المتحركة بعجلاتها القاطعة الخطيرة. تخيلت حرارة الصحراء القاتلة، والأصابع المشدودة التي تتشبث بسياج الحيوانات. تخيلت رجالًا يمكنهم أن يقتلوا صبيًا من أجل ساعة يد. لماذا لم يكن تشارلي خائفًا؟

أدركت بالطبع أنه كان خائفًا، ولكن كيف كان يمكنه العودة إلى منزله إذن؟ هناك مشهد رائع في ملحمة جورج آر. آر. مارتن Game of Thrones، يسأل فيه بران والده: «هل يمكن للمرء أن يكون شجاعًا وهو خائف؟» فيجيب والده: «هذا هو الوقت الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه الإنسان شجاعًا». كان تشارلي يدرك أن سرد قصص الشجاعة يجعل التحلي بالشجاعة أسهل. يمكن أن تُروى قصصنا بأساليب مختلفة؛ فقد تكون مليئة بالإثارة والتشويق، أو قد تكون أكثر هدوءًا وبساطة. ويمكننا أن نركز إما على الهزيمة أو على الإصرار، وأن نختار أن نبرز الإخفاقات أو النجاحات. وقد أصر تشارلي على تقديم النسخة المشرقة من حياته، وأعتقد أن ذلك جعله إنسانًا أكثر سعادة.

دائمًا ما كان ينهي قصته بالخاتمة السعيدة نفسها: ركوب الفتیان عربة مفتوحة تابعة لسكك حديد ميزوري باسيفيك، وهو الخط الذي أخذهما في النهاية إلى الوطن. كانا الراكبين الوحيدين. أخبرني تشارلي: «أتذكر مرورنا عبر جبال الروكي في كولورادو. أتذكر أيضًا عندما كنت أنا وإد مستلقيين هناك، بينما نمر عبر وادي رويال جورج».

هذا ممر ضيق يمتد لنحو 15 كم، ويتألف من منحدرات مذهلة وهاويات عميقة نحتها نهر أركنساس على مدى الزمن، وحين تنظر من هذا الوادي إلى السماء تجدها مجرد شريط أزرق، بينما يحيط النهر بجدران من الصخور. لا بد أن الولدين كانا يدركان أن ما ينتظرهما بعد ذلك المشهد سيكون نهاية رحلتها وسط الشجيرات والسهول التي تقود إلى مكان لن يعود أبدًا كما كان: الوطن. كانا في تلك اللحظة المجيدة فارسين في مملكة لا مثيل لها. قال تشارلي لإد (أو ربما إد لتشارلي): «حسنًا! ما الذي يمكن أن يكون أكثر فخامة من ذلك؟ لدينا سيارة لنا وحدنا». استمتعا بالنظر إلى شريط السماء الضيق وهما مستلقيان على ظهرهما، بينما كان القطار ينطلق على طول ضفة النهر. كانت السُّحُب ككرات قطنية تطفو من مكان إلى آخر عبر الوادي. وبعد مرور ما يقرب من قرن، كان تشارلي يستطيع رؤية كل ذلك في خياله بوضوح كما كان في الماضي. أخبرني: «أتذكر أنني قلت: يا لها من حياة!».

السادس

كانت السنة التي تعرّفت فيها على تشارلي هي أيضًا السنة التي طرحت فيها شركة أبل أول هاتف آيفون. لم أفهم الضجة المحيطة به على الفور، ربما لأنني أعمل في الكتابة منذ زمن طويل، وقد كنت أستخدم آلة كاتبة، ولذلك كنت دائمًا أرى الحواسيب في البداية كأجهزة كتابة متطورة، فشعرت بأن لوحة المفاتيح الصغيرة على الشاشة التي تعمل باللمس في الآيفون طريقة غير ملائمة للكتابة.

أعترف بأن هذا كان مثالاً واضحاً على عدم فهم الهدف الحقيقي. لو كنت موجوداً عندما اكتشف البشر النار، ربما كنت سأعترض على أن أوائل من استخدموها كانوا يحرقون الخشب المفيد بلا داعٍ! لكن تشارلي لم يكن ليرتكب هذا الخطأ. كان يدرك أن النجاح في التكيف مع التغيير يبدأ بشغف حقيقي للأشياء الجديدة.

عندما ركب تشارلي وصديقه إد سنو عربة السكك الحديدية المسطحة التابعة لسكك حديد ميزوري باسيفيك، مغادرين وادي رويال جورج وهما يتجهان إلى السهول العليا، كانا في طريقهما إلى شيء جديد تمامًا في موطنهما. مثل الهواتف الذكية، كانت التقنية الثورية في عام 1922 تتمثل في جهاز يزيل المسافات، ويشعل الإبداع، ويحدث ثورة ثقافية، ويمنح القوة للشخصيات الشهيرة؛ ذلك الذي أصبح يُعرف بـ«الراديو». لكن في البداية، كانت هذه المعجزة في الاتصال اللاسلكي جديدة لدرجة أنه حتى اسمه كان لا يزال قيد البحث والتحديد. قبل ذلك بعدة أشهر، في 16 فبراير من عام 1922، أعلنت جريدة كانساس سيتي ستار على صفحتها الأولى عن بث تجريبي. وقد أشار المقال إلى «هاتف راديو» و«وصلة هاتف لاسلكي» في جملة أخرى، فلم يكن رواد الإذاعات التجارية متأكدين من الاسم المناسب له، لكنهم كانوا يشعرون بأنه اختراع عظيم.

بالطبع، لا تنبثق التكنولوجيا من العدم. فعلماء الفيزياء في القرن التاسع عشر، الذين عملوا على أسس وضعها إسحاق نيوتن قبل قرون، اكتشفوا أن الكون مليء بالطاقة التي تنتقل في شكل موجات. علاوة على ذلك، يختبر البشر هذه الطاقة بطرق مختلفة بناءً على المسافة بين قمة موجة والتي تليها، والمعروفة بـ«طول الموجة». الضوء هو طاقة تتحرك في موجات دقيقة تتراوح أطوالها بين مليار جزء من المتر من قمة إلى قمة. بين حوالي 390 مليار جزء من المتر و700 مليار جزء من المتر تكمن جميع الألوان المرئية وكل ما نراه: كل قوس قزح، كل لوحة للرسام رمبرانت، وكل غروب شمس، وكل وجه حبيب. تم اكتشاف أن الموجات الأقصر، والمعروفة بـ«الأشعة السينية»، تمتلك القدرة على جعل الهياكل العظمية والأعضاء الحية مرئية. ومع ذلك، فقد اكتشف العلماء بطريقة مأساوية، مثل ماري كوري، أن هذه الإشعاعات ذات التردد العالي يمكن أن تكون قاتلة.

وبناءً على أعمال الباحثين السابقين، تمكن جويلمو ماركوني من استخدام الموجات الطويلة، التي تمتد لعدة مئات من الأمتار بين القمم، لنقل المعلومات عبر الهواء. في عام 1895، نجح المخترع في إرسال واستقبال رسالة بشفرة مورس دون استخدام الأسلاك. وسرعان ما اتضحت القيمة العملية لهذا الابتكار بالنسبة للصناعة البحرية. فقد تمكنت السفن للمرة الأولى من التواصل حتى بعد إبحارها بعيدًا عن الأنظار. وقد نشأ تشارلي وهو يسمع القصة المثيرة عن الدكتور هاولي كريبين. ففي عام 1910، قام الطبيب الإنجليزي بتسميم زوجته وأبحر إلى كندا مع عشيقته. وأذاعت شرطة إسكوتلاند يارد أمرًا بالقبض على كريبين إلى مشغلي شركة ماركوني للتلفراف اللاسلكي الموجودين على متن السفينة، وعندما رست السفينة تم القبض على الوغد.

والأكثر روعة من ذلك أنه في عام 1912؛ أي عندما كان تشارلي في السادسة من عمره، كان لمشغلي شركة ماركوني العاملين على متن الباخرة الفاخرة تيتانيك الفضل في إنقاذ أكثر من سبعمائة ناجٍ من حطام السفينة العظيمة في شمال المحيط الأطلسي؛ فلقد أرسل أولئك الشباب رسائل استغاثة عاجلة إلى أن تعطلت أجهزة اللاسلكي الخاصة بهم أثناء غرق السفينة.

في ذلك الوقت، كان قد تفوق مبتكرون آخرون على ماركوني، وبدأوا في إرسال الأصوات والموسيقى عبر طاقة الموجات الطويلة. وقد تطورت تجاربهم إلى درجة أن الحكومة الأمريكية بدأت في منح التراخيص لمحطات الراديو التجارية في عام 1920. في الوقت نفسه، نشر مكتب المعايير الفيدرالي تعليمات لبناء أجهزة استقبال لاسلكية كريستالية محلية الصنع. لقد ارتفع عدد محطات البث المرخصة من بضع محطات في بداية عام 1922 إلى ما يقرب من 600 محطة على مستوى البلاد بعد اثني عشر شهرًا فقط.

كانت محطة ديليو دي إيه إف من أوائل المحطات المرخصة، التي كانت تملكها وتديرها شركة ستار. كانت الصحف من أبرز الجهات الرائدة في مجال البث؛ لأنها كانت تخشى أن تحل الإذاعة محل مطبوعاتها. وقد حقق «الحفل الموسيقي الهاتفي اللاسلكي» الذي أُعلن عنه في فبراير نجاحًا كبيرًا لدرجة أن محطة مدينة كانساس بدأت في البث المنتظم في الوقت الذي انطلق فيه تشارلي وأصدقاؤه إلى كاليفورنيا. عندما عاد تشارلي إلى المنزل، صنع أول جهاز راديو كريستالي خاص به.

بمجرد افتتاح موجات البث، كان على المذيعين ملء هذه الموجات، فحدثة الراديو وحدها قد تجذب الجمهور، لكنها لن تُبقي المستمعين طويلًا. وقد حققت محطة ديليو دي إيه إف نجاحًا مبكرًا من خلال تقديم تقارير يومية عن صعود وهبوط أسعار السلع من مجلس مدينة كانساس للتجارة - سلع مثل الذرة والقمح واللحوم وما إلى ذلك. وكان المزارعون على امتداد آلاف الأميال في كل الاتجاهات يتابعون هذه المعلومات الحيوية. في مكان آخر، غطت المحطة الإذاعية في ديترويت مباراة للوزن الثقيل، وهكذا نشأت الإذاعة الرياضية. كما ألقى رجل دين يُدعى بول رادر أول عظة إذاعية برفقة فرقة آلات موسيقية نحاسية على محطة شيكاغو. ومع ذلك، كانت هناك حاجة إلى شيء إضافي، وقد تحقق هذا الشيء بعد فترة وجيزة من عودة تشارلي من جولته، ذلك عندما عرفت موسيقى الجاز طريقها للراديو.

كان ذلك في ليلة الجمعة، 22 من سبتمبر في عام 1922، بعد أسابيع قليلة من ذكرى ميلاد تشارلي السابعة عشرة. كان مجلس التجارة مغلقًا في عطلة نهاية الأسبوع؛ لذا نقلت محطة دبليو دي إيه إف معدات البث المتنقلة الخاصة بها إلى مسرح نيومان بوسط مدينة كانساس، وهو المكان نفسه الذي عُرض فيه أول أفلام والت ديزني القصيرة قبل بضعة أشهر. فعندما لم يكن مسرح نيومان يعرض الأفلام، كان مسرحه الكبير يستضيف عروض الفودفيل. في تلك الليلة، كان النجم الرئيسي هو فرقة محلية تُدعى «أوركسترا كُون-ساندرز الجديدة»، وهي فرقة مكونة من تسعة عازفين يقودها الثنائي عازف الطبول جميل الصوت كارلتون كُون وعازف البيانو جو ساندرز.

كان هناك موسيقيون أفضل في المدينة - أبرزهم بيني موتين وفرقة أوركسترا مدينة كانساس التي أطلقت عمالقة الجاز، مثل بيل «الكونت» باسي وجيمي راشينج وبن ويبستر ووالتر بيغ. وقد ألهموا جيلًا جديدًا من الموسيقيين الشباب في مدينة كانساس سيتي، من بينهم ماري لو ويليامز وليستر يونج - والأكثر تألقًا من بينهم جميعًا - تشارلي «بيرد» باركر المتألق والذي مات في عمر الرابعة والثلاثين. لكن فرقة كون - ساندرز كانت تضم مجموعة من الموسيقيين ذوي البشرة البيضاء الذين يعزفون لجمهور من ذوي البشرة البيضاء، وبالتالي كانت صالحة للإذاعة في ذروة عصر جماعة كو كلوكس كلان. لقد قدمت الفرقة نوعًا من موسيقى الجاز الراقصة التي عززتها آلة التوبا الحماسية وهي نوع من الأبواق، مصحوبة بضربات كون على الطبول، وكانت سريعة في الإيقاع بفضل آلة البانجو الموسيقية.

وقد أحب المستمعون ما سمعوه، وحقق هذا العرض في نيومان نجاحًا كبيرًا، لدرجة أن إذاعة دبليو دي إيه إف حجزت أوركسترا كون-ساندرز كعرض ليلي، وبثته على الهواء مباشرةً من مسرح الفرقة في وقت متأخر في فندق موهلباخ الأنيق. كان المذيع ليو فيتزباتريك متشككًا في البداية في أن يستمع أي شخص إلى برنامج منتصف الليل بخلاف «محبى السهر»، لكن تبين أن أعداد الساهرين كانت كثيرة بالفعل.

ومن خلال الترددات الهوائية الصافية إلى أجهزة الاستقبال التي امتدت إلى كندا، استطاعت إشارات قناة دبليو دي إيه إف أن تجذب جمهورًا في كل مكان سُمع فيه أداء الفرقة. وقد أعاد قائد الفرقة الغنائية تسمية فرقتهما باسم «أوركسترا كون-ساندرز نايت هوك». مع اكتشاف المزيد من المستمعين لفرقة كون-ساندرز عبر أجهزة الراديو الكريستالية، وازدياد شغف الأمة بموسيقى الجاز الليلية، أصبحت فرقة كون-ساندرز تُلقب بـ«الفرقة التي جعلت الراديو مشهورًا». سرعان ما امتلأت المتاجر بأجهزة استقبال متطورة، تتفوق على الأجهزة المصنوعة يدويًا، بتصاميم خشبية لامعة وميزات حديثة، مثل «الريوستات ذات الخيوط الرفيعة» و«الأقراص الدوارة للتنقل بين المحطات». توسل الأطفال إلى آبائهم ليسمحوا لهم بالسهر حتى وقت متأخر لسماع الفرقة. وبدأ أن البلد بأكمله كان يعرف كلمات الأغنية المبهجة - وهي من أوائل الأغاني المقدمة في تاريخ البث الإذاعي - والتي كتبها ساندرز بعنوان «The Nighthawk Blues».

عندما يبدأ كون وساندرز في عزف

أغنيتهما، ستبدأ في التمايل؛

قم بتشغيل الراديو واستمع بتركيز،

واتصل بهما لتحييهما!

من الساحل إلى الساحل

يمكنك سماع تلك الألحان المتناغمة

نعم، فمن العدل أن نقول:

استمع إلى أغنيتنا!

وكان تشارلي وايت من بين أولئك المتابعين للإذاعة الليلية. في ذلك الوقت كان قد أصبح خريجًا في المدرسة الثانوية وذا خبرة واسعة في العالم. ومثل الكثير من الشباب في تلك المرحلة من حياتهم، كان لديه تصور لما يريد تحقيقه، لكنه لم يكن متأكدًا من كيفية الوصول إليه. بينما كان تشارلي يضرب بقدمه على إيقاع فرقة كُون-ساندرز تحت السطح البارز في الطابق العلوي من منزل شارع كامبل، أدرك شيئًا مهمًا. كانت شهرة الفرقة تخلق طلبًا كبيرًا على فرق الرقص النشيطة ذات الإيقاع السريع. إذا كان بإمكان بعض الأولاد من كانساس سيتي أن يصبحوا أكبر نجوم الراديو، فما الذي يمنع تشارلي؟ يمكنه أن يشكّل فرقة، ويتعلم مجموعة من أغاني فرقة كُون-ساندرز، ويجمع المال من أجل الدراسة في الكلية من خلال عزف موسيقى الجاز.

لكن كانت هناك عقبة واحدة: تشارلي لم يكن يجيد العزف على أية آلة موسيقية. فلم يكن لديه صبر على دروس تعلم العزف على البيانو. إلا أن الموهبة الموسيقية كانت متأصلة في عائلته. فقد كوّن شقيقاته الكبريات فرقة ثلاثية شهيرة، واحترفت إحداهن الغناء. في عصر الأفلام الصامتة، قبل عام 1927، كانت كل دار عرض سينمائية تحتوي على آلة أرغن أو بيانو كمعدات أساسية، حيث كان العازف يرتجل الموسيقى المناسبة للمزاج العام لتناسب مع الدراما التي تظهر على الشاشة. وكانت شقيقة تشارلي واحدة من أفضل الموسيقيين في مدينة كانساس.

اشترى تشارلي ساكسفون مستعملًا من أحد أصدقائه في المدرسة الثانوية. وقد شمل سعر البيع أيضًا شرحًا مختصرًا حول كيفية الضغط على المفاتيح، وبعض المعلومات الأساسية عن الجزء الذي يوضع في الفم لتتمكن من إصدار صوت من الآلة. تولى تشارلي المهمة من هنا؛ فأتى الاستماع إلى فرقة كُون-ساندرز، بدأ ينفخ بهدوء في ساكسفونه، محاكيًا نغمة تلو الأخرى. وتزايدت النغمات تدريجيًا حتى أصبح يعزف مع الفرقة.

قال تشارلي بعد مرور عقود على ذلك: «عندما لا يكون لديك دخل، اخلق فرصًا لنفسك. جِد وظيفة». وبالطبع ليس الأمر دائمًا بهذه السهولة. مع ذلك كان قد أصاب نقطة مهمة، فالبشر

لديهم قدر من الإبداع والإمكانات يفوق ما يكتشفه معظمنا. وكما قال بيكاسو: «كل طفل هو فنان». وقد اكتشف تشارلي الفنان الموسيقي بداخله وأعطاه الفرصة للتعبير عن نفسه. لقد كان البث الليلي على محطة دبليو دي إيه إف بمثابة تدريب مهني له، حيث قال: «كنت أستمع إلى فرقة كون ساندرز ليلاً وأحاول العزف معهم. وتعلمت العزف على الساكسفون بنفسني. لم أتلق أية دروس».



وفي هذه الأثناء، جنى تشارلي بعض المال في نهاية الصيف من خلال العمل مرة أخرى عاملاً مؤقتاً على السكك الحديدية. كانت التوترات لا تزال مشتتة على خطوط الإضراب، لكن تشارلي وضع خطة لعبور الخطوط بأمان. كان لديه بنطال أبيض قماشي أنيق، مثل الذي يرتديه موظفو المكاتب المهندمون، فارتداه مع سترة مناسبة، وخبأ بدلة العمل الخاصة به داخل حقيبة كتب، وهكذا كان يمر دون مضايقات من بين صفوف المضربين. يتذكر تشارلي: «كانوا يقولون: حسناً، هذا مجرد صبي يعمل في المكتب». وبمجرد دخوله، كان يبذل ملاحظته إلى ملابس العمل، ويعمل في مناوبته، ثم يذهب للاستحمام. أردف: «وبعدها كنت أعيد ارتداء زيي القماشي وأخرج».

غَطَّت الأموال التي حصل تشارلي عليها من العمل في السكك الحديدية تكاليف الالتحاق بكلية كانساس سيتي الجديدة التمهيديّة. لن أتطرق هنا لتاريخ الكليات التمهيديّة. ثق بأن هذا كان واحداً من الأمثلة التي تجسد نضوج تشارلي مع العالم الحديث في آن واحد. بالنسبة لتشارلي، كانت الكلية التمهيديّة وسيلة ميسورة لبدء تحقيق هدفه في أن يصبح طبيباً. رغم أن هذه الكلية الجديدة كانت تفتقر إلى المروج الخضراء والأبراج العالية، فقد كانت تعوض ذلك بصرامتها الأكاديمية. أوضح تشارلي لي ذات مرة: «كانت أصعب مدرسة ذهبت إليها على الإطلاق. كانت حقاً صارمة». ربما كان أعضاء هيئة التدريس يشعرون أنهم بحاجة لإثبات شيء ما. وكان الطلاب يشعرون بذلك أيضاً. أخبرني تشارلي بأن المعايير

كانت عالية جداً، والطلاب يجتهدون للغاية، لدرجة أنه عندما انتقل لاحقاً إلى الجامعة الرئيسية في ميزوري، وجد العمل أسهل بكثير بالمقارنة.

وفي كل ليلة عند منتصف الليل، كان يُخرج الساكسفون لبدء جلسة تدريب جديدة كعازف مساعد افتراضي في فرقة كُون-ساندرز. ثم بدأ تشارلي يحمل ساكسفونه معه طوال اليوم، مستعداً للتدريب في أية فرصة تتاح له. قد كان لديه صديق يتعلم العزف على آلة البانجو بين الحين والآخر، وعندما يكون المساء دافئاً، كان الثنائي يستقلان الترام إلى حديقة سووب الواسعة جنوب المدينة، ويستأجران قارباً من المرفأ، ويبدأن جلسة عزف على البحيرة. وفي غضون بضع سنوات، كان رصيد تشارلي نحو ثلاثمائة أغنية.

وقد بدأ تشارلي في جني المال تماماً كما تخيل. ولاقى فرق تشارلي المؤقتة نجاحاً كبيراً في حفلات الرقص المدرسية. إذ كان الأطفال يتغاضون عن بعض النشاز في النغمات مقابل الأداء المفعم بالحيوية للأغاني الشعبية. في عام 1923، كانت الأغنية الرائجة هي قطعة موسيقية ذات إيقاع حيوي حاد تُدعى «The Charleston» للملحن الأمريكي الأفريقي البارز جيمس بي. جونسون. أحدث هذا اللحن جنوناً بالرقص باستخدام حركات تم ابتكارها في ولاية كارولينا الجنوبية، لكن تشارلي والأولاد كانوا يجيدون أيضاً عزف موسيقى رقصة الفوكستروت وحتى رقصة الفالس بشكل جيد. كانت مهارتهم جيدة بما يكفي للحصول على عمل لمدة أسبوع كامل في مسرح ماين ستريت في وسط المدينة.

كانت تلك فترة رائعة للشباب في مدينة كانساس؛ المدينة، التي أطلق عليها الكاتب ويستبروك بيجلر لقب «باريس السهول»، حيث كانت تدخل عصرًا من الانفتاح والتحرر. كانت عائلة بنديرجاست، وهم مهاجرون إيرلنديون من مناطق الحظائر، تحكم قبضتها على ألتها السياسية من خلال الأعمال الخيرية المستهدفة والتزوير الانتخابي الحثيث والقتل من حين لآخر. ربما كانت المناطق بين ممفيس وشيكاغو والنقاط البعيدة غرباً متزمتة ومتحفظة، ولكن في كانساس تحت قيادة توم بيندرجاست، لم تتوقف الحفلات أبداً. وقد أوضح كاتب زائر من أوماها في تقرير فضائحي جعل السياحة تزدهر: «إذا كنت ترغب في

عيش التحرر الحقيقي، فتجاهل باريس واذهب إلى كانساس». كانت كانساس مكانًا تحدث فيه الأمور الكبيرة بسرعة. فقد قام المطور جيسي كلايد نيكولز بتحويل مزارع الأبقار الشاسعة جنوب المدينة إلى مجمع يضم قصورًا فخمة ومنازل راقية للعاملين في البنوك، والمحامين والتجار، وصُناع الملابس وسماصرة الحبوب ومشغلي السكك الحديدية ومُصنعي اللحوم، والمهندسين وأباطرة الأخشاب ومالكي المصانع. قام نيكولز بتخطيط شوارع ومسارات، بالإضافة إلى ملاعب جولف وملاعب بولو. كما أنشأ أول مركز تجاري مخصص للمشاة في البلاد، وأطلق عليه اسم «كانتري كلوب بلازا»، وزينه بتمائيل أوروبية، ونوافير متدفقة، وبرج مستوحى من دار عبادة إشبيلية.

لم يكن يُرحب بالأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في الأحياء التي أنشأها نيكولز والتي تنسم بضيق التفكير، إلا أن مجتمعهم شهد أيضًا ازدهارًا ملحوظًا. لقد ازدهر نسل العبيد السابقين، في الجانب الشرقي من كانساس، الذين جذبهم الحراك الكبير من المزارع في الجنوب، فمثلًا افتتح هنري بيري؛ وهو طباح سابق على زوارق النهر من ولاية تينيسي، مطعمًا للحوم المدخنة في مستودع ترام قديم، ليؤسس بذلك ثقافة الشواء الشهيرة في مدينة كانساس. في عام 1920، اجتمعت مجموعة من رواد الأعمال من جميع أنحاء البلاد في جمعية الشبان في الجانب الشرقي لتنظيم دوري محترف للبيسبول لذوي البشرة السوداء، وسرعان ما أصبحت فرقة كانساس سيتي موناركس قوة بارزة في الدوري. ففي تلك السنوات، كان بإمكان الشخص أن يقف في الشارع الثامن عشر وشارع فاين ويشاهد أبرز الشخصيات في حياة الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية تمر من هناك، حيث جاء الجميع لزيارتها (وبعضهم جاء للإقامة): مثل اللاعب ساتشيل بايج، والمغنية ماريان أندرسون، والرسام الجداري هيل وودروف، ورائدة الأعمال إيفا مانلي، والمؤلف جيمس ويلدون جونسون، والملحن ديوك إلينجتون. أما روي ويلكينز، وهو الكاتب والمنظم السياسي الذي قُدِّر له أن يقود الجمعية الوطنية للنهوض بأوضاع الملونين NAACP خلال حركة الحقوق المدنية، فقد غطى المشهد ككاتب شاب في صحيفة كانساس سيتي كول المؤثرة.

كانت مدينة تشارلي محطة على الطريق بين الحياة الريفية والمستقبل لعدد لا يحصى من الشباب الحالمين. وقد صرح مؤسس ديزني لاند بأنه استوحى فكرة ديزني لاند من مدينة الملاهي المتلاثلة جنوب وسط المدينة (إلكتريك بارك)، فقد كان والت ديزني واحداً من الآلاف من الزوار المبهورين القادمين من المدن الصغيرة الذين شهدوا لوحات بشرية تتشكل من نوافير متألقة على منصة هيدروليكية سحرية. درس والت ديزني الحداثك التي تم الاعتناء بها بعناية والتي تحيط بألعاب الكرنفال، وركب القطار المصغر الذي يدور حول الحداثك، وانبهر عندما تحول الليل إلى عالم مليء بالأضواء اللامعة والألعاب النارية المدوية.

وصلت المراهقة القادمة من شرق نبراسكا؛ جويس كلايد هول، إلى محطة يونيون ومعها صندوقان من البطاقات البريدية لتبيعهما. وكان هذان الصندوقان الأساس لإمبراطورية «هولمارك» لبطاقات المعايدة وأوراق التغليف، كما بدأت مراهقة أخرى من ريف كانساس، وهي نيل كوينلان، في خياطة فساتين منزلية ذات لمسة أنيقة. وقد أصبحت شركتها لسنوات عديدة أكبر مُصنِّع للفساتين في العالم.

تلك كانت حال مدينة كانساس بعد الحرب العظمى؛ تجمع ما بين أفضل الأوقات وأسوأها، كما يمكنك أن تقول. كانت كانساس أرضاً للحالمين وحظيرة للفساد وجماعة كو كلوكس كلان. كما وصف ديكنز الثورة الفرنسية، وفي الواقع، جميع الأماكن والأزمات، فإن فصول النور والظلام تداخلت في تقويم واحد، حيث كان على كل فرد أن يسعى للعثور على طريقة شريفة للعيش. لكن تشارلي راهن على النور: «إذا كنت سلبياً، سينتأثر جسمك بالكامل. فالشخص السلبي ينهار؛ لحرمانه الغذاء الذي يقدمه التفاؤل». المتفائلون مثل تشارلي لا ينكرون الظلام. لكنهم يرفضون الغرق فيه، أو الاختباء منه، أو الاستسلام له.

2

كان عددٌ من أصدقاء تشارلي من المدرسة الثانوية قد أصبحوا طلابًا في ذلك الوقت في جامعة كانساس في مدينة لورنس المجاورة غرب كانساس. كما التحق آخرون بجامعة ميزوري التي تبعد بضع ساعات في الاتجاه المعاكس. وقد زار تشارلي منزل أخوية فاي كبا ساي في كانساس باختياره الخاص، حيث دعاه الإخوة للانضمام إليهم في جولة غنائية في صف أخوية الفتيات. وبعد مرور تسعين عامًا مازال يتذكر الفتيات وهن يشرن ويضحكن عندما توقف أحد المغنيين للتبول في الشجيرات (حتى في ولاية كانساس «الفقيرة» التي كانت موطئًا لحملة «كاري نيشن» المناهضة للكحول، كان حظر الكحول قد فشل بالفعل) في نهاية المطاف، تأثر تشارلي بمثال أكثر اتزانًا، وهو تشارلز باركر زميله في مدرسة يوم الأحد الدينية الذي كان متجهًا للحصول على منحة رودس في ولاية ميزوري.

كان باركر عضوًا في أخوية بيتا ثيتا باي، حيث انضم تشارلي إلى صف المستجدين بعد فترة قصيرة من التحاقه بجامعة ميزوري في عام 1924. كانت أسوأ لحظات التحدي، كما أوضح لي بعد وقت طويل، عندما أمره أعضاء الأخوية هو وتسعة عشر من زملائه الجدد بإطفاء نار المدفأة، بواسطة بصر الماء عليها. كانت إمدادات الماء تقع على ارتفاع طابقين من السلالم. وكان على المستجدين أن يمشوا منحنيين طوال الطريق. صعودًا وهبوطًا، وصعودًا وهبوطًا، بينما كان الطلاب الأكبر سنًا يضحكون ويصبون الماء في أفواههم عند قمة الدرج. قال تشارلي متذكرًا: «تمكنا أخيرًا من إطفاء النار، لكن في اليوم التالي لم نستطع الذهاب إلى الصف؛ لأننا قضينا وقتًا طويلًا في المشي منحنيين على تلك الدرجات، لدرجة أن أرجلنا أصبحت متيبسة تمامًا».

وواصل قائلاً: «في أسبوع الجحيم، كان أعضاء أخويات الطلاب يضربون الشباب بالعصا. كانوا يقومون بأبشع الحيل القذرة. أي شيء شيطاني يمكنهم التفكير فيه، كانوا يفعلونه بك. أتذكر أنهم أخذوني في الليل إلى نحو عشرة أو خمسة عشر ميلًا خارج المدينة إلى مقبرة، وقالوا لي: عليك أن تجد اسم هذا الشخص وتاريخ وفاته، ثم تركوني. وكنا في منتصف الليل. كان عليّ أن أسير في أنحاء المقبرة بمفردي، وأبحث في شواهد القبور للحصول على اسم هذا الشخص، ثم أعود سيرًا إلى المدينة. لا أتذكر بالضبط، لكنني أظن أن

المسافة لم تكن خمسة عشر ميلاً. ربما كانت على بُعد ميل واحد فقط من المدينة، لكن بالنسبة لي بدت كأنها خمسة عشر ميلاً».

ولقد أحب تشارلي الحياة مع أعضاء أخوية بيتا بقدر ما أحب أخويته في المدرسة الثانوية. بعد التحديات التي واجهها في الكلية التمهيديّة، وجد أن الجامعة كانت سهلة بالمقارنة. كانت دراسته تتيح له وقتًا كافيًا للموسيقى، فكان يحتفظ بكتاب دراسي بجانب مقعده أثناء الأداء، ويدرس بين الفقرات، وفي الوقت المتبقي، كان يتجول ويمرح مع الأصدقاء.

فصول من الظلام: العالم نفسه الذي رحب بتشارلي كان يمكن أن يكون خطيرًا بشكل قاتل للأمريكيين ذوي الأصل الأفريقي، فقبل عام من وصول تشارلي إلى ميزوري، اقتيد عامل نظافة متهم بالاعتصاب من زناناته في السجن عنوة بأيدي حشد من السكارى وأعدم على جسر قريب. في الفترة نفسها تقريبًا، تعرض أستاذ في قسم علم الاجتماع للهجوم؛ لأنه أنكر في محاضرة صحة نظرية «الأعراق النقية» -التي كانت مقدمة فكرية للهولوكوست القادم.

فبالنسبة لتشارلي، وكما كانت الحال بالنسبة لمعظم الطلاب، كانت تلك القضايا بعيدة كل البعد عنهم. كان يشغل باله بأمور أقل أهمية، مثل عدم وجود جسر يربط كولومبيا بجانب مدينة كانساس على نهر ميزوري. فإذا انطلقت مجموعة صاخبة من الطلاب إلى الغرب بحثًا عن التسلية، قد يفوتهم بسهولة آخر قارب عائد. تذكر شارلي أنه وصل إلى نقطة العبور متأخرًا في إحدى الليالي، واضطر إلى قضاء الليل في سيارته خلال عاصفة ثلجية.

بعد أن قضى تشارلي عامًا مريحًا في الجامعة، أصبح مؤهلًا للتقديم في كلية الطب في ميزوري. كانت العملية تختلف كثيرًا عن سلسلة الاختبارات والطلبات والمقابلات التي نراها اليوم. كان بإمكان الطلاب الحاصلين على شهادة التعليم العام أن يتقدموا للتدريب الطبي كطلاب جامعيين من مستوى أعلى. يتذكر تشارلي: «كل ما كان عليك فعله هو إرسال الأوراق المطلوبة».

كانت فكرة أن يصبح طبيبًا قد نمت في ذهنه على مائدة والدته في مسكن الضيوف الإضافي، حيث كان تشارلي مفتونًا بقصص الأطباء التابعين لدار العبادة. وكبر حلمه عندما تزوجت إحدى شقيقاته من طبيب.

من الطبيعي أن تنظر أحيانًا إلى هدف ما وتفكر في أنه قد لا يمكن تحقيقه. لكن السر يكمن في تجاهل كلمة «لا». كان يمتلك تشارلي موهبة التجاهل. وقد تزامن تعليم تشارلي كطبيب مع بداية عصر الطب الحديث، أي بين عصر الأدوية القديمة وعصر تسلسل التركيب الجيني. ولكي يتقدم الطب نحو المستقبل، كان عليه أن يتجاوز الماضي. وقد تعلم تشارلي ذلك في زمن ما قبل المضادات الحيوية، أي في زمن لم تكن فيه الأمراض القلبية والسرطان من الأسباب الرئيسية للوفاة في أمريكا. كانت هذه الأمراض تقتل في الغالب كبار السن، وعندما كان تشارلي طالبًا، لم يكن معظم الناس يعيشون حتى سن الشيخوخة. كان معظمهم يموتون بسبب الأمراض الفيروسية والجرثومية التي طالما لاحقت البشرية، والتي كانت لا تزال غير مفهومة جيدًا وغير قابلة للعلاج. كانت نسبة وفيات الأطفال عالية بشكل كبير، حيث كانت تنهي حياة واحد من كل خمسة أطفال في الولايات المتحدة قبل بلوغهم سن الخامسة، أما العلاجات الجراحية، ففي أفضل حالاتها كانت بدائية، ونادرًا ما كانت تنجح على المدى الطويل. وكان دور الفيتامينات والهرمونات في الكيمياء البشرية مجرد خيال في أذهان العلماء، ولم يكن هناك أي تنظيم أو فهم منهجي له.



كان آرثر هيرتزلر هو أشهر طبيب في كانساس عندما كان تشارلي طالبًا. تدرب هيرتزلر في علم الأمراض على يد أبرز العلماء الأوروبيين، ثم أسس مستشفى بالقرب من مدينة ويتشيتا، وعمل على نطاق واسع في المناطق الريفية في كانساس، حيث كان يسافر إليها بانتظام للتدريس، وحتى هيرتزلر، والذي كان مثلاً لممارسة الطب في أوائل القرن

العشرين، وصف شعورًا مزعجًا بالعجز في مذكراته. كتب هيرتزلر أن المساهمة الرئيسية للطبيب تكمن في سلوكه مع المرضى. فبعد أن شهد العديد من الأمراض، كان الطبيب المُدرَّب قادرًا على تمييز المرضى الذين يُحتمل أن يتعافوا عن أولئك الذين من المحتمل أن يموتوا قريبًا. كان أسلوب الطبيب في التعامل مع المرضى والعائلات قادرًا على تسريع عملية الشفاء أو الاستعداد للموت المحتم. أما بالنسبة لمواجهة آثار الأمراض، فقد كتب هيرتزلر: «لا أستطيع أن أفكر في مرض واحد تمكن الأطباء من علاجه فعليًا خلال تلك السنوات الأولى. كل ما كان الأطباء يعرفونه هو كيفية تخفيف الألم، وتجبير العظام، وخياطة الجروح، وفتح الدمامل لدى الصبية الصغار».

في غياب العلاجات، كان المرضى يلجأون إلى الدجالين والمحتالين. فقد كان مجال الطب عندما دخله تشارلي، ومن كثير من النواحي، عبارة عن سيرك من عدم الكفاءة الصارخة. نشرت الصحف في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ما أسمته «مقالات إخبارية»، وهي التي لا يمكن تمييزها عن المقالات الفعلية من حيث الأسلوب أو المظهر، لكنها كانت في الواقع إعلانات عن منشطات غير مرخصة تحتوي على الكحول أو المخدرات. كانت هذه العقاقير المسببة للإدمان تدعي أنها تعالج أمراضًا تتراوح بين تساقط الشعر والسرطان، والنقرس والسيلان، وانتفاخات البطن وأمراض القلب.

كان أكثر الدجالين إثارة يجمعون بين سوء الممارسة والشهرة الجماهيرية، وقد ازدهروا في الغرب الأوسط، ومنهم إي. فيرجيل نيل من مدينة سيداليا في ميزوري على سبيل المثال. قام نيل ببناء إمبراطورية بطلب المنتجات بالبريد، حيث كان يروج لأقراص لزيادة الطول، وزيادة حجم الثدي، والتخلص من جميع أنواع الأمراض غير المشخصة. وقد أطلق على مكونه المعجزة اسم «الحديد المنقى» (وهو نوع من الحديد المستخدم في المكملات) يحتوي على آثار من مادة الإستركنين شديدة السمية، وكان رائدًا في مجال التسويق باستخدام مشاهير الرياضيين كدعاة لمنتجاته، حيث روج لاعب البيسبول تاي كوب والملاكم جاك ديمبسي لقدرات الحديد المنقى.

هناك دجال شهير آخر هو نورمان بيكر من مدينة موسكاتين بولاية أيوا، فبعد أن أطلق محطته الإذاعية الخاصة به في عام 1925، صنع بيكر مزيجًا سأمًا من نظريات المؤامرة والأدوية المرخصة: زيت التربنتين لعلاج مرض الكزاز (التيتانوس) الذي يسبب تيبس الفك، وكمادات البصل لعلاج التهاب الزائدة الدودية، ومسحوق غامض لعلاج أورام المخ. وأصر على أن الأطباء المرخصين كانوا فاسدين، وأن أطباء الأطفال يتحرشون بالأطفال، وذلك حسبما قال بيكر عبر موجات الأثير. بل قال إن الاختصار «M.D» وهو اختصار في الإنجليزية لـ Medical Doctor يعني «طبيب»، كان في الواقع يعني More Dough، وهي عبارة مجازية تعني «كسب المال».

في عام 1929، صادف بيكر أحد أعمال الدكتور تشارلز أوزياس من مدينة كانساس، والذي كان قد ابتكر مصلًا سرّيًا وعد بأنه سيعالج السرطان إذا تم حقنه في الأورام. وقد روج بيكر للعلاج في برنامجه الإذاعي، وسرعان ما أصبح يدير عيادة لعلاج السرطان تضم مائة سرير. كما روج لـ«علاج» آخر أيضًا أعده هاري هوكسي القادم من ولاية إلينوي من وصفة عائلية قديمة. وعندما تم الضغط عليه بشأن تركيباته الدوائية في إحدى جلسات المحكمة، اعترف بيكر بأنه كان يخلط البرسيم وحرير الذرة وبذور البطيخ في الماء، تمامًا كما نصحه هوكسي.

في النهاية، انتقل بيكر مع مشفاه وجمهوره الإذاعي وبذور بطيخه إلى فندق فيكتوري ضخم على قمة تل في بلدة يوريكا سبرينجز في أركنساس. وهناك، قام بطلاء الردهة باللون الأرجواني لتتناسب مع لون سيارته الليموزين وجّهز مكتبه بزجاج مضاد للرصاص. وعزل أحد أجنحة الفندق بعازل للصوت حتى لا يتمكن المرضى الجدد من سماع أنين المرضى -الذين تم الاحتيال عليهم- وهم يحتضرون.

أما جون رومولوس برينكلي، الذي كان محتالًا أكبر وأشهر، فكان يدير محطة إذاعية وعيادة في ميلفورد في كانساس. كان برينكلي -الحاصل على رخصة في «الطب الانتقائي» أيًا كان ما يعنيه ذلك- يستخدم أية علاجات يجدها: المشروبات العشبية، أو

الاقْتباس من اختصاصي العلاج اليدوي، أو أطباء العظام، أو أطباء العلاج التجانسي، أو المعالِجين الغريبين. وكان إنجازُه المميز هو فكرة زرع خصيتي ما عَزَلدى الرجال العاجزين جنسيًا، حيث أكد برينكلي أن «عمر الرجل من عمر غدده».

بنى برينكلي قاعدة جماهيرية كبيرة - وهي من بين كبرى قواعد الجماهير الإذاعية في البلاد، من خلال مزجه لعروضه الترويجية لـ«علاج غدد الماعز» مع خطب متشددة وتصريحات ضد النخبة وقصص ما قبل النوم للأطفال. امتلأت مدينة ميلفورد الصغيرة بالرجال القادمين من جميع أنحاء البلاد المستعدين لدفع 750 دولارًا مقابل زراعة خصي الماعز. وقد تزايدت الأعداد مع اكتشاف برينكلي لتطبيقات جديدة لعملياته الجراحية لزراعة الأعضاء بين الأنواع المختلفة؛ إذ كان يزعم أن خصي الماعز تعالج مرض السكري، وارتفاع ضغط الدم، والصرع، والصمم، والشلل، والعقم عند النساء، والسمنة، والخرف.

وقد تم استهداف كل من بيكر وبرينكلي من الجمعية الطبية الأمريكية - حيث وصف برينكلي منظمة الأطباء بأنها «جمعية الجزائريين المتحدة». بعد أن تعرضا للملاحقة في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين، قاما بإنشاء محطات إذاعية جديدة أقوى بعشر مرات مما يسمح به القانون الأمريكي في بلدة فيلا أكونا الحدودية بالمكسيك. كان السياج ذي الأسلاك الشائكة في المنطقة يهتز من شدة الإشارات القوية. ومع أنه قد شاع أن كليهما كان يحقق ملايين الدولارات سنويًا في أوج فترة الكساد الكبير، لم يستطع أي منهما مقاومة العودة إلى الولايات المتحدة للترشح للمناصب العامة. خسر نورمان بيكر في السباق للفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي في ولاية أيوا، بينما فشل برينكلي في حملة ترشحه لمنصب حاكم ولاية كانساس.

كان هذا هو مدى انتشار الممارسات الاحتياالية التي كان يسعى تعليم تشارلي الطبي إلى كبحها. لكن عندما سنحت لي الفرصة لمراجعة ملاحظات تشارلي الدراسية المحفوظة جيدًا، أدهشني مدى ضعف الدعم الذي ناله. فقد كان طلاب الطب في عشرينيات القرن العشرين يتعلمون أسماء وأعراض مئات الأمراض والاضطرابات، لكن العلاجات التي

تعلموها نادرًا ما كانت كافية لعلاج الأمراض التي يدرسونها. سواء أثناء دراسة الجروح والسل مع الدكتور بوشبايندر، أو الجراحة مع الدكتور شراجر، أو علم الأعصاب مع الدكتور بولوك. وسواء كان الموضوع هو مرض الزهري أو لدغات الثعابين، أو الأورام الأنفية أو الإسهال، فقد كانت المشكلة لا تتغير: عدم وجود علاجات فعالة.

على سبيل المثال، تعلم تشارلي العلاجات المحتملة التالية للسيلان: مرهم نترات الفضة، والحقن الوريدية بالميكروكروم، والحقن العضلية بالحليب المعقم، وتدليك غدة البروستاتا. كان يُوصى بإزالة اللوزتين كعلاج لـ«الروماتيزم، وأمراض القلب، ومشاكل المفاصل، وأمراض العيون، والأذنين، والكلى، وأمراض الجهاز الهضمي وغيرها»، ويُوصى باستخدام الكوكايين في محلول رذاذ لعلاج نزلات البرد. وهكذا فليس من المستغرب أن الكثير من المرضى كانوا عرضة لجاذبية المعالجين عبر الراديو الذين يروجون لنظريات المؤامرة حول الأطباء الذين يستهدفون إبقاء المرضى في حالة المرض. وقد اعترف تشارلي بعد وقت طويل: «كل ما كان يمكننا فعله هو الجلوس بجانب مرضانا والدعاء بنجاتهم».

بالطبع، لم يكن تشارلي الطالب الرزين أو الرصين. كان مدرس التشريح الخاص به هو إدجار ألين، عالم الكيمياء الحيوية الشهير الذي حفر اسمه في التاريخ الطبي من خلال عزل هرمون الإستروجين الأثوي وتوثيق آثاره. وكان الطلاب منبهرين بإنجازات ألين، وكذلك بمهاراته كريان للمراكب الشراعية. ومع ذلك، فحتى سمعة ألين لم تكن كافية للحد من شهية تشارلي للمشاهدة. تذكر تشارلي: «في إحدى الليالي، أخذنا جثة أحد القرود التي استخدمها في دراساته عن الإستروجين. وقمنا بطهي دماغ ذلك القرد وتذوق كل منا طعمه»، ثم أضاف بعد لحظة من التأمل: «كان طلاب الطب في تلك الأيام جامحين بحق ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم».

كانت المرحلة الأبرز في تعليمه الجامعي هي دورة شاقة عن علم الأمراض قدمها الدكتور ماركوس بينسون نيل، والتي بدأت بالنسبة لتشارلي في الأول من فبراير عام 1927. كان نيل رجلًا هادئًا الطباع من الجنوب، نشأ في ألاباما وتلقى تعليمه في فيرجينيا، ويتميز

بوجه طويل أرسقراطى وىرتدى نظارة صغىرة العوىنات بإطار فولاذى. وصل تشارلى إلى قاعة المحاضرة ومعه نحو مائى صفحة جدىة من أوراق دفتر الملاحظات ذات الخطوط الضيقة فى دفتره المجلد بالقماش، وما إن جلس فى مقعده حتى بدأ قلمه يسرع لكتابة كل ما يسمعه. ووفقًا لعناوین دفتر ملاحظات تشارلى، بدأ نیل بشرح «تارىخ وتعریف» علم الأمراض، وهو دراسة الأمراض، وسرعان ما انتقل إلى مواضیع، مثل «المسببات، والتغیرات فى الدورة الدمویة، والتغیرات الارتجاعیة، والتشوهات والاضطرابات، والالتهابات، والسوموم، والوفیات المفاجئة، والأمراض المعدیة والعامة، والأورام، والأعضاء المنتجة للدم، والجهاز الدورى، والعقد الیمفاویة، والطحال، والجهاز التنفسى، والجهاز الهضمى، والبنكریاس، والكبد، والأعضاء البولیة، والأعضاء التناسلیة الذكریة، والأعضاء التناسلیة الأنثویة، والعضلات، والعظام، والمفاصل والجهاز العصبى» — وكل ذلك فى أربعة أشهر محمومة وصولًا إلى امتحان نهائى صارم.

دون تشارلى ما یقرب من أربعمائة صفحة من الملاحظات التفصیلیة التى تصف الأعراض والعلاجات والتوقعات لكل مرض وإصابة معروفة، وذلك بخط دقیق وأنیق فى كل صفحة من صفحات الدفتر من الأمام والخلف. شرح نیل كیفیة أخذ التارىخ المرضى للمریض. وقدم نصائح حول الطریقة المناسبة لإجراء الفحص العام، (مع التركيز بشكل خاص على كیفیة إجراء الفحص الشرجى على «المریض المتوتر الثقلىدى»).

تعلم تشارلى كیفیة معالجة الجروح. («فى حالة الجروح الدهنیة، استخدم زیت التربنتین أو البنزین لإزالة الدهون بالإضافة إلى اعتبارهما عاملى تعقیم.») وتعلم كیفیة استئصال الدمامل وتصریفها، وكیفیة إزالة الدملى الأكثر خطورة وهو الخُراج. بالنسبة للعدوى، فقد تم تدريبه على وصف العلاج بأشعة الشمس. أما بالنسبة لعلاج الجلطات، فقد تعلم أن یوصى بشهر كامل من الراحة التامة فى الفراش. تعلم تشارلى أيضًا تقديم القهوة للمرضى الذین یعانون الصدمة، والتحامیل الأفیونیة للمرضى الذین یعانون البواسیر، كما كان الزئبق، وهو عنصر شدیة السمیة، العلاج المفضل لعدد كبیر من الأمراض. وقد تم تشجیع تشارلى وزملائه الطموحین ممارسى الطب العام على استكشاف علم المناعة من خلال تحضير

«اللقاحات ذاتية التولد» لعلاج مجموعة متنوعة من الأمراض. لم تكن الطريقة معقدة، كما لم تكن فعالة جدًا، فقد تم تعليم أطباء المستقبل كيفية استخراج المواد المصابة من عضو مريض أو جرح، ثم مزجها في محلول، ثم يتم حقن المزيج النهائي مرة أخرى في جسم المريض على أمل تحفيز الاستجابة المناعية.

وقد استوعب تشارلي بمرور الأسابيع الشاقة رؤى المهنة التي اختارها، بالإضافة إلى الأخطاء والقصور فيها. عندما انتهى البروفيسور نيل من محاضراته الأخيرة، قام تشارلي بمراجعة دفتر الملاحظات الضخم بدقة استعدادًا للاختبار النهائي. في النهاية، أصبح دفتره عبارة عن خلاصة وافية إرشادية لذلك الممارس العام، حيث احتوى على الأقل على وصفة طبية بسيطة لكل حالة طبية كان يُحتمل أن يراها، من الإمساك إلى السرطان إلى السيلان؛ ومن العظام المكسورة إلى السل إلى اليرقان عند الرضع.

كان يسدد فواتيره من خلال دفعات شهرية صغيرة تصله من مسقط رأسه فضلًا عن الأموال التي كان يكسبها من عزف الساكسفون. أخبرني: «كنت مشغولًا كل يوم جمعة وسبت»، مشيرًا إلى الحفلات الراقصة الطلابية التي لا تنتهي. «وحتى بعد ظهر أيام الجمعة، كنت أعزف في حفلات الشاي في أخويات الفتيات. أعتقد أنني كنت أعرف الجميع في القسم اليوناني في المدرسة - كان من المنطقي أن أكون أكثرهم معرفة بجميع أخوية الفتيان والفتيات؛ لأنني كنت أعزف في حفلاتهم، كما تعلم».

واختتم كلامه بطريقة تجسد روح تشارلي: «كانت حياة رائعة».



في يوم التخرج في عام 1927، حصل تشارلي على شهادته الجامعية في الطب من جامعة ميزوري. كان في الحادية والعشرين من عمره. لأسباب لا يتذكرها بفعل مرور الزمن، لم تتمكن والدته من حضور الحفل، لكنها أرسلت رسالة عوضًا عن ذلك.

هناك الكثير مما أعجبت به في لورا وايت. لقد انهار عالمها بوفاة زوجها المبكرة، ومع ذلك وجدت العزيمة والإصرار على دعم أسرتها الكبيرة. كان تشارلي يعشقها. لم يمض وقت طويل على صداقتنا قبل أن يخبرني تشارلي بفخر بأنها حصلت على لقب «الأم المثالية للعام» بفضل مهارتها في الموازنة بين العمل والإيمان وتربية الأبناء. لكن بمعايير اليوم، قد تبدو بتصرفاتها مَهْمَلَة لأبنائها إلى حد ما. فتربيتها تتلخص، بحسب ذاكرة تشارلي، في نصيحة واحدة شاملة: «افعل الصواب فحسب». وتبدو هذه البساطة مختلفة تمامًا عن أسلوب التربية المتطفل الذي يتبعه الآباء في جيلي، إذ تنبع أخطائي في التربية (وقد ارتكبت الكثير منها) من التدخل الزائد وليس الإهمال الحميد.

كان إيمان لورا وايت بابنها في فعل الصواب، وثقتها في قدرته على التصرف بذكاء، قد ساعدها على تعزيز ثقته بنفسه بشكل قوي. يمكنني أن أرى ذلك الآن؛ فالأطفال بحاجة إلى مساحة لاتخاذ قراراتهم الخاصة، وتعلم دروسهم، وتحمل عواقب أفعالهم، ثم النهوض مرة أخرى. ربما يكون الدرس الأصعب بالنسبة للآباء والأمهات الذين يبالغون في حماية أبنائهم اليوم هو أن لورا وايت ربت ابنها كما لو كان العالم مكانًا آمنًا ويمكن التحكم فيه إلى حد كبير. لقد فعلت ذلك على الرغم من الحادثة المروعة التي أودت بحياة زوجها. وقد اكتسب تشارلي من خلالها الإيمان بأن الأمور ستسير على ما يرام.

فهمت ذلك بشكل أفضل بعد وفاة تشارلي. فكان من بين أغراضه الرسالة التي أرسلتها لورا بمناسبة يوم تخرجه، والتي سعت فيها إلى أن تكون الأم والأب لشاب يحتاج إلى كليهما، فكتبت:

ابني الحبيب

أشعر بأن عليّ أن أرسل لك رسالة حب صغيرة في يوم تخرجك هذا، بما أنني لا أستطيع أن أكون معك شخصيًا، لكنني واثقة أنك تشعر بأن أعرق مشاعر حب والدتك وأصدق تمنياتها موجودة معك، وأن هذا اليوم هو مصدر فخر وسعادة لها. كنت أفكر كم كان والدك سيكون فخورًا بك في هذا اليوم من حياتك. لطالما قال إنك يجب أن تحصل على تدريب جامعي،

وأعتقد أنك تعلم يا عزيزي أنه إلى جانب آمالي وأحلامي الخاصة بك، فقد حملت في قلبي آمانيته بأن تكون مستعدًا ومهيأً لتحقيق أفضل ما يمكن في حياتك. كانت لديه أهداف وطموحات كبيرة لولده الصغير، ويقال إن أي أب صالح يريد لابنه أن يصبح الرجل الذي كان يأمل أن يكونه. كنت فخر حياته منذ اللحظة التي وضعتك فيها الممرضة بين ذراعيه، وحتى لحظة رحيله.

لقد كنا ندعو الله - أنا وهو يا حبيبي - أن تعيش حياتك، وتواجه تحدياتها، وتستفيد من كل يوم فيها لتحقيق السعادة لك ولمن يحبك ويؤمن بك. لقد اخترت مهنة نبيلة، طريقًا رفيعًا لخدمة الآخرين، وستظل مخلصًا لأعظم تقاليدنا. تذكر أنه في كل مهنة كما في كل حياة: هناك الطريق السامي والطريق الدنيء، البعض يسلكون الطريق السامي أما البعض الآخر، فإنه يتبع الطريق الدنيء، بينما يتخبط البقية بين الطريقين في ضبابية وعدم استقرار.

يصعب التعبير عن أعرق مشاعر قلبي تجاهك، ولكنني متأكدة أنك تعلم أنني أحبك، وأؤمن بك، وأفرح بك، وأدعو لك أن يأتيك الخير الذي فيه مصلحتك. أشكر الله الذي منحني هذا الابن العزيز الغالي. قد لا يكون هذا اليوم يومًا مميزًا بالنسبة لك الآن، لكنه في المستقبل سيصبح كذلك، أكثر وأكثر.

وقد اعتز تشارلي بتلك الكلمات لسبعة وثمانين عامًا. كثيرًا ما أشار إلى نبرتها الدافئة الاستثنائية مع مرور العقود. وكانت هذه الرسالة بجانبه عندما فارق الحياة. كانت والدته تؤمن به وتفرح بنجاحه، وقد سلك تشارلي الطريق السامي كما كانت تأمل.

وعاش حياة مزدهرة.

السابع

كان تشارلي في المرحلة بين الطفولة والرجولة، على الحدود الغربية للمراهقة، عندما بدأ لاييل ويلتس يأتي إلى منزل شارع كامبل ليتودد إلى أخت تشارلي الكبرى. كان هناك شيء جذاب للغاية في شخصية ويلتس، فلم تكن أخت تشارلي وحدها هي من وقع تحت تأثير جاذبيته، بل تشارلي نفسه أيضًا.

كان ويلتس أكبر من تشارلي بتسع سنوات، وهو فارق كبير في تلك المرحلة من الحياة، خاصة بالنسبة لصبي من دون أب يحتاج إلى قدوة ليحتذي بها. تتجلى أهمية تلك الصداقة والقدوة في حقيقة أن تشارلي بدأ في بناء مستقبله استنادًا إلى نموذج صهره الأكبر. فقد كان ويلتس طبيبًا شابًا، ما جعل تشارلي يعتقد أنه يمكنه أن يصبح طبيبًا أيضًا. كان ويلتس قد تخرج في كلية الطب في جامعة نورث ويسترن في شيكاغو؛ لذا مع اقتراب نهاية مسيرته الجامعية، بدأ تشارلي يتطلع أيضًا إلى الالتحاق بجامعة نورث ويسترن. ولكن خاب أمله عندما رفضت الجامعة طلبه.

وكان ما حدث بعد ذلك يعد تجسيدًا لشخصية تشارلي وايت؛ فقد كان الرفض ضربة قاسية، لكنه لم يتركه عاجزًا؛ فخيبة الأمل يمكن أن تتحول إلى تحدٍّ، وإلى فرصة لاختبار قوته وعزمته. استقل قطارًا متجهًا إلى شيكاغو، وتوجّه إلى إيفانستون وحدد موقع مكتب عميد كلية الطب؛ رغم أنه لم يكن لديه موعد مسبق، قدم تشارلي نفسه عند مكتب الاستقبال وجلس ينتظر حتى يأذن العميد بمقابلته.

يمكنني أن أتخيل نظرة الحيرة على وجه العميد عندما أخبره مساعده بأن هناك شابًا من ميزوري يُصر على مقابلته، وقد جلس في غرفة الانتظار ولن يرحل. ويبدو أن الفضول تغلب على العميد، حيث اصطحب تشارلي إلى مكتبه. تحدث تشارلي بسرعة وأوضح

للعמיד لماذا كان استبعاده خطأ. لقد شجعه لایل ویلتس بنصائح تحفيزية، ما جعل تشارلي يشعر بأنه قادر على مواجهة تحديات جامعة نورث ویسترن. وقد ذهب إلى هناك متسلحًا بسجله الأكاديمي في جامعة ميزوري كدليل على اجتهاده. نجح تشارلي في إقناعهم وبالفعل التحق بالجامعة.

تجادلت أنا وأولادي في هذا الشأن. أخبروني بأنه لم يعد أحد يتمكن من التقدم من خلال المقابلات المباشرة فقط. فالبحت عن وظائف، وبناء علاقات مهنية، والسعي وراء الفرص كلها أمور تحدث الآن عبر الإنترنت. حيث تملأ نموذجًا إلكترونيًا، وتنشر سيرتك الذاتية الإلكترونية، ثم تضغط على زر الإرسال وتنتظر مصيرك؛ لكنني لست متأكدًا من صحة ذلك، فالتكنولوجيا تتغير، لكن الناس لا يتغيرون. ستظل اللمسة الإنسانية مهمة دائمًا؛ فالشاب الجاد الذي يتحدث بثقة ويقدم حججًا قوية يظل تأثيره قويًا اليوم كما كان قبل مائة عام. ربما لم يعد بالإمكان أن تقنع بكلماتك المسؤولين للدخول إلى كلية طبية مرموقة؛ لكن يمكنك دائمًا أن تكون أفضل مدافع عن نفسك. لا أحد يمكنه القيام بذلك أفضل منك. بالنسبة لخطر الرفض، فقد سبق لتشارلي أن تعرض للرفض. فكانت زيارته إلى مكتب العميد لا تحمل سوى النتائج الإيجابية.

هناك قصة واقعية عن كريس كريستوفيرسون؛ المغني والممثل الذي أصبح عضوًا في قاعة مشاهير كُتَّاب الأغاني. عندما عاد إلى الوطن من فيتنام عندما كان شابًا، لم يكن يملك شيئًا سوى تدريبه كطيار طائرات مروحية وإيمانه القوي بنفسه. كان يؤمن بأن الأغاني التي كان يكتبها تستحق الاهتمام، ومع ذلك رفض العالم أن يلاحظها. فاستعار مروحية، وطار إلى ضواحي ناشفيل، وهبط في حديقة منزل النجم جوني كاش. عندما خرج كاش ليرى ما يحدث، سلمه كريستوفيرسون ألبومًا من أغانيه.

كان ذلك يعكس روح تشارلي وايت.

جاءت لحظتي التي جسدت فيها روح تشارلي أنا أيضًا عندما كنت في السابعة عشرة من عمري؛ حيث سمعت عن وظيفة لكتابة نتائج المباريات وكتابة قصص قصيرة في ليالي

نهاية الأسبوع في قسم الرياضة بالصحيفة المحلية: دنفر بوست. كان الاتصال برئيس قسم الرياضة لطلب مقابلة أصعب شيء فعلته في حياتي. كنت أشعر بخوف شديد، حيث كان الهاتف معلقًا على الحائط في مطبخنا، وكانت السماعة متصلة بسلك طويل وملتف على بعضه. عندما رفعت السماعة لإجراء المكالمة، شعرت كأنها تزن مائتي كجم. كان كل رقم أدخله في الهاتف يحثني على التوقف والاستسلام.

أجابني صوت خشن، وبصعوبة كنت أتمكن من إخراج الكلام من حلقي. بعد أن تجاهلني المحرر، فقد كنت طالبًا في المدرسة الثانوية يطلب وظيفة في صحيفة في مدينة كبيرة!- كان الاتصال به مرة أخرى بعد بضعة أيام أشد صعوبة، ثم كان الاتصال في المرة الثالثة بمثابة تعذيب حقيقي. لكن المكالمة الثالثة جعلتني أحصل على مقابلة، والمقابلة جعلتني أحصل على الوظيفة، والوظيفة قادتني إلى مسيرتي المهنية.

خيبة الأمل هي أحد تلك العوامل الخارجية الخارجة عن سيطرة الشخص، وبالتالي، بالنسبة للرواقيين، لا تستحق الاهتمام. مع ذلك استطاع تشارلي التحكم في ردة فعله تجاه خيبة الأمل. فقد اختار أن يثابر. كان بإمكانه أن يقدم نفسه بشكل أفضل بكثير مما فعلته طلباته وحدها؛ لذا خاطر بمزيد من خيبة الأمل في سعيه وراء المكافأة التي ينشدها. جاء ذلك اليوم في عام 1927 عندما دخل تشارلي وايت كلية الطب بجامعة نورث ويسترن وهو في الثانية والعشرين من عمره، وشرع على الفور في العمل على الوفاء بوعوده للعميد.

كان كل ما قاله تشارلي لذلك الرجل صحيحًا: لقد كان تشارلي ذكيًا بما فيه الكفاية، ويعمل بجد ويندمج بسهولة مع زملائه في الدراسة، لدرجة أن العميد لم يكن لديه أبدًا سبب للندم على قراره. كان الدليل واضحًا في درجات تشارلي في السنة الأولى. ففي طب التوليد، وهو الفن الطبي لإتمام عملية الولادة بأمان (وما يتصل بها من أمور الصحة الإنجابية): حصل على جيد جدًا.

وفي علم القوانين الطبية: جيد جدًا

وفي علم الأعصاب: جيد جدًا

وفي طب الأطفال: جيد. في الأمراض الجلدية: جيد.. إلخ. هكذا، على الرغم من رفضه في البداية، انتهى به الأمر بتحقيقه أداءً أكاديميًا أعلى بكثير من متوسط زملائه في الصف.

وبحلول ذلك الوقت كانت فترة العشرينيات الصاخبة في أوجها، وكان من الممكن العثور على تشارلي كل ليلة جمعة وسبت مع ساكسفونه على منصة فرقة موسيقية في مكان ما حول المدينة المليئة بالحياة. كانت فرقة «كون-ساندرز نايت هوكس»، وهي مصدر إلهامه الموسيقي، قد نقلت مقرها إلى شيكاغو، وكان من المعروف أنها كانت الفرقة المفضلة لدى زعيم العصابات الشهير آل كابوني. استمر تشارلي في مذاكرة كتبه بين العروض الموسيقية.

وقد عمل أيضًا مرافقًا في سيارة إسعاف المدينة لجني بعض المال الإضافي، وهي الوظيفة التي تعادل عمل مُسعفي الطوارئ الطبية اليوم. في إحدى الليالي الجامحة في شيكاغو في عهد كابوني، تم استدعاء سيارة الإسعاف التي يعمل بها إلى موقع تبادل لإطلاق النار بين العصابات. كان أحد أفراد العصابات ممددًا على الرصيف مصابًا بحالة تسمم حاد بالرصاص، وكانت خطيبته في حالة ذهول وتوسلت إلى تشارلي أن يفعل شيئًا. عندما جثا تشارلي على ركبتيه بجانب رجل العصابة المصاب وفحص نبضه الضعيف، اتضح أنه لا يوجد أمل، فقد كانت بركة الدم تتسع من أسفل منه على نحو يدل على قرب نهايته.

فقال تشارلي: «لن ينجو من دون نقل دم»، رغم أنه في تلك الأيام كان يمكن تلخيص كل ما يعرفه الأطباء عن علم نقل الدم الجديد في بضع بطاقات مفهومة، وقد تبقى مساحة تكفي لكتابة قائمة مشتريات البقالة. أحيانًا كانت عملية نقل الدم تنجح، وفي أحيان أخرى كان الدم الجديد يسبب رد فعل سامًا. كان الباحثون لا يزالون في مرحلة اكتشاف تفاصيل تصنيف فصائل الدم.

عرضت خطيبة رجل العصابات دفع مبلغ كبير مقابل محاولة إنقاذه؛ لذا بحث تشارلي في تجهيزات سيارة الإسعاف، وأخرج أنبوبًا مطاطيًا طويلًا وإبرتين وريديتين. غرس إحدى الإبرتين في ذراعه والأخرى في ذراع الرجل المحتضر، وشاهد تشارلي والفتاة الأنبوب المطاطي، بينما كان يمتلئ بدم تشارلي. لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانت فصيلة دم المريض ومعالجه المحتمل متوافقتين أم لا؛ لأن التجربة المتهورة فشلت في إنقاذ الرجل المصاب.

إلا أن خطيبته المفجوعة تأثرت بالمحاولة، وأوفت بوعدا وأخرجت رزمة من النقود التي كانت مبلغًا سخياً ودستها في يد تشارلي.

كان هذا من حسن حظه؛ لأنه كان لديه بالفعل خطط لاستخدام هذا المال. مع اقتراب العطلة الصيفية، زار تشارلي مؤخرًا مكتب شيكاغو التابع لخط سفن الرحلات البحرية عبر المحيط الهادي مقدمًا عرضًا لتزويدهم بفرقة رقص في رحلتهم البحرية القادمة عبر المحيط الهادي. تم قبول العرض، ولم يواجه تشارلي أية صعوبة في العثور على موسيقيين مستعدين لقضاء الصيف في الإبحار من سياتل إلى اليابان ومنها إلى الصين والعودة. كانت الأجور قليلة، ولكن السفر كان مجانيًا والطعام وثيرًا. الأفضل من ذلك أنه كان معروفًا أن الركاب يمررون القبعة بينهم لتقديم الإكراميات للفرقة في نهاية كل رحلة. لم يلتفت تشارلي إلى التفاصيل المتبقية إلا بعد تأكيد العرض: مثل تكلفة تذكرة القطار من شيكاغو إلى سياتل. كان الآن، وكأنما استُجيب دعاؤه، يحمل رزمة من النقود ما زالت دافئة من يد صديقة الرجل المتوفى. كان المبلغ أكثر من كافٍ لتغطية تكاليف رحلته.

2

احتفظ تشارلي بمذكرات عن تلك الرحلة، وكانت لا تزال بين أغراضه عندما توفي بعدها بأكثر من خمسة وثمانين عامًا. كتب قبل أن ينطلق كلمات بضع عشرات من الأغاني التي

أعجبته - معظمها أغان هادئة وعاطفية - في الصفحات الأولى. كان دفتره يحمل مجموعة من الأغاني المشهورة على الراديو وعلى الأسطوانات. وأتصور أنه أراد قائمة مفيدة من الأغاني التي يمكن لفرقته عزفها وغناؤها في حال تراجعت طلبات الجمهور. كانت أغنية «Little Log Cabin of Dreams» أحدث نجاحات المغني الرئيسي في الفرقة بول وايتمن. وكانت أغنية «Nobody's Sweetheart» هي المفضلة لدى الجميع، حيث غنتها فرقة تلو الأخرى. أما أغنية «Russian Lullaby» فكانت عبارة عن رقصة فالس حالمة جديدة من إبداع إرفنج برلين العبقرى... إلخ إلخ.

بالنسبة للصفحات اللاحقة التي تحمل تواريخ الصيف، فقد امتلأت بتفاصيل المغامرة الكبرى التي قام بها تشارلي: كل عشاء رسمي، وحفلة شاي، وغداء يوم أحد عزفت فيه الفرقة الموسيقية. خلال الأسبوع الأول أو نحو ذلك في البحر، قام تشارلي بإدراج كل أكلة تناولها من قائمة الطعام الوفيرة على متن السفينة - إلى أن تسببت عاصفة هبت على السفينة في تلاطم الأمواج لبعض الأيام، وقضى دوار البحر الذي أصابه على شهيته للطعام. وبعد ذلك كان يمضي الأوقات بين حفلات الرقص جالسًا في سريره، حيث كان يطالع رواية شهيرة للكاتب البريطاني فيليب جيبس بعنوان: Young Anarchy.

نُشرت هذه الرواية بعد عام واحد من رواية The Great Gatsby، وتطرقت إلى الموضوعات نفسها المتعلقة بالجذور المفقودة والأخلاق المضطربة، وقد حملت نبرة تشاؤمية تكررت فيما بعد في الثقافة الغربية عدة مرات خلال حياة تشارلي الطويلة، ترتبط بفقدان الشباب ثوابتهم، وتداعي القيم والفضائل، والعالم الذي كان في طريقه إلى الجحيم بسرعة. تحدث مؤلف رواية The Great Gatsby ذات مرة عن «جيل تشارلي الذي شبَّ ليجد كل الرموز القديمة قد ماتت، وكل الحروب قد وقعت، وكل الإيمان بالإنسان قد تززع». أما جيبس فوصف في روايته أزمة ثقة مماثلة: فشيء ما «قد تحطم في عقول الرجال - التقاليد الفكرية القديمة وأسس الإيمان والكثير من الآمال والأوهام في روح الإنسانية، والنظام القديم للحياة الاجتماعية».

عندما تصفحت مذكراته المحفوظة جيدًا، لفتت انتباهي الساعات التي قضاها تشارلي في فراشه برفقة رواية جيبس. لقد بلغ أبنائي سن الرشد في فترة من خيبة الأمل والتشاؤم، تمامًا مثل تشارلي. على الرغم من ظلمة الأوضاع في عشرينيات هذا القرن، فإنها ليست أكثر قتامة مما كانت عليه في عشرينيات القرن الماضي. وأعتقد أن تشارلي كان لديه رد الفعل الصحيح. فقد استمتع بالرواية على الرغم من أنه لم يتفق مع نظرة المؤلف السوداوية. لم يتخيل تشارلي طوال حياته أبدًا أن الأمور كانت أسوأ -أو أفضل- مما كانت عليه في الواقع، لأنه تعلم في سن مبكرة أن الحياة ليست كما نظن دائمًا، ولا مئوسًا منها كما قد تبدو.

رست السفينة في مدينة يوكوهاما الصاخبة في اليابان، حيث شاهد تشارلي ورفاقه الأضرار التي خلفها الزلزال الكارثي الأخير. ثم أبحرت بعد ذلك إلى مانيلا، حيث شاهد تشارلي بفرح خمسة شبان متفاخرين من جامعة ييل وهم يفشلون في استمالة الشابات على حلبة الرقص. وقد أصيب تشارلي بنزلة برد شديدة توغلت في صدره وجيوبه الأنفية عندما وصلت السفينة إلى هونج كونج. وعاد المسافرون بنهاية شهر أغسطس إلى هونولولو، وكانوا لا يزالون يقدمون عروضهم المعتادة ويقبلون بكل سرور الإكراميات من الركاب في كل ميناء. بحلول ذلك الوقت، كان تشارلي في عجلة من أمره للعودة إلى الوطن، حيث سيتوقف لفترة وجيزة في مدينة كانساس قبل أن يعود ليكمل عامه الأخير في كلية الطب.

كانت الرحلة البحرية إلى الصين عظيمة، إذ وسَّعت من آفاق تشارلي، لكنني لا أعتقد أنها غيرت حياته. فمغامرته الآسيوية كانت نسخة أخرى من مغامرته في كاليفورنيا في سيارة فورد تي. لو كان هناك شاب آخر حطًا غير تشارلي يبلغ الثالثة والعشرين وينعم بحماية والديه، ربما احتاج إلى مَنْ يفتح عينيه على العالم، لكن تشارلي في ذلك الوقت كان في كامل جاهزيته وحيويته.

كان قد قرر قبل ذلك بسنوات عديدة كيف سيواجه العالم. فعندما كان صبيًا، بدأ يروي قصة لنفسه عن نفسه، وكانت قصة شجاعة ونجاح، وتصرف على هذا الأساس حتى تحققت. لقد فهم أننا سواء كنا نبحر إلى قارة جديدة أو ننتقل ببساطة من يوم إلى آخر، فإننا نتجه دائمًا إلى المجهول. وقد تعلم تشارلي أن يتعامل مع المجهول كصديق، إلى أن تقنعه الحياة بعكس ذلك. وخلال سنوات عمره الاستثنائية، لم تقنعه الحياة بالعكس أبدًا.

التجارب تقوم بتشكيلنا، ونحن نشكّل تجاربنا من خلال تحويلها إلى قصص حياتنا، فنمنحها معناها الخاص. وكما كتب الشاعر إي. إي. كامينجز، الذي كانت شهرته تتصاعد في أواخر عشرينيات القرن الماضي: «بمجرد أن نؤمن بأنفسنا، يمكننا أن نخاطر بالفضول والدهشة والفرح العفوي أو أية تجربة تكشف عن الروح الإنسانية».

بمجرد أن نؤمن...



بعد أن تخرج تشارلي في جامعة نورث وسترن، عاد لمسقط رأسه لإكمال فترة التدريب، وهي الخطوة الأخيرة التي تفصله عن تحقيق هدفه بأن يصبح طبيبًا. وقد شجع لایل ويلتس تشارلي على السعي للحصول على وظيفة في مستشفى كانساس العام، وهي من بين المؤسسات الأولى في البلاد التي تضمن الرعاية بغض النظر عن قدرة المريض على الدفع. كان هذا الصرح الضخم المبني من الطوب والحجر الجيري قائمًا على تلة تبعد نحو كيلومتر ونصف كيلو عن منزله في شارع كامبل؛ ولا بد أن تشارلي قد مر به عدة مرات في طريقه من وإلى وسط المدينة. مع ذلك عندما عبر تشارلي أبواب المستشفى لأول مرة كطبيب، ربما لاحظ بنظرة جديدة السطور المحفورة في الحجر فوقه من مسرحية شكسبير: «لن يضرّك أن تتعامل برحمة، إنها تسقط مثل المطر الرقيق من السماء على الأرض».

شُيِّدَ مستشفى كانساس العام بتكلفة نصف مليون دولار في الوقت الذي وُلد فيه تشارلي تقريبًا، وكان يتميز بمرافق حديثة، بما في ذلك مصنع للثلج وجناح منفصل للأطفال المصابين بالأمراض المعدية. (أخبرتني صديقة أخرى تعرفت عليها في مدينة كانساس عن معركتها من أجل البقاء على قيد الحياة كفتاة صغيرة مريضة بالتهاب السحايا في ذلك الجناح المعزول. كانت قصة محزنة وتتسم بالوحدة الشديدة).

استقبل المستشفى جميع القادمين، وعالج معظم الحالات الطارئة في المدينة. يتذكر تشارلي أنه كان المستشفى الوحيد في المدينة المجهز للتعامل مع حالات الطوارئ. وقد زادت حماسة الأطباء المتدربين لحقيقة أن متدربي المستشفى العام كانوا يعملون أيضًا على سيارات الإسعاف التابعة للمدينة.

كان المتدربون مشغولين للغاية بين عملهم في المستشفى وفي أنحاء المدينة، لدرجة أن المستشفى خصص لهم سكنًا في الطابق الخامس؛ فقد كانوا يعيشون حرفيًا من أجل عملهم. ولم يكن هناك مجال للتدرج في الأمر. كان المتدربون في المستشفى العام يواجهون الوضع بشكل مباشر، حيث كان عليهم إما أن ينجحوا ويثبتوا كفاءتهم، أو يواجهوا الفشل. تذكر تشارلي بسعادة: «لقد مُنحنا الكثير من المسؤولية للقيام بالعديد من المهام، بشرط أن نكون قادرين على التعامل معها».

وبما أن مستشفى كانساس كان المستشفى العام للمدينة المزدهرة، فقد كان يعالج كل أنواع الأمراض والإصابات. كان تشارلي متلهفًا لرؤية وتجربة كل شيء، من جناح الجراحة الخاص بـ«الحالات المعدية» إلى غرف الحجر الصحي لضحايا الأوبئة الموسمية؛ ومن جناح الولادة إلى غرفة الطوارئ، حيث يصل الرجال الأشداء المصابون بالرصاصة أو الطعنات بواسطة الشفرات.

وكثيرًا ما كان يروي قصة تجسد مدى حماسه للتعلم: فقد استدعى الدكتور أندروود تشارلي مع زملائه المتدربين إلى جناح الجراحة في صباح أحد أيام السبت لتعلم كيفية إجراء عملية استئصال اللوزتين؛ فمثل جميع الأطباء في عصره، تعلم تشارلي أنه توجد

قائمة طويلة من الأمراض التي تكون أسبابها متصلة باللوزتين. وكان يُعتقد أن إزالة هذين العضوين الدقيقين في الحلق بمثابة زر إعادة ضبط لصحة الإنسان. لذلك لم يكن هناك درس عملي أكثر أهمية من الذي كانوا على وشك أن يتلقوه.

ولكن عندما تجمع المتدربون لتلقي هذه المعلومات، أعلن الدكتور أندروود بأسف أن المريض لم يحضر كما كان مقرراً. فتلاشت الإثارة التي كانت تسود الغرفة. ثم صاح تشارلي وقال: «ما زالت لديّ اللوزتان». لبرهة، بدا أن الجراح لا يفهم ما قاله تشارلي.

فتطوع تشارلي للتوضيح: «يمكنكم إزالة لوزتي»، وخلع معطفه وفتح ياقة قميصه، ثم صعد إلى طاولة العمليات، واستقر في الوضع المناسب بينما يجلب أحدهم مرآة. شاهد تشارلي الجراحة في المرآة بينما تجمع زملاؤه المتدربون حول فمه المفتوح. قال تشارلي مستمتعاً برؤية تعبير الدهشة على وجهي: «هذا هو نوع الحياة التي عشناها. لم نكن نقلق بشأن الأمور المجنونة».

وتابع: «كان الأطباء المتدربون يتصرفون بشكل أكثر تلقائية، ويكون الإشراف أقل في معظم الأوقات. كنا نتصرف على طبيعتنا ونقوم بالأشياء بطريقتنا، ومعظم الوقت، كنا نفعلها بشكل جيد». كان يهوى رواية قصة المريض الذي وصل إلى المستشفى وذراعه تتدلى بجانبه من مفصل كتفه المخلوعة.

كان التشخيص سهلاً. لكن لم يسبق لأحد من المتدربين أن أعاد تثبيت كتف مخلوعة. خدروا الرجل بغاز الإيثير، ثم بدأوا بالعمل. تذكر تشارلي: «لم نتمكن من إعادة المفصل إلى مكانه. حاولنا نحن الثلاثة، ولم نجح، إذ ظلت الذراع تتدلى بعناد».

قرر الأطباء المتدربون، وهم مضطرون للاعتراف بعجزهم، استدعاء الطبيب المناوب في المستشفى. قال تشارلي: «وصل على الفور، ثم نظر إلينا وإلى المريض الذي كان لا يزال نائماً، ثم أعاد الكتف إلى مكانها بكل سهولة، وبعدها غادر».

تبادل المتدربون النظرات فيما بينهم، ثم حولوا أعينهم نحو المريض الذي كان لا يزال نائمًا دون أن يشعر بشيء: «نظرنا لبعضنا مرة أخرى وقلنا: يمكننا أن نفعل ذلك الآن».

لذا قرر تشارلي والآخرون تجربة العملية مرة أخرى. فأخرجوا الكتف من المفصل مجددًا، بينما المريض لا يزال نائمًا تحت تأثير المخدر. تذكر تشارلي: «حاولنا مرارًا وتكرارًا، ولم نتمكن من إعادة الكتف إلى مكانها في المرة الثانية!!». مهما حاولوا تحريك الذراع بطرق مختلفة، لم يتمكنوا من تكرار الحركة السهلة التي قام بها الطبيب المخضرم. بعد أن أدركوا هزيمتهم، استدعى المتدربون الطبيب الأكبر مرة أخرى. أوضح تشارلي: «جاء الطبيب وأعاد الكتف إلى مكانها بكل سهولة مجددًا»، وبذلك اكتشف المتدربون أخيرًا حدود حريتهم في المستشفى: «نظر إلى ثلاثتنا وقال: والآن يا شباب، اتركوا هذا الرجل وشأنه».

في النهاية، تم تكليف كل متدرب بالزيارات المنزلية الفردية لمدة شهر؛ فالمرضى في أنحاء المدينة الذين يعانون أمراضًا شديدة، أو لا يستطيعون القدوم إلى المستشفى كانوا يتصلون بمكتب خطوط الهاتف لطلب زيارة من طبيب. كان الطبيب المتدرب المسئول يحصل على سيارة خاصة تُعرف بـ«سيارة المرضى» وسائق متمرس يعرف كل تفصيلة من تفاصيل شوارع المدينة. كان تشارلي ينطلق كل صباح وهو يحمل حقيبة مليئة بالأدوات الطبية والأدوية الأساسية المتاحة، لبدأ ما سيصبح عشرين أو خمسًا وعشرين زيارة طبية بنهاية يوم طويل. ثم يعود في اليوم التالي. علق تشارلي قائلًا: «كانت تجربة تعليمية قيمة»، فعلى سبيل المثال: تعلم تشارلي التمييز بين حالة انفجار الزائدة الدودية وحالة حصوة الكلى المؤلمة، فكان يستدعي سيارة إسعاف للحالة الأولى، ويصف الإسبرين والسوائل للحالة الثانية.

الأهم من ذلك أنه تعلم التواضع؛ إذ سرعان ما أدرك مدى ضآلة ما يقدمه تدريبه الطبي مقارنةً بما تحتاجه معظم الحالات التي يواجهها. كان تشارلي يستطيع تصريف الدمامل المؤلمة، وعلاج الحروق السطحية، وخياطة الجروح الشديدة. لكن الحقيقة أن معظم الحالات التي كان يشخصها لم يستطع علاجها. فلم تكن قد اكتشفت المضادات الحيوية

والأدوية المتقدمة الأخرى بعد. وكانت الأشعة السينية البدائية هي الحد الأقصى في تقنيات التصوير الداخلي، وبالتالي كان تشارلي يعالج الكسور بناءً على الإحساس واللمس فقط، دون أن يرى العظام تحت الجلد. وقد عالج الكثير منها؛ لأن الناس كانوا لا يزالون يتعرضون لكسور في أذرعهم أو معاصمهم أو أيديهم بشكل متكرر عندما تترد المقابض اليدوية في سياراتهم. كان يحمل الضمادات والجبس في حقيبته ليصنع جبائر واقية.

كان ينطلق متسلحاً بنظرية «التأثير العكسي». تقول النظرية إنه لمكافحة العدوى، فعلى الطبيب أن يحفز الجهاز المناعي. كانت إحدى التقنيات المفضلة هي لاصقة الخردل. كان المتدرب الزائر يخلط الخردل الجاف والدقيق من مطبخ المريض، ثم يخلط المسحوق بالماء الدافئ ليصنع معجوناً، ويدهن المعجون على صدر المريض. هل كانت فعالة؟ كانت هذه أفضل وسيلة لديهم في ذلك الوقت.

لم يكن لدى تشارلي أية أوهام، فسرعان ما استنتج أن أقصى ما يمكن أن يقدمه الطبيب هو التأكيد على أنه مع الراحة في الفراش والتغذية السليمة والإكثار من السوائل، سيحدث الشفاء تدريجياً في معظم الحالات. قال تشارلي: «كان الأمر في الغالب يتمثل في تقديم الرعاية الداعمة - أي دعمهم ومحاولة إراحتهم بينما يتعافى الجسم».

كان المتدربون يساعدون أيضاً في مجال الصحة العامة، على أمل أن يساعدوا في الوقاية من الأمراض إذا لم يتمكنوا من علاجها. أثناء زيارتهم للمنازل الخاصة، كانوا يقدمون نصائح حول الأنظمة الغذائية المتوازنة، ويقدمون اقتراحات بشأن النظافة الشخصية والصحة العامة. كان تشارلي وزملاؤه يعبرون عن آرائهم بحرية؛ لأن الدعاوى القضائية ضد الأطباء كانت نادرة جداً، وكان التأمين الطبي غير متاح آنذاك. حتى الأطباء الجدد نادراً ما كان يتم التشكيك فيهم، ومع ذلك، لم يستغرق تشارلي وقتاً طويلاً ليُدرك أنه في ميدان الطب، حيث تعتبر الثقة عاملاً أساسياً في العلاج، كان يفتقر إلى هذه الثقة. قال تشارلي: «كان الناس ينظرون إليّ ببعض التشكك. فقد كنت أبدو صغيراً جداً! وكانوا يسألون: هل

أنت طبيب؟»، وفي محاولة منه ليبدو أكبر سنًا، قرر تشارلي أن يطلق شاربه، وقد استمر في الاحتفاظ به لنحو تسعين عامًا.

وبعد أن قام بدوره في سيارة المرضى، عاد تشارلي لركوب سيارات الإسعاف التابعة للمستشفى عندما كانت تُستدعى للحالات الطارئة. كان التنقل بسيارة الإسعاف في شوارع مدينة كانساس الصاخبة تجربة مليئة بالمخاطر. أخبرني تشارلي: «هؤلاء السائقون كانوا مجانيين».

وقد تذكر بعد سنوات تجربة مجنونة بشكل خاص، حيث كان هناك راكب يفرض نفسه على الرحلة: «كان هناك مراسل يعمل لصالح جريدة ستار، وكان يتابع باستمرار سيارات الإسعاف ويشارك في كل حالة طوارئ قد تصلح لتكون تحقيقًا صحفيًا. كان مزعجًا إلى حد كبير. في إحدى المرات، كنت أتولى العناية بمريض في موقع حادث، ولم تكن هناك حاجة لنقله إلى المستشفى. فقال هذا المراسل: حسنًا، بما أن السرير فارغ. سأستلقي عليه في طريق عودتنا».

وأردف تشارلي: «كان سائقو سيارات الإسعاف دائمًا يقودون بسرعة. كانت الأبواب تفتح من الجوانب، وليس من الخلف كما هي الحال الآن. عندما قمنا بالانعطاف عند تقاطع الشارع الحادي والثلاثين مع جادة تروست، شعرنا كأن السيارة ارتفعت على عجلتين بسبب السرعة العالية. فانفتحت الأبواب فجأة، ووقع السرير في الشارع ومعه المراسل المستلقي عليه!!».

لمدة عام كامل، كان المستشفى هو كل حياة تشارلي؛ لدرجة أنك قد تظن أن والدته كانت تعيش على بُعد مائة ميل. حتى مشاعر الحب التي شعر بها تشارلي كانت مرتبطة أيضًا بالمستشفى. فقد التقى هناك بمراهقة جذابة تعمل في أحد الأقسام تُدعى ميلدريد كريستيل. تولدت مشاعر الحب بينهما. عندما كانت تسنح له فرصة نادرة للراحة من العمل، كان يدعوها للخروج في موعد، فقد كان الانجذاب متبادلًا بينهما.

وعلى الرغم من أن تشارلي كان راويًا بارعًا للقصص، لا أذكر أنه تحدث عن أية علاقات جادة مع فتيات قبل ميلدريد. لقد تكون لديّ انطباع، وربما يكون خاطئًا، أنه تأخر في تجربة الحب. فقد كان أصغر بعامين من زملائه في الدراسة، وكان لا يزال طفلًا عندما بدأ ينمو شعر الوجه للأولاد الأكبر سنًا وبدأوا يهتمون بالرومانسية. وقد أمضى ليالي سنواته الجامعية على منصة الفرقة الموسيقية، يعزف على الساكسفون بدلًا من الرقص مع الفتيات. بغض النظر عن درجة خبرته العاطفية، كانت علاقته بميلدريد مختلفة تمامًا، فقد تزوجا بمجرد انتهاء فترة تدريبه.

أخيرًا أصبح الطبيب تشارلز وايت! ولكن سرعان ما اكتشف أن هناك مشكلة، فعلى عكس معظم كليات الطب في ذلك الوقت، لم تسمح جامعة نورث ويسترن لخريجها بأخذ امتحان الحصول على الترخيص أثناء فترة التدريب. وعندما أنهى تشارلي فترة تدريبه، كان الوقت قد فات للتسجيل في امتحان الترخيص. وكان عليه الانتظار عامًا آخر حتى موعد الجولة التالية من الامتحانات ليتمكن من الحصول على ترخيصه الطبي. قال: «كنت فقط أريد ممارسة الطب؛ لكن فإتني فرصة التقديم لامتحانات الترخيص الحكومية»، كان اليأس لا يزال واضحًا في صوته حتى بعد مرور عدة عقود.

القواعد هي القواعد. تنص القواعد على أن تشارلي كان يحتاج إلى شهادة الطب للتأهل للامتحانات. كانت قواعد جامعة نورث ويسترن تنص على أنه لا يمكنه الحصول على الدرجة العلمية حتى يكمل فترة تدريبه. كانت هناك جامعات أخرى لها قواعد مختلفة، لكن هذه القاعدة كانت تتحكم في خيارات تشارلي—أو هكذا بدا الأمر. بالطبع لم يكن تشارلي ليستسلم أمام تلك العقبات. فلم يكن هناك ما يمنعه من البحث عن المسئول عن عملية التراخيص وتقديم مشكلته باحترام.

سافر تشارلي إلى جيفرسون، عاصمة الولاية: «ذهبت لأتحدث إلى مجلس الولاية المسئول، وبالتحديد إلى الطبيب الذي كان يرأسه». وعرض تشارلي الصورة الكاملة للرجل: دراسته الجامعية الصارمة في جامعة ميزوري، واستعداده الممتاز في كلية الطب في نورث

ويسترن، وتدريبه الشامل في مستشفى كانساس العام الذي كان يعج بالنشاط في مدينة كانساس. شرح تشارلي الظروف غير المواتية التي فرضتها قواعد جامعة نورث ويسترن على مسيرته المهنية الناشئة بسبب سوء التوقيت. وألقى بنفسه تحت رحمة مجلس التراخيص بالولاية.

لكن القواعد هي القواعد. كان على تشارلي الانتظار حتى العام المقبل.

ومع ذلك، فقد أعجب رئيس المجلس بما رآه في تشارلي، وعرض عليه اقتراحًا عمليًا - اقتراحًا كان مناسبًا تمامًا لشاب شجاع مثل تشارلي. فقال: «يا بني، لقد التحقت بكلية طب جيدة، وحظيت بفترة تدريب جيدة. فانهب ومارس الطب». علق تشارلي: «وهكذا مارست الطب لمدة عام دون ترخيص». هكذا راهن تشارلي على نفسه مرة أخرى، وكانت ثقته في محلها.



منح لایل ويلتس تشارلي مساحة صغيرة في عيادته، كما وعده إذا عاد تشارلي إلى مدينة كانساس، وأسند إليه بعض الحالات». لكن تشارلي كان عليه أن يعتمد على نفسه في جذب مرضى جدد لدعم نفسه وزوجته. وبالفعل حصل تشارلي على بعض المرضى المحولين من الأطباء في المستشفى العام الذين أعجبوا بأدائه خلال فترة تدريبه. ومع مرور الوقت، زاد عدد مرضاه بفضل التوصيات الشفهية؛ لكن عملية الممارسة الطبية كانت تسير ببطء.

خلال فترة الخطوبة، أمضى تشارلي وميلدريد بلا شك بعضًا من أمسياتهما الحرة النادرة في التنزه على أرصفة ساحة كانتري كلوب بلازا الجديدة. كانت هذه العمارة الخيالية ذات الطراز الإسباني، بأرصفتها العريضة ونوافيرها المستوردة، بمثابة انتصار لحركة «المدينة الجميلة»، وهي حملة وطنية لإصلاح المدن المزدهمة والموحلة في القرن التاسع عشر، وتجميلها بالحدائق ذات المناظر الطبيعية والشوارع المزدانة بالأشجار والمباني الضخمة

وأحواض الزهور. وقد احتضنت مدينة كانساس، بقيادة محرر الصحيفة المحلية ويليام روكهيل نيلسون، هذه الحركة بحماس شديد لدرجة أنها ستعلن في المستقبل أن لديها نوافير أكثر من أية مدينة في العالم باستثناء روما. لقد أنشئت ساحة كونتري كلوب بلازا على أرض كانت في السابق مزارع لتربية الماشية، وكانت أول مركز تسوق في البلاد يتم التخطيط له خارج منطقة تجارية مركزية. على الرغم من إمكانية الدخول إليها بالسيارة، فإنها في الواقع كانت مصممة لتكون مكاناً للمشاة للتنزه ومشاهدة البضائع في واجهات المحلات. كان يمكن للعشاق الشباب ذوي الميزانيات المحدودة، مثل تشارلي وميلدريد، أن يقضوا أمسية في التنزه والضحك، وربما يتوقفون عند صالة البولينج أو يتناولون المثلجات.

في مكان قريب، عبر مجرى مائي معرّض للفيضانات يسمى بروش كريك، لم يسع تشارلي إلا أن يلاحظ مبنى سكنياً أنيقاً مكوناً من تسعة طوابق من الطوب الأحمر، ذا أبراج على الطراز الإيطالي وزخارف حجرية. كان المطور يهدف إلى استحضار روعة المباني التي تصطف على جانبي سنترال بارك في مانهاتن؛ وسواء تحقق الهدف أم لا، فإن فيلا سيرينا كانت بمثابة تعبير واضح عن الفخامة في مدينة كانساس في عشرينيات القرن الماضي. شارك صهر آخر في المشروع بطريقة أو بأخرى؛ وكانت هدية الزفاف التي قدمها لتشارلي وميلدريد عبارة عن عدة أشهر في فيلا سيرينا مجاناً من دون إيجار، وكانت الفيلا تتميز بمدخلها الفخم وصالون تصفيف الشعر وخدمة تنظيف مجانية وأجهزة هوت بوينت المنزلية. (ولكن لم يكن هناك مكيف هواء. كثيراً ما تحدث تشارلي عن الليالي الحارة والرطوبة في فصول الصيف الطويلة الماضية، عندما قام هو والعديد من السكان الآخرين بحمل الأسرة إلى سطح المبنى السكني للنوم في الخارج).

وقد اختار تشارلي أصغر شقة إستوديو سكنية متاحة له خشية أن يتحمل التزاماً بإيجار لن يتمكن من الوفاء به. ثم اقترح على الإدارة إضافة ميزة جديدة؛ طبيب مقيم يكون متاحاً بعد ساعات العمل. لم تكن فيلا سيرينا بالنسبة لتشارلي مجرد مكان رائع للعيش؛ بل كانت أيضاً فرصة لجذب مرضى جدد. وقد رحبت الإدارة بعرضه بسرور.

من الخطأ القول إن تشارلي قد أصبح معتمدًا على نفسه أخيرًا، فقد اعتمد على نفسه منذ زمن طويل: عندما قفز من القطار وسار الأميال الأخيرة عائداً إلى المنزل من المخيم الصيفي، وعندما واجه طبيبه المتحرش عندما كان في الثامنة من عمره؛ وعندما قاد السيارة عبر البلاد على طرق وعرة، وركب قطارات الشحن عائداً إلى المنزل وهو في سن السادسة عشرة؛ وعندما علم نفسه العزف على الآلات الموسيقية من خلال الاستماع إلى الراديو، وساعدته تلك المهنة الصغيرة في تعليمه الجامعي، ورحلته البحرية حول العالم، وعندما مارس توليد الأطفال، وعندما شاهد المرضى يموتون، وعندما ضخ دمه لإنقاذ حياة رجل عصابات في شيكاغو. لقد أدركت أن موهبة تشارلي هي فهمه الطبيعي وتقبله للفكرة الوجودية التي تقول إننا دائماً نعتمد على أنفسنا. فنحن نسأل، ونتعلم، ونستشير، ونقتدي بالآخرين، ولكن عندما نتصرف في النهاية، يكون ذلك نابعاً من أعماقنا.

حتى إذا لم تكن «معتمدين على أنفسنا»، فمن الأفضل أن نفكر ونتصرف كما لو أننا نعتمد على أنفسنا بالفعل. لست أتحدث عن الأناية أو النرجسية أو العزلة، بل أعني التصرف كما لو أننا نملك الحرية في اتخاذ الخيارات الجيدة بدلاً من الخيارات الخاطئة. فنحن «معتمدون على أنفسنا» بمعنى أننا نمتلك القدرة على التضحية، وعلى الحب، وعلى التسامح. أعتقد أن تشارلي كان لديه إدراك طبيعي بأن كل حياة تواجه عقبات وانتكاسات، بعضها أكثر صعوبة من الأخرى وبعضها أكثر ظلمًا. لكن هناك دائماً مجالاً ما لتقرير مصائرنا، مهما كان ضيقاً. بهذه الطريقة نكون معتمدين على أنفسنا.

وبالطبع فإن المعنى الأكثر شيوعاً يشير إلى الوقت الذي يعبر فيه الشخص الخط غير المرئي بين مرحلة الشباب ومرحلة البلوغ. نحن نقول: لقد صار معتمداً على نفسه، حيث تبدأ الحياة المهنية، ويتم تأسيس المنزل، وربما يحدث الزواج. كان هذا هو تشارلي في سن الخامسة والعشرين في عام 1930. كان طبيباً مقيماً بشارب أشعث في فيلا سيرينا الساحرة. كانت لديه زوجة صغيرة جداً وشقة صغيرة للغاية في مبنى كبير. كان معتمداً على نفسه... ثم انقلبت الدنيا كلها ضده.

حدث هذا في عام 1930.



على الرغم مما نكون قد تعلمناه في دروس التاريخ، فإن انهيار سوق الأسهم في عام 1929 لم يكن مجرد حادثة ليوم واحد. كانت السوق تتقلب وتعاني خلال خريف عام 1929 بينما كان تشارلي يقترب من نهاية تدريبه. وقد انهارت في أواخر أكتوبر، ثم حاولت النهوض مجددًا. بينما كان تشارلي يبدأ مسيرته المهنية، كان الكثيرون ما زالوا يأملون في أن يكون الانهيار مجرد فاصل مؤقت قبل العودة إلى فترة ازدهار جديدة. أو كما يحب المتفائلون من الوسطاء أن يطلقوا عليه، «تصحيح» للسوق.

لكنه لم يكن تصحيحًا. فقد دُمّر تقريبًا نصف الإنتاج الصناعي السنوي في الولايات المتحدة بحلول عام 1933. انخفض الناتج القومي الإجمالي بنسبة الثلث، وارتفعت نسبة البطالة إلى ما يتجاوز 20%. واستمر الكساد الاقتصادي يظل مسيرة تشارلي المهنية كغيمة ثقيلة وغاضبة لأكثر من عشر سنوات. كان قد وُلد في عام 1905 تقريبًا، ولذلك كان جيله ما زال صغيرًا جدًا، ولم يتمكن من كسب ما يكفي من المال خلال فترة العشرينيات الصاخبة. وقد كلفهم الكساد الاقتصادي الكثير من السنوات الضائعة والمعاناة المهنية.

خلال إحدى زياراتي لتشارلي في منزله عبر الشارع، كنا نتحدث، أو بالأصح هو من كان يتحدث؛ بينما كنت أستمع له بدهشة، عن تكلفة الرعاية الطبية في أوائل الثلاثينيات، عندما كان تشارلي في بداية مسيرته. لقد تذكر الأسعار على الفور: دولاران لزيارة عيادة الطبيب، وثلاثة دولارات للزيارة المنزلية، وخمسة دولارات للزيارة المنزلية في غير ساعات العمل. لكن تشارلي أدرك أن هذه الأرقام كانت مضللة. فقد أوضح أن معظم الفواتير لم تُدفع في الواقع. كان يمكنه أن يطلب مليون دولار، ولكن ما المبلغ الذي يمكنه حقًا الحصول عليه؟ قال تشارلي: «في أوج الكساد الكبير، لم يكن بإمكان العديد من العائلات في مدينة كانساس تحمّل أجرة سيارة بخمسة سنتات». فما الفرق بين أن يقول «دولارين»

أو «خمس دولار» إذا لم يكن لدى المريض حتى خمس سنتات؟ نعم، لم يكن المريض يمتلك حتى خمس سنتات.

وبعد كل الجهد الذي بذله تشارلي للوصول إلى نقطة البداية، أصبح يتحدى بعضًا من أصعب الظروف في التاريخ، وقد أصبح تشارلي، مثل الكثيرين الذين صمدوا خلال الكساد، خبيرًا في التفاوض والمقايضة. فإذا كان لدى شخص ما محطة خدمة سيارات، فقد يعالج تشارلي الفتق المصاب به هذا الشخص مقابل الحصول على ملء بعض خزانات الوقود المجانية، أو الحصول على خصم على مجموعة جديدة من الإطارات. وكان المريض الذي يمتلك حظيرة دجاج يمكنه الدفع بالبيض الفائض لديه. قال تشارلي متذكرًا: «كنا نحصل على الأجر بطرق غريبة. أتذكر شخصًا كان يبيع واثق التأمين في الساحة، وكان ثريًا جدًا. لكن الكساد دمره. لقد زُرته عندما أصيب بالتهاب رئوي فاعتنيت به في منزله، وعندما تعافى، قال: «لا أملك شيئًا لأدفعه لك، لكن، هل تود الحصول على مجموعة من موسوعة بريتانیکا التي أمتلكها».

نظر تشارلي إلى المجلدات الصادرة في عام 1890 من موسوعة بريتانیکا، والتي كانت مغلّفة بشكل رائع بالجلد وتزين رف كتب ذلك الرجل. كان تشارلي في حاجة ماسة إلى النقود أكثر من حاجته إلى الكتب المرجعية. لكن الكتب كانت أفضل من لا شيء، «فقلت له «حسنًا، أيًا كان» وأخذت الكتب لأنها كانت كل ما يستطيع هذا الرجل تقديمه لي مقابل علاجه. في الحقيقة، لم أعالجه. الطبيعة هي التي شفته من الالتهاب الرئوي».

وقد توصل بحث علمي نُشر في أوج ثلاثينيات القرن العشرين، وشمل آلاف المرضى في مدن متعددة، إلى أن الأطباء وغيرهم من مقدمي الرعاية الصحية يواجهون مشكلة تقديم الخدمات مجانًا إلى حد غير مسبوق في أي مجال آخر. أضاف الباحثون: «كان مدير المصنع قادرًا على توفير خلال الأوقات الصعبة من خلال إلغاء الأقسام غير المنتجة، أو إدخال أجهزة توفر العمل، أو كحل أخير، إغلاق مصنعه حتى يعود الازدهار. لكن لم تكن هناك حلول مماثلة متاحة للطبيب أو مدير المستشفى. كان يجب أن تستمر الأعمال

كالمعتاد على الرغم من انخفاض عدد المرضى القادرين على الدفع، والزيادة الهائلة في تقديم الرعاية المجانية».

وكان تشارلي يصر كلما تحدثنا عن تلك الأيام على أنه لم يكن يهتم بالأمر: فقد دخل مجال الطب باعتباره رسالة ولم يدخله من أجل الثراء. لكن ذلك لم يجعل تلك الأوقات أسهل. فقد قدر أن نحو 40% من زيارته لم يتم دفع أجرها بأي شكل من الأشكال، لا نقدًا ولا عبر المقايضة. وقال عن تلك الديون: «كنا نسجلها في السجلات لسنوات، لكنها لم تُسدَّد أبدًا».

أحيانًا بعد زيارة تشارلي أحد المرضى، كانت العائلة تدعوه لمشاركة وجبة معهم. حكى لي عن طبيب آخر في المدينة لم يكن ينتظر الدعوة. بل كان يذهب مباشرة إلى غرفة المؤمن والثلاجة فور دخوله إلى منزل المريض، ونادرًا ما يخرج دون أن يتناول شيئًا أو يأخذ شيئًا معه.

لكن ممارسة الطب لم تكن ممكنة بالكامل عبر المقايضة. فقد كانت هناك نفقات ثابتة. كان الطبيب يحتاج إلى سيارة. وفقًا لنفس البحث العلمي، كانت الرعاية الطبية في الثلاثينيات تأتي بشكل رئيسي من الأطباء الذين يقومون بزيارات منزلية. ونظرًا لأنهم كانوا يذهبون إلى المنازل في جميع الأوقات، فلم تكن السيارات العادية مناسبة لذلك. قال تشارلي: «هناك شيء واحد يجب أن يكون لديك كطبيب - شيء لا يمكنك الاستغناء عنه - وهو الأضواء الكاشفة في سيارتك. كان كل طبيب يقوم بتركيب الأضواء الكاشفة بمجرد أن يشتري سيارة. وهي من النوع نفسه الذي يستخدمه قسم المطافئ والشرطة. هل يمكنك تخيل السير في شارع مظلم، محاولًا العثور على أرقام المنازل في الليل؟».

تابع تشارلي: «ما أعنيه هو أن الأمر مستحيل، كنت ستقضي نصف ليلتك في البحث عن الأرقام. وقد عرفنا جميع الشوارع الصغيرة والتي يصعب الوصول إليها في المدينة. في ذلك الوقت إذا كنت تريد معرفة كيفية العثور على عنوان، فما عليك سوى أن تسأل طبيبًا».

ونظرًا لضيق الأحوال المالية، كان الآباء يترددون كثيرًا في إبلاغه عندما يمرض أطفالهم. تذكر تشارلي إحدى المرات التي تم استدعاؤه فيها لعلاج صبي كان يعاني المرض بشكل متقطع طوال فصل الشتاء. كان والداه يؤجلان الاتصال بالطبيب على أمل أن يُشفى ابنهما في نهاية المطاف. كان بإمكان تشارلي أن يتخيل لوزتيه الملتهبتين حتى قبل أن يوقف سيارته إلى جانب الرصيف.

عندما دخل المنزل الغريب، أجرى تشارلي تقييمًا سريعًا لسكانه، أملًا في العثور على مساعد محتمل، فحتى أبسط العمليات الجراحية المنزلية كانت تتطلب شخصين. في غضون دقائق، كان تشارلي يستطيع تدريب أحد الأقارب الشجعان، سواء كان أختًا أو عمّة، ليكون مساعدًا للتخدير، ويقوم بتنقيط الإيثير المخدر ببطء على كرة من القطن في علبة متصلة بقناع التنفس. كانت أبخرة الإيثير تساعد المريض على أن يفقد الوعي، وكان تنقيط بضع قطرات بين الحين والآخر يكفي لإبقائه نائمًا.

وقد وجد تشارلي في هذه الزيارة مساعدًا مستعدًا، وشرح له كيفية استخدام الجهاز وبدأ في تنقيط الإيثير. سار كل شيء على ما يرام، حيث فقد المريض وعيه على طاولة غرفة الطعام. مد تشارلي يده إلى حقيبته ليخرج منها سلكًا معدنيًا، وهو عبارة عن حلقة من الأسلاك الحادة لتطويق اللوزة المصابة. عندما يتم ربط الحلقة بإحكام، يقطع السلك اللوزة ويزيلها.

لكن في تلك اللحظة، لم يكن السلك موجودًا.

بحث تشارلي في حقيبته جيدًا، لكنه لم يجد السلك.

قام مساعده المبتدئ بتقطير بضع قطرات من الإيثير في العلبة، ثم نظر إلى تشارلي بترقب. لم يستطع تشارلي أن يتصور إيقاف العملية الآن. ثم لاحظ، في حالة اليأس التي كان فيها، صورة معلقة على جدار غرفة الطعام. صورة ...

سلك الصورة!!

نزع الإطار من على الحائط، وأخذ السلك ثم قام بتعقيمه باستخدام اللهب. وبعد ذلك أدخل السلك ولفه حول اللوزة الأولى، وشده بإحكام. رأى الدم ينبثق وقد انفصلت اللوزة المريضة بنجاح. كرر تشارلي العملية نفسها مع اللوزة الثانية. وبعد أن انتظر بعض الوقت حتى يتوقف النزيف، انطلق في طريق عودته.

عندما سمعت هذه القصة، تخيلت تشارلي وهو ينزل أكمام قميصه بعد العملية، ويرتدي معطفه ويغلق حقيبته الجلدية الكبيرة بإحكام، مغادرًا المنزل بشيء من التباهي بعد أن أزال اللوزتين، والمريض في حالة نعاس على السرير، والصورة مقلوبة في إطارها على الرف في انتظار سلك جديد. كانت جراحة ذكية ولا تُنسى، لكنها لم تكن أصعب عملية أجراها لاستئصال لوزتين .

أخبرني بأن أصعب الحالات كانت تلك التي يصل فيها إلى منزل مليء بالأطفال، يكون أحدهم مريضًا والبقية في صحة جيدة. بسبب الضائقة المالية، كان الأهل يستفسرون بخجل عما إذا كان هناك إمكانية للحصول على خصم لإجراء عملية إزالة اللوزتين لجميع الأطفال في المنزل دفعة واحدة.

وفي مثل هذه الحالات، قال لي تشارلي: «يكون الأمر سهلًا مع الأول»، مشيرًا إلى الطفل الأول، أي المريض، الذي كان يوافق على الصعود إلى طاولة الطعام. لكن بمجرد أن يرى الأطفال الآخرون ما يحدث، «يصبح من الصعب جدًا الإمساك بهم».



كانت عمليات الولادة مصدرًا رئيسيًا للدخل، خاصة بعد أن أقرت الحكومة الفيدرالية قانونًا في ذروة الكساد العظيم بدفع أجر قدره خمسة وعشرون دولارًا للأطباء عن كل عملية

ولادة تتم في المنزل. كانت النساء وأطفالهن يموتون بمعدلات مخيفة أثناء الولادة دون مساعدة طبية. وكانت الفكرة من دفع هذا الأجر هي تشجيع الأمهات حديثات العهد على الاتصال بالطبيب، حتى لو لم تكن هناك أية نقود في المنزل. لم يعد تشارلي يستطيع حساب عدد الأطفال الذين قام بتوليدهم، ولكنه لم ينسَ أبدًا المولودة المفضلة لديه.

حكى لي عنها مرة: «كانت النقود شحيحة، ولم يكن بإمكان الناس تحمل تكلفة الذهاب إلى المستشفى». عندما وصل إلى المنزل المزدهم، وجد امرأة شابة في حالة المخاض، لكن بدا أن شيئًا كان غير صحيح. فلم تكن تبدو كأنها في نهاية فترة الحمل.

أخبرني تشارلي بما حدث بعد مرور فترة طويلة: «قمت بتوليد الطفلة وكان وزنها نحو كجم واحد. كانت الولادة سابقة لأوانها. لم أظن أن الطفلة ستنجو. بالطبع لم يكن هناك أي شيء يماثل وحدة العناية المركزة للأطفال في تلك الأيام. كنت أعلم ما الذي سيفعله المستشفى: كانوا سيضعون الطفل في مكان دافئ ويتركون الطبيعة تقوم بدورها». وكان هؤلاء الناس فقراء جدًا ولا يستطيعون تحمل تكلفة المستشفى؛ لذلك أحضرت صندوق أحذية، مجرد صندوق أحذية عادي، وبطنته بالقطن ووضعت الطفلة بداخله. وضعنا مصباحًا قريبًا لتوفير الدفء، وقمت بإطعام الطفلة الحليب باستخدام قطارة العين. وهل تعلم ماذا حدث؟ عندما بلغت الخامسة من عمرها، قمت باستئصال لوزتيها!».



كالعادة تذكر تشارلي كل ذلك على أنه مغامرة. تذكر الابتهاج الذي شعر به عندما انتقل إلى المبنى السكني الفخم. الطبيب وايت مع زوجته ومسيرته المهنية الجديدة. قال: «كنت أرغب في إقامة حفلة لمجموعة من أصدقائي، وهم المتدربون الآخرون».

«كنت أعرف مريضًا كان مديئًا لي بعشرين دولارًا، ولم يدفعها بعد. فاتصلت به عبر الهاتف. قلت له، «أنا أقيم حفلًا وقد تزوجت حديثًا. أحتاج إلى بعض المال لشراء بعض الأغراض. هل ستدفع لي؟» فدفعت العشرين دولارًا على الفور، فاشتريت المكونات وتمكن الجميع من تحضير مشروباتهم، وأقمنا حفلة رائعة».

في مدينة كانساس، كان توم بندرجاست يسيطر على المدينة باستخدام مزيج من المحسوبية والتهديد. كان زعيمًا شديد البأس يستخدم نفوذه لتأمين مصالحه السياسية والاقتصادية، وأحيانًا كان يتدخل لإتمام مشاريع تفيد المدينة. كان يدرك أن الناخبين يهتمون بشكل كبير بوجود طرق جيدة، فأعطى التفويض للقاضي هاري إس. ترومان للإشراف على برنامج للبنية التحتية النزيهة، ما وفر فرص عمل لآلاف من العاطلين عن العمل، وأطلق مسيرة ترومان التاريخية. لكن الأكثر شيوعًا كانت الترتيبات التي أبرمها بندرجاست مع زعيم العصابات جوني لازيا أو «الأخ جون». كان لازيا من مدينة نيويورك، وقد لفت انتباه بندرجاست في وقت ما إبان الحرب العالمية الأولى، عندما أظهر براعته في تأمين الأصوات في يوم الانتخابات من سكان المدينة الإيطاليين الأمريكيين. وخلال بقية العام، كان لازيا يقدم رشاوى بانتظام من إمبراطوريته الصاعدة من الحانات ونوادي القمار غير المرخصة.

ومع ازدياد نفوذه، احتفظ لازيا بمكتب صغير في مقر الشرطة، وكان يُقال إنه كان له حق الاعتراض على تعيين أو فصل الضباط. كان ذلك مفيدًا عندما تم تكليف الضباط بالتحقيق في حوادث إطلاق النار المتكررة في حي الإيطاليين المسمّى بليتل إيتالي في مدينة كانساس، وقد حدث إحداها مباشرةً تحت أنظار تشارلي خلال فترة تدريبه في المستشفى العام.

أخبرني تشارلي: «كنت أقوم بزيارة منزلية أثناء مناوبتي في خدمة الإسعاف. وكانت هناك امرأة في حي ليتل إيتالي مصابة بالتهاب رئوي، وقد قررت بعد فحصها أننا بحاجة لنقلها إلى المستشفى. فقممت بوضعها على نقالة، وأمسك السائق طرفًا منها بينما أمسكت أنا

بالطرف الآخر. ووصلنا بها إلى باب المنزل الذي كان على الشارع مباشرة، وهنا رأينا سيارة سوداء كبيرة يحمل أصحابها سلاحًا رشاشًا، وأطلقوا النار على رجل أمام عيني. وبالطبع انطلقوا فارين بالسيارة بعدها».

«نظرت إلى سائق الإسعاف وقلت، أتعلم؟ يبدو أن هذا الرجل يحتاج إلى الإسعاف أكثر منها. فحملناها مرة أخرى إلى السرير، وحملنا الرجل الذي أصيب بالرصاص إلى داخل سيارة الإسعاف. جلست في الجزء الخلفي من السيارة ونحن ننطلق مسرعين إلى المستشفى، محاولاً التحدث إلى الرجل. لكنه كان يتحدث الإيطالية فقط، ولم يتحدث كثيرًا؛ لأنه توفي في الطريق. لكن سائق الإسعاف كان إيطاليًا، فسألته إذا كان الرجل قد قال شيئًا عن هوية من أطلق عليه النار، فنظر إليّ وكأني مجنون وقال: لم أسمع شيئًا!».

وكان ذلك على الأرجح تصرفًا حكيمًا؛ لأن لازيا كان زعيم عصابة خطيرًا. كان يفخر بعلاقاته بكل من الطبقة الراقية والعالم الإجرامي. خلال فترة انتشار جرائم الخطف في الثلاثينيات، تم اختطاف مصممة الأزياء الشهيرة نيل دونيلي مع سائقها من مدخل قصرها، وقد قيل إن لازيا كان الشخص الذي يمكنه إنقاذ الضحايا من المشاهير. فأصدر الأخ جون تعليماته، وبعد بضع ساعات فقط، عادت دونيلي إلى منزلها بأمان ودون دفع أية فدية. كان في فترة من الفترات أقوى من مكتب التحقيقات الفيدرالي في كانساس. وفي عام 1933، عندما تحول موقف السيارات في محطة يونيون إلى مسرح لمواجهات مسلحة عنيفة بين رجال العصابات والعملاء الفيدراليين، استخدم لازيا علاقاته مع قسم الشرطة لإعاقة التحقيق.

لم يكن تشارلي محبًا لإثارة المتاعب؛ لذلك أصبح الطبيب وايت الشاب مشهورًا في دوائر الأخ جون الشمالية. حكى لي عن ليلة تم استدعاؤه فيها إلى حي ليتل إيتالي من أجل امرأة في حالة مخاض. عندما وصل إلى المبنى وصعد إلى الشقة في الطابق الثالث، وجد المكان مزدحمًا بالأقارب المتوترين بينما كانت المريضة مستريحة وفي حالة استرخاء.

كانت الانقباضات ما زالت تحدث على فترات متباعدة. «ولكن كان عليك البقاء هناك حتى إن لم تكن المرأة مستعدة للولادة بعد. لم تكن هناك أية ممرضة متاحة لفحصها».

وكعادته، قام تشارلي بتقييم سكان المنزل لاختيار الشخص الذي بدا أكثر هدوءًا وجدارية بالثقة. ثم عيّن مساعده المختار لمراقبة الأمور بينما نزل تشارلي إلى سيارته ليحصل على بعض النوم. وقد أوضح لمساعدته أنه عندما تتكرر الانقباضات على فترات محددة، يجب عليه أن يوقظه من غفوته.

قال تشارلي: «كانت الساعة تشير إلى نحو الثانية صباحًا. كانت الليلة دافئة، وكان سقف سيارته فورد طراز A المكشوفة مفتوحًا. استلقى تشارلي على المقعد الخلفي وسرعان ما غطّ في النوم. لكنه استيقظ فجأة، ليس لأن أحدهم أخبره بأن الطفل على وشك الولادة، بل بسبب طفلين صغيرين كانا يفكان عجالات سيارته: «أعتقد أنهما لم يلاحظا أنني كنت نائمًا على المقعد، وعندما قفزت ناهضًا، أصابهما الرعب كما لو أنهما شاهدا شبحًا. وبالطبع هربا على الفور».

أصبح تشارلي معروفًا في الحي. كان يقول: «كان الطب يُمارس بطريقة شخصية للغاية في تلك الأيام. إذا كنت طبيبًا عائليًا، فإنك كنت تدخل بيوت الناس وتشاركهم الطعام وتعرف أهلهم وطريقة حياتهم». وقد أصبح على معرفة وثيقة بأسرة أحد رجال العصابات، خاصة بعد أن دخل ذلك الرجل السجن. أخبرني تشارلي وهو يلوح بيده: «كانت الجريمة عبارة عن تهرب ضريبي أو شيء من هذا القبيل». وقد ترك رجل العصابة وراءه ابنة مريضة. فاعتنى تشارلي بالابنة دون أن يرسل فاتورة أبدًا طوال فترة قضاء والدها لعقوبته. «لم يكن لديه مال، فلم أطلب منه أجرًا».

وفي وقت لاحق، عندما أقام تشارلي حفلة كبيرة أخرى، تذكّر صديق رجل العصابات الذي كان لديه ابنة مريضة. أوضح لي: «بعد أن أنهى رجل العصابات عقوبته، أصبح حرًا. كنت بحاجة إلى بعض التسلية، فاتصلت به وقلت: هل يمكنك أن توفر لي بعض وسائل التسلية؟

فقال: «بالطبع»، ثم أرسل لي شاحنة بها آلة لعبة الكرة والدبابيس (البينبول) وآلة كرات الحظ المزودة بذراع تشغيل».

كانت الحفلة رائعة، حيث استمتع الجميع باللعبتين، وفي صباح اليوم التالي اتصل تشارلي لترتيب عملية التسلم: «قلت، لقد قضينا وقتًا رائعًا يا جوني. تعال لاسترجاع الآلتين. فرد: لقد قال لي الأولاد إنه يمكنك الاحتفاظ بها».

كان رجل العصابات على وشك إنهاء المكالمة، فقلت: «انتظر يا جوني!» لم يكن تشارلي يريد أن يكون مدينًا لرجل العصابة، فقد تخيل في تلك اللحظة أن يتم استدعاؤه في مهمة طبية، ليكتشف أن «أصدقاءه» يتوقعون منه التستر على جريمة قتل.

لكن الرجل لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه. وأردف: «يمكنك الاحتفاظ بهما أيها الطبيب»، وسواء بسبب خوف تشارلي من الإصرار أكثر من ذلك على الرجل، أو تسليمه بحقيقة أن امتنان جوني كان مؤثرًا، حتى إن لم يكن الطرف الممتن بريئًا من الناحية الأخلاقية، فلقد رأيت بنفسى بعد خمسة وسبعين عامًا أن آلة كرات الحظ كانت لا تزال في قبو تشارلي.

كانت قصص تشارلي في الغالب دائمًا واقعية ودقيقة.



في إحدى المرات الأخرى التي تم استدعاؤه فيها إلى حي ليتل إيتالي، قررت ميلدريد أن ترافق تشارلي وتنتظر في السيارة بينما صعد تشارلي إلى الطابق العلوي. خلال فحصه، بدأ يسمع بعض الضوضاء بشكل غير واضح في الخارج. عندما ركز سمعه، أدرك أن الصوت كان بوق سيارة.

بوق سيارته.

اعتذر وأسرع إلى الخارج؛ ليجد ميلدريد تضغط على البوق في خوف، بينما كان رجلان يتصارعان ويتبادلان اللكمات فوق غطاء السيارة. قالت ميلدريد إنها ظنت أنه لن يأتي أبدًا. كان تشارلي يجد نفسه ينقذ ميلدريد بشكل متكرر، وليس فقط من الغرباء المتشاجرين. كانت ميلدريد تخوض صراعات داخلية لم يفهما أي منهما. وصارت حياتهما الزوجية لغزًا، دون أن يكون لدى أي منهما المفتاح لحله.

لا بد أن حياة زوجة الطبيب الجديدة في فترة الكساد كانت بعيدة كل البعد عن الصورة التي كانت تتخيلها الفتاة المراهقة، فنادرًا ما كان الزوج في المنزل، إذ كان مكرسًا نفسه بالكامل لعمله. كان يلتقي بالمرضى في مكتب صهره كل صباح، ويقوم بزيارات منزلية في فترة بعد الظهر. وكان يجيب على المكالمات طوال الليل، وكانت إدارة المبنى الذي يسكن به قد عينته طبيبًا متاحًا في حالات الطوارئ. رغم كل هذا العمل، لم يكن تشارلي يحرز تقدمًا. كان يحصل في المقابل على صناديق من البيض وصفائح من البنزين، وماكينات ألعاب حظ فائضة ونسخ قديمة من الموسوعات.

يمكنني أن أتخيل وحدتها. فقد تركت ميلدريد والديها في وقت مبكر كثيرًا لتعيش بمفردها في مدينة كانساس الواسعة، كانت شابة تمتلئ حيوية وحماسًا، فكَبَلها الزواج وجعلها ضجرة ووحيدة. لقد رأيت الصور التي احتفظ بها في ألبومه، والتي تظهرهما وهما يصطادان ويتنزهان معًا. لكن الصور الفوتوغرافية كانت شيئًا مختلفًا في الثلاثينيات عما هي الآن. فقبل اختراع الهواتف الذكية والقدرة على التقاط ألف صورة دون تردد، كانت أفلام التصوير مكلفة، وكانت كل لقطة لها قيمتها. لم يكن أحد يلتقط صورًا للحظات العادية. فكان التصوير خاصًا للحظات المميزة؛ لذا عندما رأيت صورة في ألبوم تشارلي، وهي توثيق باللونين الأبيض والأسود لأشعة الشمس المتراقصة على مجرى مائي قبل ما يقرب من قرن، وكانت هذه النزهة بجانب الماء، وكان تشارلي يبدو مسترخيًا وكانت ميلدريد مبتسمة، بدأت أشك في أن مثل هذه اللحظات كانت نادرة.

كان تشارلي متحفظًا جدًا بشأن تفاصيل زواجه من ميلدريد. لكن مع تعمق صداقتنا، وبعد أن أصبح بإمكاننا مشاركة لحظات الألم والفرح الخاصة بنا، سمح لي تشارلي برؤية لمحات قصيرة عن مدى صعوبة تلك السنوات. أحيانًا كان يعود إلى المنزل بعد العمل ليجد ميلدريد في حالة انهيار، وأحيانًا أخرى بعد يوم طويل، كانت تختفي دون أن يكون لديه أية فكرة عن مكانها. وقد أبرزت حقيقتان شاركتها تشارلي معي كيف ساءت الأمور بشكل كبير وسريع.

الأولى هي أن تشارلي أخبرني بأنه قرر في وقت مبكر جدًا أن زوجته لم تكن مستقرة نفسيًا بما يكفي لتربية أطفال. كانا شابين في ريعان شبابهما وفي أنسب سنوات إنجاب الأطفال، ولكن منذ تلك اللحظة حرص تشارلي على ألا ينجبا. لم يشارك تشارلي التفاصيل معي، ولكن بصفته طبيبًا، كان يفهم دورة الخصوبة وطرق منع الحمل المتاحة أفضل من معظم الناس. لم يستطع ذلك التصميم أن يخفف من شعور ميلدريد بالعزلة أو الوحدة.

والحقيقة الصعبة الثانية هي أن ميلدريد قضت عدة فترات في عيادة عائلة ميننجر في توبيكا في ولاية كانساس، على بعد نحو 100 كم غرب مدينة كانساس، وذلك للعلاج من إدمان الكحول.

في الوقت الذي كانت فيها العلاجات المتاحة للأمراض النفسية والإدمان بدائية وأحيانًا قاسية، كانت عائلة ميننجر من الرواد في هذا المجال. كانت البيئة الهادئة والريفية للعيادة في المزرعة الكبيرة تهدف للعلاج والشفاء، وليس للسجن. وقد تم تدريب كل فرد من الموظفين، من البواب إلى المدير التنفيذي، ليكون جزءًا من العملية العلاجية. كان المرضى يمكثون أحيانًا لشهور. وقد شارك كارل ميننجر، وهو أكثر أفراد العائلة شهرة، خبرته مع جمهور محلي عريض على المستوى الوطني من خلال أعمدته الشهرية في مجلة ليديز هوم جورنال الشهيرة.

عندما كانت ميلدريد تعود إلى المنزل بعد إقامتها في العيادة، كانت تبدو أكثر ثباتًا - ولكن لم يكن ذلك يدوم طويلًا. لم يتغير شيء في المنزل. كان تشارلي لا يزال يعمل لساعات

طويلة. كان المرضى لا يزالون غير قادرين على الدفع. كانت ميلدريد لا تزال امرأة شابة متقلبة المزاج، لم يمضِ وقت كثير على خروجها من مرحلة الطفولة. فإذا كانت تريد أطفالاً، فقد قرر تشارلي أن يكون حذرًا جدًا وعقلانيًا جدًا وناضجًا بما يكفي ليمنع ذلك، أو ربما كان لا يزال متأثرًا بشدة بوفاة والده لدرجة أنه لم يكن مستعدًا لجلب طفل إلى عالم مليء بالغموض والشكوك. بالنسبة لميلدريد، كانت العودة إلى المنزل تعني العودة إلى الملل والوحدة في المدينة التي يحكمها توم بينديرجاست.

بعبارة أخرى، توقفت ميلدريد عن معاورة الشراب مؤقتًا لكنها لم تقلع تمامًا. عندما تحدث تشارلي عن تلك السنوات، اعترف بأنه شعر بالعجز. وأعتقد أن هذا كان أصعب اعتراف بالنسبة لتشارلي.



تفاقت مشكلاته عندما لاحظ رجال بندرجاست أن طبيبًا شابًا في المدينة، وهو رجل ذو شارب كان يطلقه ليبدو أكبر سنًا، كان جمهوريًا بشكل علني. ولد تشارلي في إلينوي، وهي ولاية جمهورية، بغض النظر عن أسلافه المتمردين. وقد نُصح تشارلي عبر قنوات شبه رسمية بأنه سيكون من الحكمة أن يغير انتماءه السياسي إذا أراد الحفاظ على امتيازاته الثمينة في المستشفى العام، لكن تشارلي رفض. فجاءه الرد بأنه قد يتم التفاوض عن انتمائه السياسي إذا تبرع بجزء من دخله للنظام، مثلما كان يفعل باقي موظفي المدينة. فرفض تشارلي مرة أخرى.

كانت الرشاوى في المستشفى شائعة للغاية لدرجة أنها تحولت في النهاية إلى فضيحة كبيرة. لكن بالنسبة لتشارلي، كانت المسألة بسيطة. فلم يكن ليخضع للضغوط، وقد دفع ثمنًا باهظًا نتيجة تمسكه بمبادئه. فتم سحب امتيازات قبوله في المستشفى، وبذل جهدًا كبيرًا للالتحاق بمؤسسة أخرى. انتهى به المطاف في مستشفى سانت جوزيف، وهو مبنى

من الطوب الأحمر مكون من ثلاثة أجنحة على شكل حرف Y، مع صفوف من النوافذ المقوسة التي تمتد على طول الطابق الأعلى تحت إفريز بارز. وقد بُني المستشفى على بعد بضعة مبانٍ شرق منزل طفولة تشارلي، وكان معلمًا آخر قد رآه تحت الإنشاء. إن ما كانت تسميه مدينة كانساس «تاريخًا»، كان تشارلي يسميه «حياة».



عندما وصل أدولف هتلر إلى السلطة في ألمانيا عام 1933، بدأ الأمريكيون يستفيقون على خطر نشوب حرب عالمية أخرى. حاول الانعزاليون درء ذلك، وأصروا على أن الولايات المتحدة ليست لديها مصالح وطنية في أوروبا. كل عام كانت هذه الفكرة تتضاءل شيئًا فشيئًا. تسلط كلمات ليون تروتسكي الضوء على أواخر الثلاثينيات. فقد لا تكون مهتمًا بالحرب، كما قال الثائر الروسي متنبئًا، لكن الحرب مهتمة بك.

وبالنسبة لتشارلي، فقد أظهرت الحرب اهتمامها به عندما جاء ممثل من الجيش إلى المستشفى وقال: «نود تسجيل مستشفى سانت جوزيف كوحدة. إذا اندلعت حرب أخرى، فسوف تذهبون جميعًا معًا» وبدا العرض بسيطًا وواضحًا بما فيه الكفاية، وكانت فكرة الخدمة إلى جانب أصدقاء من مدينة كانساس مغرية في حال حدوث الأسوأ.

كان من المنطقي التخطيط للأوقات الصعبة. فقد كان ذلك زمن الكساد الكبير وعصر ستالين وهيروهيتو. قال تشارلي متذكرًا: «لذلك انضمنا إلى الجيش النظامي كاحتياطيين». لم يقيم فريق مستشفى سانت جوزيف بأي شيء آخر. لم تكن هناك اجتماعات أو جلسات تدريبية. استمرت حياة تشارلي كما كانت من قبل: طبيب يكافح لتحقيق النجاح في ظل الكساد الكبير، وزوج يحاول إنقاذ زواجه غير السعيد. بعد سنوات من الجهد، أصبح لدى تشارلي الكثير من المرضى، وكان نصفهم يدفعون في الوقت المحدد.

ثم اجتاحت اليابان شرق آسيا. وفي عام 1939، غزت ألمانيا بولندا، ثم احتلت فرنسا في عام 1940، وأخرجت بريطانيا العظمى من أوروبا. هكذا استدعي جنود مستشفى سانت جوزيف الاحتياطيون للخدمة العسكرية.

قال تشارلي: «ولكن ليس كوحدة واحدة كما وعدونا»، كان لا يزال مستاءً حتى بعد مرور عقود؛ لأن عرض الذهاب كفريق واحد قد تبخر ببساطة. استدعي تشارلي بمفرده إلى «مستشفى كانوا يبنونه في منطقة أوزارك. لم أعد أتذكر التفاصيل الآن. كان مستشفى كبيرًا، فركبت سيارتي وذهبت إلى هناك، لأجد نحو خمسة عشر إلى عشرين طبيبًا جالسين لا يفعلون شيئًا».

كان الأطباء يعبرون عن مشاعر تشارلي نفسها، فلم يكن هناك أي مستشفى ينتظرهم. لم يكن لديهم أي عمل يقومون به. قالوا: «نحن لا نفعل شيئًا. لقد أخذونا من أعمالنا، ولا يوجد حتى مستشفى جاهز حتى الآن».

فزار تشارلي الضابط المسئول وأعرّب عن إحباطه من استدعائه دون أن يكون هناك أي عمل حقيقي. فقال له الضابط: «أيها الملازم، إذا لم يعجبك الأمر، فاستقل».

فاستقال تشارلي.

أخبرني: «ذهبت إلى سانت لويس واستقلت من الجيش. لكن لم يستمر ذلك طويلًا، فقط بضعة أشهر، حتى تصاعدت الحرب مرة أخرى، إذ وقع هجوم بيرل هاربور».

وبينما هرع الرجال والشباب من جميع أنحاء البلاد إلى مكاتب التجنيد، كان تشارلي يواجه قرارًا صعبًا، فقد كان في سن السادسة والثلاثين، وكان بإمكانه البقاء في كانساس في زواجه المضطرب وعمله الطبي المتنامي. سوف يذهب زملاؤه الأصغر سنًا إلى الحرب، ويمكنه أن يتولى علاج مرضاهم. ستزدهر ممارسته الطبية بكل تأكيد. أو يمكنه أن يذهب للخدمة، ويترك مرضاه يذهبون إلى الأطباء المتبقين.

وأصبح الاختيار مرتبطًا بمسألة تقديره لذاته. قال: «لقد شعرت بأنني كنت جبانًا عندما استقلت من الجيش. لذلك حاولت العودة إلى الخدمة مرة أخرى. قدمت طلبًا للالتحاق بالبحرية، فأجابوا: نظرك ليس مثاليًا، لا يمكننا قبولك. لا أستطيع أن أتخيل لماذا يحتاج طبيب إلى عينين مثاليتين، لكنهم قالوا: لا.

فذهبت إلى القوات الجوية للجيش، فقبلوني على الفور. بل حصلت في الواقع على ترقية. فلقد استقلت وأنا في رتبة ملازم، وعندما عدت، منحوني رتبة نقيب».

الثامن

وجدت أنه من المثير للاهتمام أن تشارلي كان يشعر بالقلق حول انطباع الآخرين عن شجاعته بسبب استقالته كجندي احتياطي من الخدمة العسكرية. فلا يوجد أي شيء في قصة حياته يوحي بافتقار الشجاعة البدنية أو النفسية. بل على العكس تمامًا: بدءًا من صباه عندما كان يقفز من ترام إلى آخر، مرورًا برحلته الخطيرة في العربة المكشوفة في القطار؛ ومواجهته لعميد جامعة نورث وسترن، وصولًا إلى تجربته في نقل الدم لمجرم يحتضر، في كل مرة كان دافع تشارلي هو تجاوز أية مخاوف طبيعية قد تعتريه، ليأخذ المبادرة ويغتنم الفرصة، وبالطبع كانت الخدمة العسكرية تنطوي على مخاطر. لكن العمل طبيبيًا في أوقات الحرب لا يختلف كثيرًا من حيث مستوى الخطر عن الاستجابة لاستدعاءات حالات الطوارئ ليلاً في شوارع مدينة كانساس التي كانت تحت سيطرة جوني لازيا.

كلما زادت معرفتي بالأمر وتعمقت في التفكير فيه، أدركت أن ما كان يتحدث عنه تشارلي لم يكن الخطر على حياته. كان الخطر الأكبر من مغادرة مدينة كانساس لخدمة بلاده يتمثل في التهديد الذي يشكله ذلك على مسيرته المهنية، وربما أيضًا على زواجه الذي كان يواجه صعوبات، فقد كان من السهل نسبيًا أن تترك وظيفة ذات راتب ثابت أو عمل بدخل منتظم للانتحاق بالخدمة العسكرية. فقد يُعيد صاحب العمل الجندي إلى وظيفته بعد انتهاء الحرب، أو قد تكون هناك فرصة عمل أخرى متاحة في مكان آخر. كان هذا هو الموقف الذي واجهه جدي عندما ترك عمله مدير محطة سكة حديد لخدمة بلاده في الحرب العالمية الثانية، فقد كان بإمكانه أن يثق بأن وظيفته، أو أية وظيفة أخرى مشابهة لها، ستظل متاحة عندما يعود إلى المنزل، ولكن لم يكن لدى تشارلي رب عمل ليعود إليه، فقد كان يعيش على الأجور التي يتحصل عليها من المرضى، وإذا انتقل هؤلاء المرضى إلى

أطباء آخرين، كان سيجد نفسه مجبرًا على العودة إلى حيث بدأ، ويعيد البناء من نقطة الصفر. كما لم يكن بوسعهم أن يثق في أن ميلدريد ستكون في انتظاره عند عودته، رغم أنه وجدها في النهاية في انتظاره بالفعل.

كان تشارلي يخاطر بحياته، بمعنى أنه كان يخاطر بالحياة التي بناها لنفسه، ويستطيع الكثيرون اليوم أن يتفهموا خوفه. إن قاتل المهن في القرن الحادي والعشرين ليس الحرب العالمية؛ بل الثورة الرقمية التي تلتهم صناعات كاملة وقطاعات من الاقتصاد. خذ مجالي الخاص مثالاً على ذلك: في عام 2008، كانت الصحف توظف ضعف عدد الأشخاص في غرف الأخبار المطبوعة والرقمية الخاصة بها مقارنة بالعدد في عام 2020، وقد اختفى نصف عدد الموظفين في غضون اثني عشر عامًا، وكانت لهذه الخسائر الضخمة في الوظائف أكبر الأثر على الأشخاص بين الثلاثين والخمسين عامًا، وهي المرحلة العمرية نفسها التي وصل إليها تشارلي عندما أغلق عيادته والتحق بالقوات الجوية، وتكرر هذه القصة مرارًا؛ فهناك عمال المتاجر الكبرى الذين تم استبدال التجارة الإلكترونية بهم؛ وسماسرة البورصة الذين حلت محلهم منصات التداول، وعمال المصانع الذين حلت محلهم أجهزة الروبوت، وموظفو المحاسبة في المتاجر الذين تم الاستغناء عنهم واستبدال أكشاك المسح الذاتي بهم، وهكذا دواليك.

من الطبيعي أن يشعر الإنسان بالقلق وحتى بالخوف في ظل هذه الدرجة الكبيرة من عدم اليقين. لكن تشارلي الذي كان ينتهج الفلسفة الرواقية فهم أن عدم اليقين جزء من الموقف كله. حتى عندما نكون في ذروة ثقتنا أو رضانا، فإننا لا نتحكم سوى في خياراتنا الشخصية. نحن لا نعرف أبدًا ما ينتظرنا من تحديات أو حيرة أو عراقيل.

تذكرت منذ فترة ليست ببعيدة، قصة ترافيس روي لاعب هوكي الجليد الشاب المتألق الذي دخل الجامعة كأحد أكثر الرياضيين جذبًا للفرق الرياضية في أمريكا الشمالية. في عام 1995، حصل طالب السنة الأولى الوسيم والقوي على مكانه في التشكيلة الأساسية لفريق جامعة بوسطن؛ حامل لقب البطولة الوطنية.

وبعد إحدى عشرة ثانية فقط من بداية أول مباراة له مع فريق التيريزز، ارتطم رأس روي بالحواجز، وكسر عموده الفقري عند الرقبة، وفي ثوانٍ معدودة، وهو الوقت الذي قد تستغرقه لفرقة أصابعك، كانت حياته كواحد من نخبة الرياضيين قد انتهت، وهو احتمال لم يتخيله أبدًا. إحدى عشرة ثانية فقط فصلت بين قمة عالية في حياته، لحظة انطلاق مبارياته الأولى في مسيرته في الفرق الجامعية التي كان يُنتظر أن تكون مميزة، وأن تليها سنوات في الدوري المحترف، وبين نهاية كل شيء.

إحدى عشرة ثانية فقط.

ونحن جميعًا في الحقيقة، مثل ترافيس روي، على بعد لحظة واحدة مفاجئة قد تؤدي إلى تغيير جذري في حياتنا. من غير الصحي أن نفرط في التفكير في ذلك، لكن من الجيد أن نتذكره، وكما قال ماركوس أوريليوس في كتاباته التأملية: «فكّر في مدى سرعة زوال كل الأشياء الفانية». وفي الوقت نفسه تقريبًا، في التبت البعيدة، كتب مؤلف أحد نصوص الفلسفة البوذية الشيء نفسه:

كل ما تم اكتسابه سيضيع

ما يرتفع سيسقط

حيثما يوجد لقاء، سيكون هناك انفصال

ما يولد سيموت بالتأكيد

إنها الحكمة الكونية على هذا الكوكب الثمين، كوكب الأرض - الكوكب الوحيد الذي نعرفه حيث تكون الحياة والحب والفرح أمورًا ممكنة - حيث لا يوجد شيء دائم. وسواء كانت رحلة حياتنا طويلة مثل رحلة تشارلي، أو قصيرة فهي لا تتعدى وكونها اهتزازة طفيفة على وجه الزمن، وبدلاً من أن يشلنا الخوف من حقيقة لا يمكن لأحد تغييرها، من الأجر

بنا أن نسعى لإيجاد وتغذية ذواتنا القوية، الهويات التي يمكننا الوثوق بأنها ستكون جديرة بالثقة مهما كانت التحديات القادمة. أعماق النفس. ذاتنا الحقيقية.

وقد وجد ترافيس روي، الذي كان شبه مشلول من الرقبة إلى الأسفل، أن مواهبه تتجاوز اللياقة البدنية. كان موهوبًا في التفاؤل والعزيمة، وعندما لم يعد قادرًا على التعبير عن هذه الصفات على الجليد، عبر عنها من خلال الخطابات التحفيزية، وجمع التبرعات للأعمال الخيرية، ومن خلال الطريقة النبيلة التي واجه بها تحدياته. وقد جذبت قوته وشخصيته آلاف الأشخاص إلى الأعمال القيمة التي دعمها، وبعد وفاته في عام 2020 عن عمر ناهز خمسة وأربعين عامًا، كتبت في عمود صحفي: «لم يكن لدى روي نية لطرح أسئلة وجودية عندما خاض مباراة ضد فريق نورث داكوتا، ولكنه بعد 11 ثانية، وضع هذه الأسئلة أمامنا: إذا تم تجريدي من كل المظاهر، ولم يتبق سوى ذاتي الحقيقية، فمن سأكون؟ هل أعيش بكامل ذاتي في كل لحظة؟ وعندما تنتهي، هل ستكون قصتي ذات معنى؟»

وقد درس العلماء على مدى نصف القرن الماضي العلاقة بين الخوف والشجاعة، وما توصلوا إليه يميل إلى تأكيد حكمة الفلاسفة القدماء. توصل عالم النفس إس. جيه. راشمان في كتابه الرائد Fear and Courage إلى أن الخوف يتألف من ثلاثة مكونات. الشعور بالتوجس، والاستجابة الفسيولوجية (مثل خفقان القلب، أو اضطراب المعدة، أو القلق)، والتغيير في السلوك للهروب من الخوف وتهدئة الاستجابة. وأضاف راشمان أن الشجاعة قرار متعمد لتجاوز التغيير في السلوك الذي يشكل جزءًا من الخوف. فالإنسان الشجاع يواجه الخوف، بدلًا من محاولة الهروب منه.

بعبارة أخرى، لا توجد شجاعة بدون خوف. من لا يشعر بالخطر لا يشعر بأي خوف، ومن لا يشعر بالخوف لا تكون لديه الرغبة في الهروب، فانعدام الخوف وفقًا لمصطلحات راشمان لا يعد شجاعة، بل ببساطة هو جهل بالخطر.

اعتبر الفلاسفة الرواقيون الشجاعة واحدة من أهم الفضائل الأربع الأساسية، إلى جانب العدالة والحصافة وضبط النفس، فيما تدعم الفضائل الأقل أهمية هذه الفضائل الأربع. تتطلب الشجاعة الاستعداد لاختيار الطريق الصحيح حتى عندما يكون صعباً أو مرهقاً، والاجتهاد في متابعة هذا الطريق، والثبات في الاستمرار عليه، والصلابة لتحمل أية صعوبات قد تطرأ على طول الطريق.

عندما كان تشارلي قلقاً حول مدى شجاعته، أعتقد أنه كان يعني أنه فقد شجاعته الرواقية للحظة. لقد تراجع عن قناعته بأنه لا شيء مؤكد، ولكنه سرعان ما استعاد اتزانه، وبمجرد أن فكر في الأمر ملياً، أدرك أن البقاء في المنزل بعيداً عن الحرب لن يضمن أي شيء. فقد تؤدي أية مفاجأة قدرية أخرى بسهولة إلى حرمانه من ممارسته الطيبة أو زواجه، أو كليهما. فهو لم يكن يتحكم في النجاح أكثر من تحكم طفل صغير في عودة والده إلى المنزل سالمًا من العمل. لكنه كان قادرًا على القيام بالأمر الصائب، وهو التطوع للخدمة العسكرية في أوقات الحرب، وتأديتها بشكل جيد، مع الوثوق بأن النتيجة ستكون أفضل ما يمكن تحقيقه.

وقد كانت كذلك بالفعل.



قبل فترة قصيرة من ولادة تشارلي، قام أورفيل رايت بأول رحلة طيران له، حيث قطع مسافة 31 مترًا من الكثبان الرملية التي تعصف بها الرياح في ولاية كارولينا الشمالية في اثنتي عشرة ثانية باستخدام الطاقة الميكانيكية. كان تشارلي طفلاً رضيعاً في أكتوبر من عام 1905، عندما قام شقيق أورفيل، ويُدعى ويلبر، بأول رحلة حقيقية، حيث قطع مسافة كبيرة (أكثر من 38 كم) بدءاً وانتهاءً من المكان الذي اختاره بالضبط. كان العالم قد تغير. فخلال اثني عشر عامًا، كانت القاذفات تبلي أوروبا بالموت، والطائرات تصير بحلول ثلاثينيات القرن العشرين أدوات للعنف العشوائي التي لا تميز بين أحد. كان مهندسو

الجيش الأميركي يدركون تمامًا أن العالم يتجه نحو حرب أخرى، وأن الطائرات ستكون في قلب هذه الحرب، فبدأوا في التنقيب في البلاد بحثًا عن أرض مناسبة لبناء مطارات ومعسكرات تدريب لجحافل الطيارين والملاحين وقاذفي القنابل والميكانيكيين الذين سيكونون مطلوبين لخوض حرب حديثة.

كان أحد المواقع التي اختاروها يقع في أرض منخفضة جافة بين مدينة سولت ليك بولاية يوتا وبحيرة سولت ليك الكبرى. وقد نزلت المعدات الثقيلة إلى الموقع فورًا بعد أن هاجمت اليابان بيرل هاربر، وتم بناء المدينة ومطارها في غضون أسابيع، وعندما هبت رياح الربيع الحتمية، ارتفعت عواصف الغبار بكثافة لدرجة أن الشاحنات والسيارات من نوع الجيب كانت تتحرك ببطء عبر السهل، وكانت أضواؤها الأمامية مضاءة في منتصف النهار. ملأت الرمال والغبار أكياس النوم وأدوات الطعام وعيون الأشخاص وآذانهم، ووسط سحب الغبار في قاعدة كامب كيرنز الجوية للجيش، جاء الكابتن تشارلز وايت.

أخبرني تشارلي متذكرًا: «كانوا يبنون مستشفى هناك، وكنت أحد الأطباء الأوائل. عندما تنضم إلى الخدمة، تخبرهم بجميع الأشياء التي قمت بها، ومن بين كل الأشياء التي ذكرتها، أخبرتهم بأنني سبق لي العمل في التخدير.

فقالوا لي: «أنت رئيس قسم التخدير. وجعلوني أيضًا رئيس المختبر، وكان عليّ أن أذهب إلى المدينة وأستعين بفنيين لإدارة المختبر. هذه هي طريقة الجيش. إنهم لا يهتمون بالخبرة، ولقد عانينا كثيرًا في قسم الأشعة في محاولة تدريب أشخاص ليصبحوا مختصين، ولا بد أن عشرة أو خمسة عشر شخصًا مختلفًا قد مروا من هناك. وكان عليّ أيضًا أن أتابع سيارات الإسعاف، وأتأكد من أنها نظيفة وتعمل بشكل صحيح، وكنت كذلك الطبيب الشخصي للضباط؛ فالجيش يعطيك الكثير من العمل».

بعد اثني عشر شهرًا من هجوم بيرل هاربر، أصبح كامب كيرنز موطنًا لنحو أربعين ألف متدرب وضابط، يسكنون في صفوف متتالية من الثكنات البسيطة، التي كانت موزعة بشكل واضح على أرض خالية تمامًا. كان عالم تشارلي يدور حول المستشفى، التي كانت

عبارة عن منشأة كبيرة، تضم أكثر من ألف سرير، ولكن الحالات الطبية لم تكن مثيرة للاهتمام. كان يعالج في الغالب أمراض الشباب الأصحاء: الجروح والحروق وكسور العظام وضربات الشمس والالتهابات الرئوية الخفيفة والعديد من الأمراض المعدية، وكان كثير منها منقولاً جنسياً، فقال: «كان جو العمل يسوده بعض المرح».

عندما قال لي تشارلي ذلك لأول مرة، شعرت بالدهشة، ولكن في وقت لاحق، رأيت ذلك من أكثر ما قاله تشارلي اتفاقاً مع شخصيته. كانت الحرب العالمية الثانية بمثابة «نوع من المرح». كان تشارلي يجد المرح أينما كان. ففي كامب كيرنز، كان من الممكن العثور على قدر كبير من السعادة في دفتر حصص البنزين الخاص بتشارلي. فبصفته الطبيب الشخصي لضباط المعسكر، كان لتشارلي الحق في الحصول على كمية غير محدودة من البنزين، على الرغم من الحدود الوطنية الصارمة على الاستهلاك. وقد كان لديه هو وأصدقائه في طاقم المستشفى «عطلات نهاية أسبوع»، يقضونها في جبال واساتش الخلابة، التي تقع على الجانب الآخر من مدينة سولت ليك (التي لم تكن كبيرة جداً في تلك الأيام)، وترتفع بشكل حاد إلى الشرق من المدينة. كانت المسافة من المخيم إلى مسارات التزلج في ألتا تستغرق أقل من ساعة بالسيارة. ومع انتظام تشغيل المستشفى الأساسي بحلول خريف عام 1942 وسقوط الثلوج بانتظام في الجبال، أصبحت مسارات التزلج تغري المتزلجين. أخبرني تشارلي وهو يضحك: «أعطوني كل البنزين الذي أردته. كنت أحمل رفاقي في سيارتي، ونتوجه للتزلج في نهاية كل أسبوع».

لكن ما يهمنا أكثر عن هذه الفترة ليس المتعة التي تمكن تشارلي من العثور عليها، بل الطريقة التي انفتحت بها على التغيير. كانت الحرب العالمية الثانية واحدة من أقوى محركات التغيير في التاريخ. لقد تتابعت الابتكارات بسرعة مذهلة في مجالات الهندسة، والتصنيع، والخدمات اللوجستية، والنقل، والاتصالات، والحوسبة، والعلوم الفيزيائية – والطب، وكان هناك تطوران كبيران في مجال الطب أثرا بشكل مباشر على الكابتن وايت ومسيرته المهنية المهددة، وقد انفتحت على كليهما.

كان أولها هو الإنتاج الضخم للبنسلين، وهو المضاد الحيوي الذي كان بمثابة ثورة في الطب. كان العالم البريطاني ألكسندر فليمنج قد اكتشف هذا المركب القوي الغريب مصادفة في عام 1928. فقد كان يزرع البكتيريا في أطباق بتري في مختبره لأغراض الدراسة، وفي أحد الأيام، شعر بالانزعاج عندما اكتشف نمو العفن على إحدى عينات البكتيريا، لكن عندما أمعن النظر، لاحظ أنه في الأماكن التي كان ينمو فيها العفن، لم تنج أية بكتيريا. يا لها من لحظة رواقية: لقد دُمِرت تجربة فليمنج، ولكن لأنه كان يبذل قصارى جهده مع الشيء الذي كان بإمكانه التحكم فيه - ألا وهو تركيزه، وانتباهه، وقدرته على التحليل - توصل إلى اكتشاف أعظم بكثير.

كانت الآثار المترتبة على ذلك هائلة، إذ استطاع الأطباء القضاء على البكتيريا الضارة، فقد يتمكنون أخيرًا من علاج العديد من العدوى القاتلة التي كانت تقابلهم بانتظام مثل التسمم الدموي، والالتهاب الرئوي، والإصابات بالبكتيريا العنقودية، وكان التحدي يتمثل في إنتاج أقوى أنواع البنسلين الممكنة وإعداده بكميات كبيرة.

من المدهش أن هذا التحدي تم تجاهله إلى حد كبير — «وذلك من مساوئ الأبحاث الطبية»، حسب وصف كاتب العلوم والديمار كامفرت — طوال معظم الثلاثينيات وحتى اندلاع الحرب. كانت الحرب التي هي بمثابة عامل رئيسي لنقل العدوى، قد ألهمت الحكومات في إنجلترا والولايات المتحدة لتسريع أبحاث البنسلين بشكل كبير، وسرعان ما بدأت المختبرات الدوائية في إنتاج العفن المعجزة بكميات ضخمة.

كان وصول المضادات الحيوية بمثابة نعمة فورية للبشرية، حتى إن ونستون تشرشل اقترح أن يتم الاحتفاء بـ«البنسلين» بإخلاص لم يسبق له مثيل. ومع ذلك، فقد أحدث هذا التقدم في الوقت نفسه ثورة في ممارسة الطب بطرق أدت إلى القضاء على أسلوب تشارلي في ممارسة الطب. فكما أوضح، لم يكن تشارلي يعالج الأمراض - ولم يكن هناك أطباء يعالجون الأمراض قبل عصر المضادات الحيوية. كانت مهارته الأساسية هي «أسلوبه في التعامل مع المرضى»، وهو مزيج من المعرفة والحس السليم واللفظ والثقة بالنفس

الذي كان يريح المرضى وعائلاتهم ويشجعهم، بينما تخوض المناعة الطبيعية معركتها وتفوز أو (تخسر). من دون وجود حبوب دوائية أو حقنة لتحقيق العلاج، كان الممارس العام الذي يقوم بزيارات منزلية يعتمد على أفراد الأسرة لتنفيذ التعليمات بعد مغادرته. وقد كان يجمع بين أدوار مدرب الصحة، والمحفز، والمستشار النفسي في شخص واحد.

بعد اكتشاف البنسلين، أصبح الطب عبارة عن علاجات وإجراءات أكثر من كونه مسألة رعاية ودعم. ولم يكتفِ العلم الطبي مرة أخرى بأن يترك الطبيعة تأخذ مسارها الطبيعي. كان تشارلي منتبهًا لإشارات التغيير، وأدرك أن أطباء المستقبل لن يكونوا ممارسين للطب العام، ولن يقوموا بزيارات منزلية ومعهم أدوات مهنتهم في حقيبة جلدية. بل سيكونون متخصصين يختارون مجموعة محددة من العلاجات أو الإجراءات ويبنئون حياتهم المهنية على تقديمها، وأن الخبرة المتخصصة ستكون هي السائدة في العصر المقبل.

لقد ذكرت أنه كان هناك تطوران رئيسيان، وهنا يأتي دور الثاني منهما.



لطالما كانت الحروب، بما فيها من عنف رهيب، بمثابة مختبر لإدارة الألم ولتقنيات إنقاذ الحياة والجراحة. أحدثت الحرب العالمية الثانية تحولًا كبيرًا في استخدام المسكنات والتخدير. فقد كانت حقيبة تشارلي الطبية في ثلاثينيات القرن العشرين تحتوي على زجاجة من الإيثير المخدر وعلبة لاستنشاقه، وكما رأينا، كان بإمكان أحد أفراد أسرة المريض أن يتعلم تشغيل الجهاز البسيط في غضون دقائق، ولم تكن هناك حاجة لخبرة خاصة.

كان هذا هو أحدث ما توصل إليه الطب في ذلك الوقت. فقبل عام 1939، لم يكن هناك أي متخصص معتمد في التخدير في الولايات المتحدة، فالأموال التي تم التبرع بها لجامعة هارفارد للحصول على درجة الأستاذية في هذا المجال تم تحويلها إلى عمل أكثر احترامًا.

يذكر جون اس. لندي من مايو كلينيك، والذي يُطلق عليه أحيانًا «أب التخدير الوريدي»، أنه قبل الحرب «كان يتم تشجيع الأطباء غير ذوي الكفاءة في الممارسة العامة أو في فروع أخرى من الطب على التخصص في التخدير»، إذ كان يُنظر إلى هذا التخصص على أنه طريق مسدود في المهن الطبية.

لقد أنتجت الحرب ترسانة من تقنيات تسكين الألم ومنعه، وأدى التقدم في جراحة الصدمات إلى تسريع استخدام الأنايب الرغامية لفتح الممرات الهوائية (وهي الأنايب التي يتم إدخالها من الحنجرة للرئتين لتوفير مجرى هوائي مباشر إلى الرئتين)، ودعم التنفس، وإعطاء التخدير. كما أتقن الأطباء استخدام ثيوبنتال الصوديوم والأدوية المخدرة الأخرى التي يتم إدخالها من خلال الخطوط الوريدية. وأدركوا قيمة الحاصرات الموضعية والإقليمية (العصبية) التي يمكنها منع الألم في منطقة معينة من الجسم دون الحاجة لتخدير المريض بالكامل.

لقد حدثت هذه التغييرات المذهلة بسرعة كبيرة لدرجة أن أحد زملاء لندي، ويدعى رالف توفيل، تم تكليفه من قبل وزارة الحرب لإجراء دراسة حول الحاجة إلى متخصصين في التخدير، وقد أوصى في تقريره الذي قدمه في أكتوبر من عام 1942، أي في الوقت الذي كان فيه تشارلي يكتشف منحدرات التزلج في ألتا، بضرورة توفير تدريب أكبر في مجال التخدير للأطباء العسكريين من جميع التخصصات بشكل عاجل. وتدخل توفيل شخصيًا، حيث قدم محاضرة مدتها ساعتان حول تقنيات التخدير لفرق العمل في المستشفيات عبر مختلف جبهات القتال في أوروبا، كما اجتمع مجلس البحوث الوطنية في الولايات المتحدة لتشكيل لجنة من الخبراء، بما في ذلك لندي من مايو كلينيك، لوضع دورة تدريبية مكثفة لمتخصصي التخدير.

لقد اغتنم تشارلي الفرصة وسعى نحو مستقبله.

بعد أن أخبرهم بخبرته مع استخدام الإيثير المخدر خلال تجنيده في سلاح الجو، تم تعيين تشارلي خبيرًا في التخدير في معسكر كيرنز، والآن ومع كل هذا الاهتمام المفرط

بعلم التخدير، تمت ترقية تشارلي وتكليفه بمهمة جديدة. فقد كان على المقدم وايت أن يرسل تقاريره إلى قاعدة لينكون الجوية بولاية نبراسكا. كانت المنشأة تجمع المتدربين من القواعد العسكرية عبر البلاد، وتشكلهم في وحدات قبل إرسالهم إلى مناطق القتال. أوضح تشارلي أن: «جميع الطيارين ومساعدى الطيارين وملاحى الطائرات قاذفات القنابل قد تجمعوا في لينكون». كانت مهمته أن يكون رئيس قسم التخدير في المستشفى الجديد للقاعدة العسكرية.

وقال تشارلي: «كنت سأصبح الرئيس الكبير، لكنني قلت: أنا لست مستعداً لهذا الدور بعد. سيكون عليكم تدريبي. لم أستطع أن أرفض الذهاب، لكن كان بإمكانى أن أقول: من الأفضل أن توفر لي التدريب المطلوب».

وهكذا وجد تشارلي نفسه في عام 1943 في مايو كلينيك في روتشستر بولاية مينيسوتا، ضمن قسم جون إس. لندي. كانت لجنة البحث التابعة لجون إس. لندي قد صممت دورة تدريبية مكثفة لمدة ثلاثة أشهر، تركز بشكل كبير على التجربة العملية بهدف تحويل ممارسي الطب العام إلى متخصصين في التخدير، وكان تشارلي من بين أول مجموعة من الأطباء الذين تلقوا هذا التدريب الذي أطلق عليه «معجزة التسعين يوماً». وقد اجتاز تشارلي الدورة بسهولة، وكان مفتوناً ومتحمساً بالأمر المتقدم التي كان يتعلمها، ثم سافر إلى لينكون ليكمل فترة خدمته لإنهاء الحرب.

هكذا حوّل تشارلي تهديد التغيير إلى فرصة للنمو والتطور. فلم يعد مجرد ممارس عام معرض للخطر يحاول التمسك بجزء غير مستقر من مجال يتراجع، ولكن بدلاً من ذلك، عاد إلى وطنه عندما انتهت الحرب باعتباره رائداً في تخصص جديد وسريع النمو – إذ كان أحد أوائل أطباء التخدير في مدينة كانساس، وحاصل على شهادة اعتماد من مايو كلينيك.

تجسد هذه الحلقة جوهر حياة تشارلي بالنسبة لي. فقد كانت الواقعية والتفاؤل يتناغمان بداخله بشكل قوي. يعتقد الكثير من الناس أن الواقعية، رؤية العالم كما هو، بكل ما فيه من ألم وتهديدات، تستلزم استجابة تشاؤمية. فهم يعتقدون أن المتفائل هو شخص

مخطئ ومخدوع، يسير بعينين مغمضتين عبر عالم قائم بابتسامة ساذجة. لكن تشارلي كان واقعياً بشأن الطريق المسدود الذي وصل إليه كطبيب وهو يحمل حقيبتته ويقوم بزيارات منزلية. لقد أدى البنسلين والأدوية التي تلتها إلى تغيير دور الطبيب، ومع ذلك كان متفائلاً بشأن البدايات والفرص الجديدة، ووثاقاً من قدرته على اغتنامها. كان تشارلي يقظاً للفرص الجديدة، وعندما رآها، استغلها بثقة.

يسعى الكثير من الناس في أوقات عدم اليقين، وهي لا تنتهي أبداً، إلى الحصول على الإجابات كلها دفعة واحدة. كيف ستشكل توجهات اليوم ملامح الغد؟ كيف ستبدو الحياة في المستقبل؟ ولقد تفهم تشارلي أننا لا نعيش في مستقبل العالم؛ بل نعيش في حاضرنا الخاص، داخل المنطقة الأصغر بكثير التي تشمل أفعالنا وإرادتنا الخاصة. لا يمكننا التحكم في الغد؛ وهذه هي الواقعية، ولكن التفاؤل يُعلِّمنا أن نترقب الغد، ونسعى لفهمه، ونسرع عندما يحين الوقت لنغتنمه، وربما حتى لنشكله.

انضم تشارلي إلى قوات الجيش الجوي الأمريكي في عام 1941 بشيء من الخوف حول ما قد يفعله ذلك بمسيرته المهنية، وغادر الخدمة في عام 1946 متحمساً للمرحلة التالية. استرجع ذلك بقوله: «بعد القنابل الذرية، لم تكن هناك حاجة كبيرة لفرق طيران جديدة؛ لذلك كنا نجلس في الأرجاء شاعرين بالملل لعدم وجود شيء نفعله». شعر تشارلي بأن وقت الانتظار للحصول على أوراق التسريح كان لا ينتهي، وكعادته، فعل ما بوسع.

أخبرني تشارلي: «كتبت رسالة طويلة»، وقد سرد في هذه الرسالة الأسباب التي تجعله قادراً على تقديم فائدة أكبر في الوطن بدلاً من إضاعة وقته في لينكون. وقد شك زملاؤه الضباط في الأمر عندما تمت الموافقة على تسريحه «في غضون أسبوعين». أشار زملاؤه الحاسدون إلى أن تشارلي لا بد أنه لجأ إلى الرئيس الجديد للولايات المتحدة، الذي جاء هو الآخر من مدينة كانساس، وقالوا: «أنت تعرف ترومان، وقد اتصلت بترومان».

وهذا أظهر مدى معرفتهم الضئيلة بمدينة كانساس. ففي الواقع، لقد تم طرد تشارلي من مستشفى كانساس العام بفضل توم بندرجاست، صديق ترومان وراعيه. قال تشارلي مصرّاً:

«لا يا رفاق، لقد أرسلت رسالة فقط، وأرسلتها عبر القنوات الاعتيادية.»

ومع ذلك، عاد تشارلي إلى منزله ولديه الأفضلية وهي الوقت الإضافي.



ارتدى ملابس العسكرية الخضراء، التي كانت تحمل الشارات التي تعكس ترقيته الأخيرة إلى رتبة مقدم، وذهب مباشرةً إلى مستشفى سانت جوزيف. أخبرني: «عندما وصلت إلى هناك، بدأ أصدقاؤني بتكليفي على الفور بمهام التخدير». ولقد كان تحوله من ممارسة الطب العام إلى التخصص في منتصف مسيرته المهنية ناجحًا تمامًا، وبدلاً من العودة إلى الوطن إلى طريق مسدود، وجد طريقًا جديدًا للتقدم.

أتمنى لو أنني تذكرت أن أسأل تشارلي عن شخصية مفقودة من قصة عودته: ميلدريد، ولا يسعني إلا أن أخمن أنها لم تكن تنتظره بصبر؛ لأن المنزل الذي استأجره بعد سنواتهما في فيلا سيرينا كان يسكنه مستأجرون من الباطن، ورفض المستأجرون في ظل نقص المساكن الشديد بعد الحرب العالمية الثانية إخلاء المنزل، وجد تشارلي غرفة في فندق هايد بارك وبدأ يبحث في المدينة عن سكن للإيجار، وعندما عثر على مكان متاح بعد شهور من البحث، أقنع مستأجري منزله بأخذه، واستعاد منزله أخيرًا.

عادت ميلدريد بعد فترة، لأنها ظهرت مجددًا في القمص التي رواها عن صعوده السريع في مجتمع الطب في مدينة كانساس، وقد أصبح تشارلي بفضل تخصصه الجديد وخبرته الإدارية خلال الحرب بمثابة القوة الدافعة لإدخال تخصص التخدير إلى ولايتي ميزوري وكانساس، وازدهرت ممارسته بشكل كبير؛ حيث كان أبرز جراحي المدينة يبحثون عنه للانضمام إلى فرقهم. كما نظم تشارلي في أوقات فراغه جمعية مهنية من أجل عدد الأطباء المتزايد الذين دخلوا هذا المجال بعده، وكانت ميلدريد تسهم كلما استطاعت في تنظيم

أنشطة لزوجات أطباء التخدير أثناء اجتماعات أزواجهن. (في ذلك الوقت، كان هناك عدد قليل من الطبيبات).

لكن كانت هناك أوقات عديدة لم تكن فيها ميلدريد قادرة على المشاركة. بمجرد أن أدرك تشارلي أن لديّ تجارب مع أحباء لي عانوا المرض النفسي وإدمان المخدرات، أصبح منفتحًا معي بشأن ألمه من معاناة ميلدريد، ومن معاناته هو أيضًا. أخبرني عن جهوده المستمرة لإيجاد المساعدة لزوجته في مراكز إعادة التأهيل التي كانت تُعرف آنذاك باسم «المصحات»، بما في ذلك عيادة ميننجر، وأصبحت فترات الإقامة تتكرر بشكل متزايد وتستمر لفترات أطول. قال تشارلي: «كانت حالتها غير مستقرة، إذ كانت تتحسن ثم تتدهور ثم تتحسن وتتدهور مجددًا. كانت تقول إنها تعاني قلقًا مفرغًا».

كان التشخيص الرسمي لحالتها هو نقص السكر في الدم، وهو الذي يمكن أن يؤدي إلى الاكتئاب والتهيج وفقدان الذاكرة والقلق والتشوش الذهني؛ لكن انخفاض نسبة السكر في الدم كان عرضًا لشيء آخر: وهو إدمان الكحول، والذي ربما كان مصحوبًا باضطراب في الأكل، وقد تفاقم بسبب حبوب الباربيتورات.

عادت ميلدريد إلى المنزل في أوائل عام 1948. تذكر تشارلي أنه أخذها في عطله إلى كوبا، حيث قضيا وقتًا رائعًا هناك، وعادا في أوائل أبريل لحضور اجتماع الفرع الإقليمي لجمعية أطباء التخدير الأمريكية. كان تشارلي أمين السر المحلي في ذلك العام، وكانت ميلدريد تستقبل زوجات الأطباء. وقد انتهى الاجتماع في 6 من أبريل بتناول مشروبات الكوكتيل والعشاء في فندق بريزيدنت الفخم في وسط مدينة كانساس.

كان اليوم حافلًا، وتعرّف الأطباء الحاضرون على أهمية أنابيب التنفس في جراحة الصدر. إذ أصبح من الممكن أخيرًا فتح الصدر دون التسبب في انهيار الرئتين، وهي تقنية تم تطويرها خلال الحرب، وأصبحت تنتشر في أنحاء البلاد وتنقذ الأرواح. وقد حذر المتحدث في العشاء الأطباء الحاضرين من أن الأساليب القديمة في ممارسة الطب لم تعد صالحة للتطبيق.

همست ميلدريد في منتصف الوجبة إلى تشارلي بأنها ليست على ما يرام. أخبرته أن بإمكانه البقاء، لكنها بحاجة إلى العودة إلى المنزل. وقد غادرت، لكنها لم تذهب إلى المنزل، فعندما وصل تشارلي إلى منزلها بعد بضع ساعات، كانت زوجته قد اختفت.

تم العثور على جثة ميلدريد في اليوم التالي في فندق جلادستون، الذي يبعد نحو ميل عن فندق بريزدنت وكان أقل فخامة منه بكثير. أخبرني تشارلي بأنها انتحرت بابتلاع جرعة قاتلة من الحبوب المنومة، وقد حصلت على تقرير الشرطة، والفضل في ذلك يعود لمهارة زوجتي في البحث والتحري. كانت كارين تعرف أن التقرير لا بد أن يكون موجودًا في ملف عتيق، وبصفتها مراسلة سابقة في البيت الأبيض، تابرت حتى عثرت عليه.

أجاب الضابط إلمر مورفي من قسم شرطة مدينة كانساس على مكالمة في الساعة 3:05 مساءً في 7 أبريل من عام 1948. أخبرت خادمة الفندق التي تُدعى بياتريس جينس الضابط مورفي أنها فتحت باب الغرفة 405 في الساعة 8:30 صباحًا لتنظيفها، لكنها أغلقته بسرعة بعد أن لمحت امرأة عارية على السرير. ثم عادت جينس قرب نهاية نوبتها، قبل وقت انتهائها مباشرة، أية في الساعة 3 مساءً. لكن الشخص النائم على السرير لم يكن قد تحرك. فأخبرت الخادمة مديرها، وتم استدعاء الشرطة.

أجرى الضابط مورفي بعد ذلك مقابلة مع موظف مكتب الاستقبال ستيفن درو، والذي قال إن المرأة الملقاة على السرير سجلت دخولها في الليلة السابقة في الساعة السابعة مساءً بصحبة رجل. لم يحمل الزوجان أية أمتعة، وقد سجلا اسميهما على أنهما السيد والسيدة تشارلز دابليو. كولر من إنديانابوليس بولاية ميزوري. وقد وصف الموظف «كولر» بأنه في الثانية والأربعين من عمره، وطوله أقل من 180 سم بقليل، ووزنه نحو 80 كجم، وله «بشرة داكنة ومظهر أجنبي»، كما لاحظ بدلة الرجل البنية الأنيقة.

أوضح درو أن نوبته انتهت في الساعة 11 مساءً في الليلة السابقة، ولم يعد إلى العمل حتى الساعة 2 بعد الظهر، أي قبل ساعة من قيام الخادمة بالإبلاغ؛ لذا، لم يشاهد «كولر» يغادر.

تم استدعاء المحقق كيفر بوريس من فرقة التحقيق في جرائم القتل، ووصل مع طبيب من المستشفى العام، والذي حين فحص جثة ميلدريد لم يجد أية علامة على وجود إصابات، ونسب وفاتها إلى «أسباب طبيعية». أوضحت صحيفة اليوم التالي أن الوفاة كانت: «نتيجة لنقص سكر الدم ومضاعفاته»، وإذا كانت الغرفة قد احتوت على أية آثار للمخدرات أو الكحول، فقد كانت الشرطة مهذبة للغاية ولم تذكر ذلك في تقريرها.

تمت مطابقة الجثة الموجودة في غرفة الفندق بسرعة مع بلاغ المفقودين الذي قدمه تشارلي في وقت سابق من ذلك الصباح. لا أعرف ما إذا كانت الشرطة قد استدعته إلى الفندق، أو ما إذا كان قد تعرف على ميلدريد في المشرحة لاحقًا، لكنَّ المحققين سلموه خاتمين؛ خاتم خطوبة وخاتم زواج كانت ميلدريد ترتديهما عند وفاتها، وساعة بولوفا ذهبية كانت ترتديها في معصمها.

وعد المحقق بوريس في تقريره بأن «يسعى لتحديد مكان تشارلز كولر»، ولكن لا أعتقد أنه بحث بجدية كبيرة. لم يمكننا العثور على أي سجل لعملية البحث، وأشك في أن تشارلي كان لديه اهتمام حقيقي بتعقب الرجل. لنفترض أنه تم العثور على «كولر»، ولنفترض أنه شرح كيف غادرت زوجة الدكتور تشارلي وايت اجتماعًا كان زوجها يستمتع فيه بمكانته الجديدة، والتقت برجل داكن البشرة وأنيق الملابس وأخذها مباشرة إلى فندق منخفض التصنيف. مثل هذه الشهادة لن تؤدي إلا إلى إحراج تشارلي وإلحاق المزيد من العار بزوجته، ولكن بدلاً من ذلك، عم صمت شامل على حياة ميلدريد الحزينة ووفاتها المؤسفة.

كان عجز تشارلي أمام مرض زوجته لا يزال مؤلمًا حتى بعد مرور أكثر من ستة عقود عندما أخبرني بالقصة. هل كان بإمكانه أن يفعل المزيد لمساعدتها؟ ليست لدي طريقة لمعرفة ذلك، ولكنني أعلم أن العلاج في عيادة ميننجر كان من بين أفضل العلاجات المتاحة في ذلك الوقت، وكان أطباء العيادة من بين أوائل من تبناوا فكرة أن الإدمان مرض وليس فشلًا أخلاقيًا. لكن ذلك أيضًا كان الوقت الذي كان فيه بعض ممن يُسمون بالخبراء يعتقدون أن النساء لا يسمح لهن بأن يكنَّ مدمنات، وخاصةً زوجات الأطباء المحترمين.

كما لم يكن هناك نظام دعم لميلدريد عندما عادت إلى المنزل بعد العلاج. كانت منظمة «مدمنو الكحول المجهولون» قد وصلت حديثًا إلى مدينة كانساس، وهي منظمة غير مستهدفة للربح تُعنى بمساعدة الأشخاص الذين يعانون إدمان الكحول، كان مقرها الأصلي يقع على جانب كانساس من المدينة (أي في جزء من المدينة يقع في ولاية كانساس وليس في مدينة ميزوري) ما جعله بعيدًا عن منزل الزوجين. بالإضافة إلى ذلك، كان من غير المرجح أن تجد ميلدريد امرأة أخرى في المجموعة حتى لو سمعت عن البرنامج بطريقة ما، حيث شارك عدد قليل جدًا من النساء على مستوى البلاد في برنامج الاثنتي عشرة خطوة للامتناع عن الكحول في الأربعينيات، كما لم يتم افتتاح أول مرفق سكني يقدم برنامج الاثنتي عشرة خطوة، وهو هازلدن الذي كان عيادة بالقرب من مينابوليس، حتى عام 1949. كان ذلك متأخرًا جدًا بالنسبة لزوجتي طيبب شاب تعاني مشاكل نفسية جسيمة في مدينة مشهورة بمعاقرة الشراب.



تزوج تشارلي مرة أخرى بعد بضع سنوات، لكنه لم يكن جاهزًا لذلك كما اتضح، ومع ذلك كلما عرفت أكثر عن زواجه الثاني، بفضل قدرة زوجتي على العثور على الأشياء التي يظن الناس أنها ضاعت إلى الأبد، تمنيت لو أن الزواج قد نجح.

أو ربما لا. فالحياة سلسلة من النجاحات والإخفاقات، والفرص الضائعة والبدايات الخاطئة وما يترتب عليها من تبعات. لو كان زواج تشارلي الثاني قد نجح، ربما لم يكن ليملك المنزل القابع عبر الشارع أمام منزلي، ولم يكن عكازه الأنيق الذي كان في حقيقته عصا جولف ليلفت نظري، ولم أكن لأراه يغسل سيارة حبيبته، ولم أكن لأعرف أي جزء من قصته.

فالحياة تتكشف لنا مصادفة، برغم آمالنا وخططنا، ولا يمكننا أن نتمنى إلغاء الحوادث التي حدثت دون أن نلغي حياتنا بأكملها. لذلك دعني أقل فقط: كان بإمكان تشارلي وزوجته

الثانية أن يشكلا ثنائياً رائعاً.



عندما صادف تشارلي وايت جين لانديس، كانا شخصين جذابين للغاية، ومفعمين بالحيوية ومحبين للحياة ومغامرين. قويت علاقتهما الرومانسية سريعاً، كما كانت الحال غالباً بعد الحرب، إذ كان الناس متلهفين لتعويض الوقت الضائع، وعندما تزوج تشارلي من جين في غرفة معيشة والديها، لا بد أنه كان يتصور أن الأمر سينجح.

لكنه لم ينجح.

وُلدت جين لانديس في عام 1918 في كاليفورنيا، وكانت تقريباً أصغر بعشر سنوات من تشارلي، وكانت فتاة تطمح للطيران، متأثرة بشخصيات، مثل أميليا إيرهارت التي كانت إحدى بطلات أمريكا في عصر الكساد. وقد أتاحت الفرصة لجين مع اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ فقد كان يتم إسقاط آلاف الطيارين الشباب، لدرجة أنه لم يتبق عدد كافٍ من الطيارين الرجال لمواصلة القتال، ما خلق حاجة ملحة لطيارين لنقل الطائرات عبر البلاد. أدت هذه الحاجة إلى إنشاء برنامج القوات الجوية النسائية المعروف بـ WASPs، ولأنها كانت منظمة مدنية، فلم تمنح أية رتبة أو مكانة. لكن البرنامج منح الشابات الفرصة لقيادة طائرات حربية متطورة، وفوق ذلك، منحهن فرصة لخدمة الوطن.

وقد أتقنت قائدات الطائرات الإناث ركوب كل نوع من الطائرات في الترسانة الأمريكية، وواجهن الطائرات المقاتلات، وقاذفات القنابل، وطائرات النقل مع تدفق الطائرات من خطوط التجميع، ثم قمن بقيادتها إلى السواحل حيث كانت تُسجن إلى جبهات القتال. خدمت نحو 1,000 امرأة في برنامج القوات الجوية النسائية، وسافرن معاً مسافة 60 مليون ميل، وكنّ يتقاضين 150 دولاراً شهرياً، كما لاقت 38 منهن حتفهن أثناء الخدمة.

رأيت صورة لجين الثقطة في نحو عام 1944. تظهر جين في الصورة وهي ترتدي زي الطيران الذي يبرز قوامها الممشوق، مع نظارات الطيران وأحمر الشفاه. كانت واقفة على جناح طائرة موستانج بي - 51، طائرتها المفضلة، وهي الطائرة الحربية التي منحت الحلفاء السيطرة المطلقة على الجو؛ لأنها كانت طائرة مقاتلة وقاذفة قوية تمتلك مدىً كافيًا لحماية أساطيل القاذفات من القاعدة إلى الهدف والعودة. كانت جان تقود طائرات موستانج بحذر وبتأنٍ عندما يكون المدرج في مرمى نظرها. لكن عندما تكون بمفردها فوق السهول الأمريكية، كانت تختبر قدرات كل طائرة إلى أقصى حد. قد ينظر المزارع الذي يركب جراره، أو الأطفال الذين يلعبون في حقل إلى الأعلى ليروا طائرة صغيرة في السماء الزرقاء الصافية تقوم بدوران مفاجئ، وعلى الأرجح كانت هذه طائرة جين.

في أحد الأيام عند اقترابها من أحد المطارات، طلبت الإذن بالهبوط عبر اللاسلكي، وفي الوقت نفسه تقريبًا، أبلغ طيار آخر، وكان رجلًا، عن رؤية طائرة موستانج متجهة إلى مهبط الطائرات. قام المراقب بتشغيل جهاز اللاسلكي الخاص به للحصول على معلومات من الطائرة الفاتكة القادمة.

طلبت جين مرة أخرى الإذن بالهبوط.

فصاح مراقب الطيران: «ابتعدي عن الطريق! هناك طائرة بي - 51 قادمة».

وهنا ردت جين: «أنا الطائرة بي - 51!» ثم أنزلت طائرتها على المهبط.

عندما اقتربت الحرب من نهايتها، قامت جين برحلتها الرسمية الأخيرة. اندفعت فوق ميناء نيويورك لتحلق حول تمثال الحرية ودموعها في عينيها. ثم واصلت الطيران نحو هبوطها الأخير من خدمتها في برنامج القوات الجوية النسائية «WASP».

في عام 2009، أي بعد أكثر من ستين عامًا، منح الكونجرس أعلى أوسمته، وهو ميدالية الكونجرس الذهبية، لجين لانديس وزميلاتها في البرنامج، وبحلول ذلك الوقت، كانت

لانديس قد أصبحت بفضل جاذبيتها الشخصية من بين أكثر قائدات الطيران الناجيات شهرة. بيد أن خدمتها لم تُقدَّر في وقتها عندما توقفت جين عن الطيران وعادت إلى حياتها المدنية، والتحقّت بالكلية وحصلت على شهادة في التربية البدنية، ثم حصلت على وظيفة معلمة فيما كان يُعرف آنذاك بكلية بارك الموجودة على ضفاف نهر ميزوري. ومن مركز الحرم الجامعي على قمة منحدر، كان بالإمكان رؤية سماء مدينة كانساس إلى الشرق.

سرعان ما التقت بأرمل ذي شارب وروح مغامرة. كانت شابة ومتحمسة، وهو كان مجروحًا وحذرًا، وتزوجا بسرعة، ولكنها أيضًا سرعان ما اكتشفت خطأها. قالت عن تشارلي بعد سنوات عديدة: «كان متملِّكًا بعض الشيء».

ولكن بحلول الوقت الذي سمعت فيه هذا، كان تشارلي قد أخبرني بنسخته من القصة أكثر من مرة، وفي الواقع، لا بد أنه رواها لي وللآخرين مرات عديدة؛ لأنه اختزل ما كان - بلا شك - خيبة أمل كبيرة في بضع جمل غير مكترثة. قال إن زوجته الثانية قد رحلت بسيارته المكشوفة، حاملة مضارب الجولف وأدوات المائدة الفضية، وأردف بلا مبالاة: «لقد كانت امرأة رائعة، لكن ماذا يمكن أن يتوقع المرء من معلمة تربية بدنية؟ لم تكن تصلح للزواج». صمت قليلًا ثم أضاف: «وجميع معارفها كانوا من النساء».

هل تركته عندما أدركت خطأها؟ احتاجت زوجتي لمزيد من التوضيح، وبعد وفاة تشارلي، بحثت زوجتي على الإنترنت بشغف حتى ظهرت قصة جين لانديس، بطلة برنامج القوات الجوية النسائية، وقد ذكر الكاتب بشكل عرضي أنها تزوجت لفترة قصيرة بطبيب من منطقة الغرب الأوسط.

بحثت أكثر، واكتشفت أن جين ما زالت على قيد الحياة.

ثم بحثت بعمق أكبر، فوجدت رقم هاتف.

كانت السيدة تشارلي وايت السابقة تقترب من بلوغ مائة عام عندما اتصلت بها كارين. كانت جين لانديس متألفة وذكية وسعيدة لسرد القصة. أقرت بأنها توصلت إلى إدراك بعد زواجها من تشارلي، لكن هذا الإدراك كان مرتبطًا بتشارلي وليس بنفسها. قالت لانديس إنها تزوجت من تشارلي دون أن تدرك حجم الألم الذي عاناه أثناء حياته مع ميلدريد. كانت تعتقد أنها وجدت روحًا تشبهها وقد أعجبت به، وأردفت: «كان رجلًا مهذبًا ويراعي مشاعر الغير، وكان مرحًا وذا عقل متزن جدًا».

لكن بسبب الحزن، نسي تشارلي كل ما كان يعرفه عن الحياة، وبعد معاناته مع ميلدريد، بدا عازمًا على ألا يتعرض للأذى مرة أخرى. قالت لانديس: إن تشارلي لم يكن يتحمل أن تمر ساعة دون أن يعرف أين هي وماذا تفعل، مضيفة: «كأنه لا يثق بي».

ثم تابعت بلطف: «ربما كان ذلك خطئي. أنا امرأة مستقلة وذكية جدًا، وكان يأمل أن أكون الزوجة التي تقضي الوقت مع الزوجات الأخريات في تناول مشروبات الكوكتيل في النادي، لكن هذا لم يكن أسلوبِي. فشعرت كأنه يخنق حرّيتي».

أوضحت جين أنها لم تأخذ سيارته المكشوفة ولا مضارب الجولف. فعندما قررت إنهاء الزواج، قادت سيارتها البيوك، واتصلت بتشارلي لتخبره بأنها ستغادر. عرض عليها أن يرسل لها بعض المال، لكن جين لم تكن بحاجة إلى أية مساعدة.

قالت له برفق: «أنت لا تدين لي بشيء».

وهكذا عاد تشارلي وحيدًا.

التاسع

توجد صورة رائعة في رواية البؤساء Les Misérables - أقصد رواية فيكتور هوجو الشهيرة، وليس المسرحية الموسيقية الناجحة التي تستند إليها- حيث يقارن هوجو روح الشخص النابض بالحياة بكيفية عمل العين البشرية التي تنكيف مع العتمة بأن تتسع أكثر، ويلاحظ أن: «بؤبؤ العين يتسع في الظلام ليجد في النهاية النور، تمامًا كما تنمو الروح وتتوسع في الشدائد».

لم أسمع تشارلي يتحدث كثيرًا عن مدى تديئه، وكان أقرب ما قاله لي بنبرة مازحة هو أنه بدأ يذهب بانتظام إلى دار العبادة في شيخوخته «استعدادًا للامتحان النهائي». لكن فكرة توسع الروح والانفتاح أكثر على الحياة كرد فعل على المحن تعكس شيئًا مهمًا حول طريقة تشارلي في التعامل مع الألم. فبعد وفاة ميلدريد المأساوية وفشل زواجه من جين لانديس، عاش تشارلي الحياة بشكل أكثر انفتاحًا، وذلك ليس بمعنى التبذير أو الإسراف، بل بالطريقة التي كان يستفيد بها من كل تجربة يمر بها. لقد عزز تشارلي طبيعته الإيجابية الطبيعية، واستعداده للقبول والانفتاح على الأمور الجديدة: نعم للمغامرة، نعم للتجارب، نعم للأفكار الجديدة. عاش تشارلي حياته بشكل كامل، وليس بطريقة محدودة، وبذلك كان على اتصال بقوة الحياة ونبع الأمل.

انفتحت أمام تشارلي عوالم جديدة بالفعل، ففي أحد الأيام في أوائل خمسينيات القرن الماضي، تواصل معه طبيب يدعى والي جراهام. كان جراهام بحاجة إلى مساعدة تشارلي في مسألة حساسة تتعلق بالدبلوماسية الدولية، فسأله إن كان بإمكانه ترك كل شيء للقيام برحلة طارئة إلى بيرو؟

دعني أولاً أمدك بمزيد من المعلومات لتتضح لك الصورة.

كان تشارلي مشغولًا للغاية كأحد أطباء التخدير الرواد في المدينة، وغالبًا ما كان يشارك في أكثر من عشرين عملية جراحية يوميًا، وقد ازدادت شهرته حتى أصبح الاختيار المفضل للعديد من أفضل الأطباء في المدينة، ولم يكن هناك أشهر منه إلا الجنرال والاس هاري جراهام، الطبيب الرسمي للبيت الأبيض. كان جراهام ينتمي للجيل الثاني في مدينة كانساس، وكان والده، وهو ممارس عام من أيام ما قبل المضادات الحيوية، صديقًا لهاري إس. ترومان. خدم الدكتور جراهام الأب مع ترومان في الجيش الاحتياطي، حيث كان ترومان يطمح للانضمام إلى فريق الرماية الخاص بالطبيب، ولكن كان نظر ترومان ضعيفًا للغاية، لدرجة أنه كان بالكاد يرى الأهداف.

كانت الصداقات تعني الكثير لترومان، الذي ظل يطمئن على عائلة جراهام حتى عندما ذهب إلى واشنطن للانضمام إلى مجلس الشيوخ الأمريكي في عام 1935، وبعد عشر سنوات، أدى ترومان اليمين الدستورية نائبًا للرئيس. كان السياسي يعلم أن والي نجل الدكتور جراهام العجوز قد سلك مسار والده في الطب، وحاز منحة زمالة للدراسة في أوروبا، ويخدم بجدارة في الحرب الأوروبية.

وعندما توفي فرانكلين روزفلت في 12 من أبريل في عام 1945، تولى ترومان منصب الرئاسة بشكل مفاجئ، وبحلول وقت اجتماع القمة الذي جمعه بستالين وتشرشل بعد ثلاثة أشهر، كان الرئيس الجديد لا يزال يجمع فريق عمله الخاص، وقد فكر ترومان في ابن صديقه الموهوب الذي كان طبيب البيت الأبيض خلال توجهه إلى مدينة بوتسدام الألمانية بالقرب من برلين. كان والي جراهام في أوروبا بالفعل في الخدمة العسكرية، وكان بالفعل معروفًا هناك، لكن عندما تم استدعاؤه إلى بوتسدام، احتج قائلاً إنه جراح وليس طبيب باطنة. هنا لَوَّح ترومان بيده باستنكار، وقال: «أعرف كل شيء عنك. لقد عرفتكَ منذ ولادتك وحتى الوقت الحاضر».

كان والي جراهام يتمتع بابتسامة لطيفة وموهبة في الحديث، وسرعان ما أدرك ترومان أنه يمكن أن يكون أداة دبلوماسية فعالة. أصر ترومان على أن يتوجه اللورد هاليفاكس،

وهو السفير البريطاني، بمشاكله وهمومه إلى مكتب جراهام في البيت الأبيض.

والآن كان رئيس بيرو مانويل أودريا يعاني مشكلة في يده، وتطلب الأمر إجراء جراحة، وأراد جراهام من تشارلي أن يرافقه إلى العاصمة ليما ليتولى مهمة التخدير.

وسواء كان تشارلي منصفًا في هذا أم لا، فقد راودته بعض الشكوك حول كفاءة والي جراهام في الجراحة، وربما كانت هذه الشكوك نابعة من مشاعر شخصية، بسبب طبيعة شخصية جراهام المتفاخرة صعبة المراس. كان يحب التباهي بمقابلته لسيجموند فرويد، وتمكنه من الحصول على وصية هتزل الأخيرة، والمرات العديدة التي أصيب فيها في المعارك (على الرغم من أنه بطريقة ما لم يحصل على الميداليات التي كان يستحقها). لقد صار جراهام لواءً عامًا وطبيب الرئيس الشخصي قبل بلوغه الأربعين من عمره، وكان يتصرف بأسلوب يتناسب مع مكانته الرفيعة، ومن الممكن أيضًا أن يكون رأي تشارلي السلبي قد تأثر بالسياسة: فقد أثار جراهام غضب الجمعية الطبية الأمريكية، والأطباء الجمهوريين مثل تشارلي، من خلال الترويج لخطة ترومان للتأمين الصحي الوطني.

وأيا كان التفسير، فقد أخبرني تشارلي بأنه كان قلقًا من أن العملية الجراحية ستكون معقدة، وأن جراهام قد يتسبب في مشكلة دولية بإصابة الرئيس البيروفي بالشلل، ولذا سأل عن سبب عدم إمكانية إجراء الجراحة في الولايات المتحدة. وقد أجاب جراهام أن أودريا كان قلقًا من أن يتم الإطاحة به من خلال انقلاب إذا غادر البلاد، فأوضح تشارلي أنه سيوافق على الذهاب بشرط واحد: أن يشارك في المهمة أيضًا مختص يُدعى بيل دانكن، وهو أحد أقرب أصدقائه.

تبين أن العملية لم تكن خطيرة كما كان يُعتقد في البداية. كان أودريا يعاني حالة مزعجة ولكنها ليست مهددة للحياة، فقد كان مصابًا بمرض دوبيوترين، وهي حالة طبية تؤثر على الأنسجة، حيث يتسبب النسيج الليفي في انكماش الأصابع باتجاه راحة اليد، ووفقًا لمذكرات جراهام غير المنشورة، قام تشارلي بتخدير يد الرئيس باستخدام عقار النوفوكين، وقام جراهام بقطع الأنسجة الليفية المتضررة، ولذلك حصل على عضوية مدى

الحياة في الجمعية الجراحية البيروفية. وأعتقد أن تشارلي استخدم بدلاً من ذلك المخدر الموضوعي الجديد والأكثر فاعلية، الليدوكايين.

وبغض النظر عن نوع المخدر الذي تم استخدامه، فقد كان أودريا سعيدًا بالنتائج، وتعبيرًا عن امتنانه، أمر البحرية البيروفية بأن تأخذ الطبيبين الزائرين في رحلة إلى غابة الأمازون المطيرة، وكان ذلك بالنسبة لتشارلي هو الوقت الذي أصبحت فيه الرحلة ساحرة. فلم يكن يهتم بعضوية الجمعية الجراحية البيروفية؛ إذ كانت التجربة هي الأهم بالنسبة له وليس التكريم.

أخبرني تشارلي: «حلّقنا فوق جبال الأنديز إلى عاصمة المطاط النائية إكيتوس». وهناك استقبل البحارة البيروفيون الطبيبين ليأخذوهما في رحلة نادرة لم يقيم بها سوى عدد قليل من الأمريكيين. «استقللنا قاربًا تابعًا للبحرية على طول النهر، وحصل والي على بندقية من مكان ما. أما أنا وبيل دانكن فكان لدى كل منا منجل. كنا نبدو مثل المستكشفين؛ والي مع بندقيته، وأنا وبيل بالمنجلين. وقد صادفنا ثعبانًا طوله يزيد على 3 أمتار، فأطلق والي النار عليه».

التقوا برجل يبيع القروذ في قرية نائية في الغابة المطيرة الواسعة. اشترى تشارلي قردًا وأسماه «بيل دانكن»، بينما اشترى دانكن قردًا آخر وأطلق عليه اسم «تشارلي وايت»، واحتفظا بالقردين في «سلة صغيرة» حتى وصلا إلى بنما في طريقهما للعودة إلى الوطن، وهناك واجها المشكلة المتمثلة في جلب حيوانات برية إلى الولايات المتحدة.

حسبما روى لي تشارلي، فقد اكتشف الطبيبان الدبلوماسيان أنهما كانا يقيمان في الفندق نفسه في بنما مع طاقم الطائرة التي ستقلهما في طريقهما إلى الوطن، وعلى ذلك قاما بدعوة المضيفين الجويين للانضمام إليهما لتناول العشاء، وقضوا جميعًا وقتًا ممتعًا، وأقنعاهم بالمساعدة في تهريب القردين على الطائرة. (قالت مضيضة طيران عن تشارلي وبيل: «لم أر قط رجلين أو سم منهما»). أخبرني تشارلي متذكرًا: «لقد ساعدونا في إحضار القردين إلى الوطن. حملناهما على متن الطائرة بكل بساطة».

كان لدى دانكن زوجة وعائلة في مدينة كانساس، لذا لم يعيش قرده طويلًا، ولكن تشارلي الذي كان عازبًا، احتفظ بقرده لسنوات: «كبر حتى وصل طوله إلى نحو مترين. كان عليّ أن أبنى قفصًا له في القبو». كانت لتشارلي آمال كبيرة بخصوص قرده، وحاول تدريب الحيوان على الركوب على كلبه الأيرلندي المميز كما لو كان حصانًا. لكن القرد لم يكن متعاونًا. قال تشارلي بحسرة: «لم أستطع ترويضه أبدًا». ومع ذلك كانت هناك بعض لحظات المرح. فكان تشارلي يأخذ قرده في نزهات بسيارته المكشوفة، وعندما كان يمر بجانب بائع الفواكه، ينادي: «هل يمكنك أن تعطي هذا الولد موزة؟». وعلى الرغم من كونه حيوانًا بريًا، أصبح القرد متعلقًا بتشارلي، بل كان يُظهر نوعًا من التملك؛ فقد كان يرش البول من قفصه كلما أحضر تشارلي صديقة جديدة.



ثم بدأت رحلة أخرى بدعوة من صديق طيار؛ كانت شركة ترانس وورلد إيرلاينز تريد من الطيار أن يتسلم طائرة تحت الإصلاح في أفريقيا ويعيدها إلى المقر الرئيسي للشركة، الذي كان يقع حينها في مدينة كانساس. ما رأي تشارلي في أن يرافقهم كقائد للرحلة؟ رد تشارلي ساخرًا: «لا أدري كيف أفعل ذلك!»، لكن صديقه طمأنه بأن الأمر لن يتطلب مهارات كبيرة سوى التحقق من اتجاه البوصلة.

لم يكن تشارلي ليفوت أية مغامرة؛ لذا قام بتعديل جدول أعماله، ووجد مؤتمرًا طبيًا في سويسرا ليذهب إليه، ما جعل الرحلة معفاة من الضرائب، ومن هناك انتقل إلى مصر، قبل أن يتوجه إلى جنوب أفريقيا للقاء صديقه. أخبرني تشارلي: «لكن الطائرة لم تكن جاهزة؛ لذلك قمت بنزهة في حديقة كروجج الوطنية». وقد أخذته رحلة السفاري التي استغرقت يومين بالسيارة عبر بعض من أفضل بيئات الحياة البرية في القارة؛ فشاهد تشارلي «الفيلة والأسود وأفراس النهر في النهر». وكانت الحيوانات الغريبة تأتي مباشرة إلى السيارة وتحقق إلى تشارلي كما لو كان مخلوقًا في حديقة حيوان. كان تشارلي مسرورًا، ولكن عند

عودته إلى جوهانسبرج، كانت الطائرة ما زالت غير جاهزة؛ لذا قام صديق تشارلي بتقديمه إلى طيار آخر من الخطوط الجوية العالمية كان متجهًا إلى أوروبا.

أثبت هذا الصديق الجديد أنه كان لطيفًا للغاية؛ فعندما أراد تشارلي أن يرى شلالات فيكتوريا، أفسح الطيار له مكانًا بجواره في مقعد المساعد، وطار قريبًا جدًا، حتى إن رذاذ الشلالات غطى نوافذ الطائرة. أوضح لي تشارلي: «لا أدري ما الذي كان يفكر فيه الركاب الآخرون». كان مسافرًا بتذكرة سفر مفتوحة، وتوقف لبضعة أيام في مالطا، حيث كانت الشرطة الفرنسية تفرض حظر التجول، ثم زار إسبانيا، وتسلل إلى هولندا، وأخيرًا توجه إلى وطنه.

وكان يحمل روح المغامرة نفسها أيضًا في محيطه المألوف. كان استمتع تشارلي بالأشياء الجديدة وغير المألوفة هو أحد أسباب قدرته على التكيف مع قرن من التغييرات الكبرى. فلم يكن يشعر بالقلق حول خطر الفشل، وهكذا وجد نفسه ذات يوم في أحد المراعي مرتديًا قناعه وزيه الطبي، ويستخدم منفاخ المدفأة كجهاز تنفس لحصان!

سأدع تشارلي يشرح القصة: «كان لدينا صديق طبيب يربي خيول السباق، وأصيب أحد أفضل حيواناته، واسمه هيكوري تشاك، بتمزق في بعض الأربطة في ساقه. كان العلاج البيطري المعتاد في تلك الأيام هو استخدام مكواة ساخنة لدمج الأربطة معًا، لكن ذلك لم ينجح.

«وكان يوجد مختص تقويم عظام في مستشفى سانت جوزيف يُدعى جاريت بيبكين، وعندما سمع بهذا، أخبرنا بأنه يعتقد أن بإمكانه إيجاد وسيلة لخياطة تلك الأربطة معًا، وأرادوا مني تثبيت الحصان.

«لكن كانت هناك مشكلة.. إذا خدّرت الحصان بالكامل، فقد يقع ويتعرض لإصابات أسوأ. فقررت استخدام عقار يشل الحركة يسمى أنكتين. صنعنا لوحة كبيرة وربطنا الحصان به

ليبقى واقفًا، وأعطيته الأنكتين - لم نحتج إلى جرعة كبيرة لشل الحصان تمامًا - ثم وضعت منفاخ المدفأة في أنفه وقمت بضخ الهواء ليظل يتنفس.

أنهى بيبكين الجراحة بسرعة، وسرعان ما بدأ تشارلي في إزالة تأثير العقار وإعادة الفرس إلى حالته الطبيعية. كانت العملية ناجحة، واستأنف هيكوري تشاك مسيرته في السباقات، وكان الندم الوحيد الذي شعر به تشارلي هو أن التجربة لم يتم تصويرها: «أتمنى لو كان لدينا تسجيل للتجربة. فقد كنا هناك بملابسنا الجراحية البيضاء وأقنعة وقفازات، في مرعى مع فرس مربوط على لوح. لا يمكنني تخيل ما كان سيظنه الناس إذا رأونا».



كانت جراحة القلب المفتوح أحد أكثر مجالات الطب خطورة في الخمسينيات، وبالتالي كانت الأكثر إثارة لتشارلي. كانت الحرب العالمية الثانية قد أسهمت في تطوير جراحات القلب مثلما حدث مع البنسلين والتخدير، وقد شعر الطبيب الأمريكي الشاب دوايت هاركين المولود في ولاية أيوا، والذي كان يخدم في مستشفى عسكري في لندن، باليأس حيال الجنود الذين كانوا يصلون إلى المستشفى بشظايا في قلوبهم. كان يُعتقد في ذلك الوقت أن القلب مقدس لا يمكن انتهاكه؛ لذلك لم تكن هناك وسيلة لإزالة هذه الشظايا المعدنية. كانت الإصابة في القلب بمثابة حكم بالموت.

رأى هاركين أنه إذا كان الجنود سيموتون على أية حال، فلا ضرر من محاولة إنقاذهم. جرب إحداث شقوق بحجم الإصبع في جدار القلب للسماح له بالوصول بسرعة إلى الداخل وإزالة الشظايا. كانت المغامرة ناجحة للغاية: فقد أنقذ هاركين أكثر من 125 شخصًا دون أن يفقد مريضًا واحدًا.

وبعد الحرب، أدرك هاركين وآخرون أن التكنيك نفسه قد يكون مفيدًا في علاج ضيق الصمام التاجي، وهي حالة يمكن أن تكون قاتلة تنتج غالبًا عندما تتفاقم عدوى التهاب

الحلق في فترة الطفولة وتتحول إلى حمى روماتيزمية، حيث تتسبب الأنسجة الليفية داخل القلب في تضيق الصمام التاجي، ما يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم، وتكون جلطات دموية، وتجمع الدم في الرئتين، وحتى السكتة القلبية.

تملّك الفضول تشارلي وزملاءه في مدينة كانساس لقراءة الأبحاث الطبية حول الجراحة التجريبية لإصلاح الصمامات الضيقة. تذكر تشارلي: «كان الجراح يُحدث شقًا صغيرًا في القلب، ويستخدم إصبعه ليستكشف الصمام حتى يجد الأنسجة الليفية، ثم يقوم بتمديد الصمام ويفك الالتصاقات، وبعد ذلك يسحب يده. كان يمكن إنجاز الأمر برمته من البداية إلى النهاية في أقل من ساعة».

لكن كانت هناك عقبة: كانت فكرة جهاز القلب والرئة الذي يمكنه التحكم في الدورة الدموية للمريض أثناء الجراحة لا تزال في مرحلة التصميم، وحتى جراحة الصمام التي تستغرق وقتًا قصيرًا نسبيًا كانت تحمل مخاطر عالية للوفاة ما لم يتم إبطاء تدفق الدم عبر القلب بشكل كبير.

وعندما بحث تشارلي في الأمر بشكل أعمق، اكتشف تجارب كان يتم فيها تبريد المرضى تحت التخدير لتقليل درجة حرارة أجسامهم. أوضح تشارلي: «عندما تنخفض درجة حرارتهم عن درجة الحرارة الطبيعية إلى درجة أقل، يصبح الدم أكثر كثافة وبالتالي لا ينزفون كثيرًا».

ولذلك حتى يصبح رائدًا في جراحة القلب المفتوح في مدينة كانساس، كان عليه ببساطة أن يكتشف كيفية تبريد جسم مريض غير واعٍ بشكل آمن. كان يفكر في هذا التحدي ذات يوم بعد العمل، حينما كان يعتني بعدد من الخيول التي اشتراها مع قطعة أرض صغيرة جنوب المدينة. كان هذا مؤشرًا على نجاح مسيرته المهنية الجديدة كاختصاصي، حيث أصبح قادرًا على إشباع شغفه الدائم بتربية وركوب الخيول، تمامًا كما كان يفعل جده الفارس.

وبينما كان تشارلي يعمل، وقعت عيناه على الحوض البيضاوي الكبير - المعروف باسم خزان الخيول حيث يحتوي على ماء شربها- وأدرك في لمح البصر أن هذا هو بالضبط ما يحتاجه. كان خزان الخيول كبيرًا بما يكفي لاستيعاب مريض نائم مدفون في الثلج. فأبلغ تشارلي فريقه الجراحي أنه توصل إلى الحل الذي كانوا يبحثون عنه.

وقال لي تشارلي: «لذا اشتريت حوضًا خاصًا بالأحصنة وقمنا بتخدير المريض وغطيناه بالثلج. لقد قمنا بخفض درجة حرارته إلى نحو 30 درجة مئوية، وهي درجة ليست باردة بدرجة كافية لقتله ولكنها باردة بدرجة كافية لإبطاء تدفق الدم بشكل كبير. ثم رفعناه من الخزان المملوء بالثلج، ووضعناه على طاولة العمليات، وسرعان ما فتح الجراح صدر المريض وأحدث شقًا في القلب، ثم أدخل إصبعه في الشق وقام بتفكيك النسيج الليفي. بعدها خاط القلب من جديد وانتهى الأمر، وفي غضون ساعة، تمت إعادة المريض إلى درجة حرارة الجسم الطبيعية.»

كان خزان الخيول الخاص بتشارلي بمثابة أداة رئيسية في جراحة القلب بمدينة كانساس لفترة من الوقت، ولم يمض مريض أبدًا. وعندما تم تطوير جهاز القلب والرئة، أصبحت عملية تبريد المرضى من مخلفات العصور الطبية المظلمة، والتي لم تكن أكثر تقدمًا بكثير من العلاج بالعلقات. أصبح بإمكان الجراحين الآن قضاء ساعات في العمل على القلب، ليس فقط لتمديد الصمامات، بل لاستبدالها، وإعادة فتح الشرايين والأوردة، وحتى زرع قلوب سليمة بدلًا من القلوب المريضة. ولكن قبل أن تصبح مثل هذه الإجراءات شائعة، كانت جراحة القلب مغامرة جريئة، وكان خزان الخيول المملوء بالجليد يُعتبر نوعًا من السحر.

تخبرنا هذه القصة بالكثير عن موهبة تشارلي في التعامل مع التغيير. كان قد عاش أقل من نصف عمره، وكان تعليمه الرسمي قد أصبح عتيقًا إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن جراحة القلب باستخدام خزان الخيول تبدو بدائية الآن، فإنها كانت غير قابلة للتصور عندما كان تشارلي في كلية الطب قبل جيل، وكان الأطباء في ذلك الوقت يفتقرون إلى المضادات الحيوية لجعل جراحة القلب المفتوح آمنة، كما لم يكن لديهم فهم لأنسجة القلب كعضلة

يمكن إجراء عملية جراحية عليها، وكانوا يفتقرون إلى مهارات التخدير والتحكم في مجرى الهواء، وهي مهارات تجعل الجراحات متعددة الخطوات أمرًا ممكنًا.

كان لدى تشارلي إحساس فطري بأسلوب التعامل مع التغيير الذي أصبح لاحقًا سمة مميزة في منطقة سيليكون فالي أو وادي السليكون. كانت الفلسفة المعروفة بالتطوير التكراري والتدريجي، توضح أن التحولات الكبيرة نادرًا ما تحدث دفعة واحدة، بل على مراحل صغيرة ومنتابعة. صحيح أن إسحاق نيوتن - على الأغلب - قد فهم الجاذبية عندما سقطت تفاحة على رأسه، ولكن في معظم الحالات يأتي الاكتشاف والتغيير بشكل تدريجي. فقد قام توماس إديسون مثلًا باختبار ستة آلاف فتيل ليجد الفتيل الأفضل لمصباحه الكهربائي.

التطوير التكراري والتدريجي نهج عملي وواقعي للتعامل مع التغيير، سواء على الصعيد المهني أو الشخصي. لا تصر على الحل المثالي قبل التعامل مع المشكلة، بل تحرك خطوة خطوة (هذا هو الجزء التدريجي)، مع التحسن المستمر مع كل تجربة جديدة (وهذا هو الجزء التكراري).

وقد تقبل تشارلي حقيقة أنه سيظل يتعلم أشياء جديدة ما دام حيًا. كان تعليمه في المدرسة هو البداية، وليس النهاية. فقد تقدم إلى الأمام بتقبله لحقيقة أنه سيتقدم بخطوات صغيرة، وليس قفزات عملاقة، فجراحة القلب المفتوح لن تصل إلى آفاقها البديعة دفعة واحدة، كما في النهايات المثالية للأفلام الهوليوودية. بل ستتقدم خطوة خطوة بالتدريج، وربما يستلزم التقدم الاستمرار سنة أو سنتين في استخدام خزان الخيول الممتلئ بالثلج، ولكن سيتم تعلم أشياء جديدة في كل خطوة، ما يجعل الخطوات التالية ممكنة.

هكذا نتكيف مع التغيير، وهكذا يتعلم حتى كبار السن والمقاومون للتغيير كيفية ضخ البنزين باستخدام قارئ بطاقات الائتمان، ومشاهدة أحفادهم يتخذون خطواتهم الأولى على وسائل التواصل الاجتماعي، والأهم من ذلك، هذه هي الطريقة التي يتقدم بها الابتكار

إلى الأمام؛ فال تغيير لا ينتظر سقوط التفاحة على رأس أحد. يتخذ آلاف، أو حتى ملايين، الأشخاص مثل تشارلي وايت خطوات صغيرة نحو المستقبل، حيث يرون كيف يمكن أن يكون خزان الخيول وسيلة للتقدم إلى الأمام.

ويجربون.

بالنسبة للأشخاص الذين يسعون للنجاح في ظل عدم اليقين، يعتبر التطوير التكراري والتدريجي مصدرًا للراحة لهم. حيث يخبرهم هذا النهج بعدم محاولة حل كل شيء دفعة واحدة، والتوقف عن المطالبة بإجابات لكل سؤال يتعلق بحياتهم ومسيرتهم المهنية، والبحث بدلاً من ذلك عن طرق لاتخاذ خطوة صغيرة للأمام.

ثم إجابة السؤال التالي، والعتور على الخطوة التالية، فاتخاذها.. إلخ.



كان تشارلي أيضًا مستعدًا لارتكاب الأخطاء، وقد قال لي إنه كان ممتنًا لأنه عمل في فترة سبقت شيوع قضايا سوء الممارسة الطبية. شرح تشارلي ذات مرة: «كنا نستطيع أن نكون مبتكرين دون أن نخشى العواقب القانونية، ولقد شاركت في نحو أربعين ألف عملية جراحية، ولم أتعرض لأية دعوى قضائية. بالطبع ارتكبت بعض الأخطاء. إذ أحيانًا عندما كنت أقوم بإدخال أنبوب تنفس لشخص بأسنان ضعيفة، تنكسر بمجرد لمسات بسيطة. فكنت أذهب إلى سرير ذلك المريض بعد أن يستيقظ، وأعطيه خمسة وعشرين دولارًا، وأقول له: اذهب لإصلاح أسنانك، وكان هذا كل شيء».

عندما اقترح أحد الأصدقاء على تشارلي بعد الحرب أن يستثمر في منتج تزلج ناشئ في كولورادو يُدعى أسبن، سخر قائلًا: «هذه مجرد مدينة أشباح!» وكان ذلك خطأ منه بالتأكيد. فقد كان يمتلك في وقت ما ستين فدانًا من الأراضي المطلّة على البحيرة، على بُعد نصف

ساعة شرق مدينة كانساس، وكان يحتفظ بالخيول هناك ويستمتع باستضافة الراهبات من مستشفى سانت جوزيف لرحلات ركوب الخيل، وكان الأمر يكتسب لمسة فكاهية بفضل الأزياء التي كن يرتدينها، ولكنه باع الأرض بثمن أقل بكثير من قيمتها عندما شيد نخبة المدينة قصوراً بملايين الدولارات على ضفاف البحيرة.

وكان ذلك خطأ آخر.

ولم تكن الحال أفضل مع المزرعة الصغيرة الواقعة جنوب المدينة، والتي باعها ثم شاهدها تُقسَّم لتصبح واحدة من أكثر العقارات الرائجة في المدينة. لقد علقت ذات مرة على الفرص العديدة التي ضيعها وكانت ستجلب له ثروات، فأجابني بمرح قائلاً إنني لا أملك سوى فكرة بسيطة عن مدى ما خسره، وذات مرة، حاول بائع يُدعى إيوينج كوفمان أن يجذب اهتمام تشارلي بمشروع ناشئ كان قد أطلقه في قبو منزله. قال تشارلي وهو لا يزال متعجباً مما رآه: «كان ينظف قشور المحار ويطحنها ليحولها إلى مسحوق مضاد للحموضة». واختار تشارلي الاحتفاظ بأمواله. لكن شركة كوفمان المسماة ماريون لابس أصبحت في نهاية المطاف شركة أدوية كبرى تقدر قيمتها بمليارات الدولارات.

كان ذلك خطأ آخر.

ومع ذلك، بدا أن تشارلي كان يستمتع بتذكر تلك الأخطاء بقدر ما كان يستمتع بتذكر انتصاراته. فقد كان يدرك أن الأخطاء يمكن أن تكون لها جوانب إيجابية؛ لأن الأخطاء تظهر أننا نبذل جهداً ونشارك في الحياة، وأنا «في ساحة القتال»، كما قال ثيودور روزفلت في عبارته الشهيرة، وكما قال الرئيس هاري ترومان: «القيام بعمل غير كامل أفضل من عدم القيام بأي عمل على الإطلاق»؛ فهناك فائدة في اتخاذ القرارات، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، والمضي قدماً، وبالمقابل، يمكن أن تتحول النزعة الكمالية إلى عدو للحياة، حيث تعيقنا وتجعلنا عالقين في مكاننا، بينما يستمر العالم من حولنا في التحرك والتقدم.

لا يمكن العيش من دون ارتكاب الأخطاء. فقد قال إبيكتيتوس الفيلسوف الرائع: «إذا كنت ترغب في التحسن، فكن راضيًا بأن يراك الآخرون أحمق وغبيًا من حين لآخر». أما الفيزيائي الحائز جائزة نوبل نيلز بور فكانت لديه وجهة نظر مختلفة بعض الشيء حول الحقيقة نفسها: «الخبير هو الشخص الذي ارتكب كل الأخطاء التي يمكن ارتكابها في مجال محدود للغاية». أو يمكنك أن تفكر في الأمر بهذه الطريقة: لا يُعرف المحارب فقط من قوته وشجاعته، بل أيضًا من الندوب التي يحملها.



كان تشارلي في ذلك الوقت في أواخر الخمسينيات من عمره، ورغم أنه كان أعزب وليس لديه أطفال، فإنه كان رجل عائلة إلى حد كبير. فكان مخلصًا لوالدته، التي تم اختيارها الأم المثالية للعام لولاية ميزوري من الجمعية التي كانت تعمل بها، وكان مقربًا من شقيقاته، حيث كانت إحداهن تتولى إدارة مكتبه وتحديد مواعيد العمليات الجراحية وموازنة الحسابات، وكان من ضمن مسؤولياتها إدارة شؤون منزل تشارلي. لم يكن هذا الترتيب يبدو مثاليًا للجميع في دائرة تشارلي الاجتماعية، واقترحت زوجة شريكه ترتيبًا أفضل. قال لي: «قررت أنني يجب أن أتزوج».

وقد اعترض تشارلي عندما عرضت عليه هذا الاقتراح، إذ لم تكن تجاربه مع الزواج سهلة، ولم يكن مهتمًا بالمحاولة مرة أخرى. لكن زوجة شريكه كانت قد سبقته بخطوة. وأخبرته بدهاء أن هذا وضع مثالي. فهناك أرملة تعيش في الحي الذي تسكن فيه، وتدعى لويس جريمشو، وهي أيضًا لا تريد الزواج مرة أخرى، وطلبت منه أن يكون لطيفًا ويدعوها لمرافقته في الحفلة الكبيرة التي كانت زوجة شريكه تخطط لها.

وافق تشارلي على أن يكون لطيفًا وقرر مرافقة الأرملة إلى الحفلة. عندما طرقت بابها، أجابت فتاة مفعمة بالحيوية تبلغ من العمر ثماني سنوات. كانت هذه الفتاة تُدعى جولي.

وسألت بوضوح: «هل جئت لتصطحب والدتي؟».

فأجاب تشارلي: «نعم، أنا هنا لذلك».

فواصلت الفتاة: «هل أنت طبيب؟ لأن رائحتك مثل رائحة الأطباء».

وبهذا الترحيب دخل تشارلي إلى المنزل، محاولاً أن يشم نفسه من دون لفت النظر للبحث عن رائحة غرفة العمليات.

ثم رأى لويس.

كانت ساحرة الجمال. كانت قد ظهرت كعارضة في إعلانات متجر نيمان ماركوس عندما كانت مراهقة في دالاس، وقد أعلنت الصحيفة المحلية أن يداها هما الأجمل في المدينة. كانت تمتاز بشعر داكن وبشرة فاتحة وملامح منمقة. وقد وصفها صهرها جاك مور فيما بعد على هذا النحو: «لقد أحببت لويس حقاً. كانت امرأة جميلة، وتعرف كيف تتعامل مع الرجال».

شعر تشارلي بالفضول، واصطحب لويس إلى منزل شريكه، وبنهاية الليلة، عندما نظر تشارلي إليها عبر الطاولة، كان قد أصبح مفتوناً بها. قال تشارلي بعد نصف قرن بعدم اكتراث: «كانت جميلة ولديها مهارة رائعة في لعب الورق».

أصبح تشارلي أباً لابنها وابنتيها عندما تزوجا، كما أنجبا معاً ابنتين أخريين، وكانت علاقة تشارلي بابن لويس المراهق، بيل، محدودة، فقد بدأ تشارلي غير مهتم عندما خدم بيل بشجاعة في فيتنام ثم أسس مسيرة مهنية ناجحة في مجال القانون، أو هكذا بدا الأمر لبيل على أية حال. وعليّ أن أعترف (بغض النظر عن مدى أهمية ذلك) أن تشارلي نادراً ما تحدث معي عن ابن زوجته. كان لديهما شيء مشترك مؤلم وعميق: وهو شعور الوحدة الذي يشعر به الأبناء الذكور الوحيدون الذين فقدوا آباءهم في وقت مبكر، وللأسف لم يُقربهما هذا الرابط من بعضهما.

كانت ليندا ابنة لويس في المدرسة الثانوية، وكانت بمثابة الأم الثانية لأختها غير الشقيقتين الصغيرتين، لوري ومادلين، عندما وُلدا. كانت جولي، المعروفة بصراحتها، سعيدة للغاية عندما قدم لها تشارلي حيوان السيبي كهدية. أخبرني تشارلي: «هكذا اعتبرتني أبا لها على الفور».

لكنه كان أيضًا أبًا أكبر سنًا، بشعر أشيب وشارب أنيق؛ رجلًا مكتملاً، كما تقول زوجتي. في النهاية تم اجتذاب تشارلي بعيدًا عن مستشفى سانت جوزيف ليصبح رئيسًا للطايم الطبي في مستشفى بابتيست ميموريال، وانتقل مع عائلته المتنامية إلى منزل جميل في شارع هادئ في ميشن هيلز بولاية كانساس، وهي ضاحية مشهورة بالأطباء والمحامين ورجال الأعمال. كان هناك طبيب متخصص في أمراض الدم في الجوار، وجراح في الشارع المقابل، وشركة تأمين عملاقة على بعد بضعة مربعات سكنية. ولم يتوقف أبدًا حب تشارلي للسيارات الذي استمر طيلة حياته؛ فكنت تجد في ممر سياراته الدائري، حيث رأيت يغسل سيارة حبيبته باستخدام خرطوم الحديقة والإسفنجة، سيارة رياضية من طراز ألبين صن بيم، وفيما بعد سيارة فورد موستانج مكشوفة.

كانت لويس تستمتع بالعناية بالحدائق. أخبرني تشارلي: «كانت طاهية ماهرة ومتحدثة بارعة»، وكانت بنتاهما الصغيرتان تستخدمان بيت الألعاب الموجود في الفناء. كانت قد اختفت نزعة التملك لديه التي أفسدت زواجه من جين لانديس؛ بل كانت لويس هي التي تمسك بزمام الأمور في زواجهما. قال تشارلي عن زوجته القوية: «لم تكن متسلطة، لكنها كانت تتمتع بقوة لا يستهان بها». كانت لويس متدينة أيضًا، وكانا يحضران العظات معًا كل يوم أحد في دار العبادة الواقعة في شارع ماين.

كان تشارلي يحب قضاء العطلات مع لويس - هما الاثنان وحدهما دون أطفال. أخبرني: «كانت لاعبة جولف بارعة وصيادة ماهرة». وقد قضى الكثير من الوقت في أسبن، حيث عاد مرارًا وتكرارًا إلى كوخ على نهر فراينجبان بالقرب من منتجع التزلج المتنامي الذي كان قد سخر منه في سنوات سابقة، وكانت المياه سريعة الجريان ببركها وتياراتها الدوامية

بمثابة واحة لصيادي سمك السلمون المرقط. قال تشارلي: «كنت أجلس على تلة فوقها وأقول، لويس، صيدي لي سمكة! وكانت تفعل».



«كان تشارلي رجلاً رائعاً».

هذا هو ما قاله لي جاك مور، صهر تشارلي الأكبر، فقد التقينا على الغداء بعد بضع سنوات من رحيله، وقد أضاف: «لم يدع أي شيء يؤثر عليه، ولا أتذكر أنني رأيته غاضباً حقاً. كان يحب عمله بشدة، لكنه كان يحب الاسترخاء أيضاً. لقد امتلك قارباً شراعياً لفترة من الوقت، وكان يأخذه إلى البحيرة، وفي إحدى المرات كاد يغرقه عندما نسي أن يضع السدادة في الفتحة في قاع القارب، كما احتفظ بخيوله، حتى أقنعه رجال العقارات ببيع مزارعه».

أخبرني جاك بأنه يتذكر تشارلي بسبب لعبه المميز في الجولف؛ حيث كان أداؤه قوياً جداً في الملعب، وكذلك بسبب سراويل السباحة القديمة التي ظل يرتديها لفترة طويلة حتى بعد أن أصبحت غير لائقة، وولائه لأمه وشقيقاته، والغليون الذي كان يدخنه عندما لم يكن يدخلن السجائر في ممرات المستشفى. أضاف جاك: «كان الجميع يدخنون في المستشفيات: الممرضات والأطباء والمرضى. إلا إذا كنت موضوعاً على جهاز الأكسجين. عدا ذلك، كان الجميع يدخنون».

كان جاك شاباً سريع البديهة من غرب فرجينيا مهتماً برعاية الحيوانات، وقد التحق بجامعة كانساس بهدف أن يصبح طبيباً بيطرياً، ولكنه غير رأيه عندما قال له طبيب بيطري ذو خبرة: «البيطريون يكدحون في عملهم. يجب أن تكون طبيباً بشرياً». وهكذا قرر جاك دراسة الطب البشري، بينما كان في الوقت نفسه يسعى للتقرب من الابنة الكبرى الجذابة للويس وايت، وقد أخذ تشارلي جاك تحت جناحه.

كان ذلك في ستينيات القرن الماضي، وكان تشارلي يعلم أن جاك سيتعلم أحدث النظريات والتطورات في كلية الطب في ظل عصر التخصص الحالي، وأراد أن يتأكد من أن يتعلم جاك الأساسيات أيضًا - أي الجانب العملي الشامل للممارس العام التقليدي. فلقد أراد لصهره المستقبلي أن يفهم أن الطبيب لا يقوم بإجراء العمليات الجراحية فحسب، بل يهتم بالناس أيضًا.

أوضح جاك: «كان يتلقى مكالمات في المنزل، وكنت أقضي الوقت في منزله، وكان يسألني: هل تود أن تذهب معي؟ وبالطبع كنت أرغب في الذهاب. فأني طالب طب عاقل كان سيفتتم فرصة الذهاب لاستدعاءات الطوارئ مع رئيس طاقم المستشفى».

وأضاف: «ثم كنا نصل إلى هناك...»

يمكنني أن أتذكر حادث دراجة نارية. كان جلد وجه المريض مسلوخًا، ولقد تمكنت من التماسك لأنني اعتقدت أن المريض كان فاقدًا للوعي. إلا أنني رأيت تشارلي يتحدث إليه، والمريض يبدأ في الرد - لكنه كان يحرك شفثيه فقط. وضعت رأسي بين ركبتيّ مصدومًا».

كان مقدرًا لجاك أن يصبح جراحًا موهوبًا، وقد ساعد في إنقاذ حياة العديد من المصابين بسرطان البروستاتا. لكن تشارلي ربط جاك بعصر الطب غير المتخصص؛ فقد كان حلقة الوصل بزمان كان فيه المعالجون يعالجون جميع أنواع الأمراض، ويبتكرون طرقًا لتخفيف معاناة مرضاهم. قال جاك عن تشارلي وجيله من الأطباء: «كان هؤلاء الأشخاص مبتكرين حقًا. فقد كانوا يجدون الحلول لكل المشكلات».

ثم أعطاني مثالًا لا يُنسى:

«كانت واحدة من تلك المكالمات الطارئة. إذ أخذني تشارلي لرؤية شخص في المستشفى حاول الانتحار وفشل. كان المريض قد حاول شنق نفسه، وإذا كنت قد رأيت مثل هذه الحالات من قبل، فستعرف أن أحد الأعراض بعدها تشمل تورمًا شديدًا في اللسان. استمر

هذا المسكين في الاختناق بسبب لسانه المتورم - حيث كان يشفط اللسان إلى مجرى التنفس - وكان على الفريق الطبي سحب اللسان إلى الخارج، وظل ذلك يحدث مرارًا وتكرارًا حتى دخل تشارلي وقيّم الوضع ثم قال للممرضة: «أحضري لي خيط حرير رقم اثنين».

أحضرت الممرضة عدة خياطة الجروح، وقام تشارلي بسرعة بخياطة عدة غرز في اللسان المتورم، ثم مد الخيط إلى نهاية السرير، وربطه في عقدة. هكذا حل المشكلة، حيث لم يعد اللسان إلى الحلق مرة أخرى.

تذكرت خزان الخيول وجراحات القلب المفتوح المبكرة التي أجراها تشارلي. فعندما كان يواجه مشكلة، لم يكن ينتظر الحل الأمثل. كان يتخذ الخطوة التالية التي يمكنه رؤيتها، وصحيح أن ربط لسان المريض بنهاية السرير لم يتحول أبدًا إلى تكتيك معتمد في طب الطوارئ، لكنه نجح في ذلك اليوم مع ذلك المريض.

بعد سنوات من وفاة تشارلي وانتهاء مسيرة جاك مور المهنية العظيمة، قال لي: «لا أعرف أحدًا أحب الطب بقدر ما أحبه تشارلي؛ فقد استمر في حضور الاجتماعات حتى بعد أن تجاوز المائة من عمره. كانت هناك مجموعة من الأطباء يجتمعون معًا لتناول الإفطار مرة في الشهر في السابعة صباحًا، ولم يفوت تشارلي أي اجتماع من تلك الاجتماعات».

كان هناك تقليد طبي عريق يُعرف باسم «الجولات الكبرى». حيث يجتمع الطلاب والأطباء المعلمون لزيارة أكثر الحالات إثارة للاهتمام في المستشفى لمناقشة الحالات المحيرة ومشاركة الاكتشافات، وأوضح جاك: «ظل يحضر تلك الجولات الكبرى حتى لم يعد بوسعه ذلك».

بيد أن حب الطب لم يكن مثل حب الذهاب إلى الطبيب؛ فنادرًا ما لجأ تشارلي إلى زملائه لعلاج أفراد عائلته. فقد توصل من خلال تجاربه المبكرة إلى الاعتقاد بأن معظم الأمراض ستشفى بشكل طبيعي، أما تلك التي قد لا تُشفى بشكل طبيعي، فقد فضّل أن يتعامل معها

بنفسه؛ ناسياً أمر المتخصصين. فعلى سبيل المثال: عندما كان تشارلي يعاني ورم مورتون العصبي في قدمه، وهي حالة مؤلمة تحدث في مقدمة القدم بسبب ضغط الأنسجة على العصب، جلس في مكتبه، وحقن عقاراً لتخدير الأعصاب في ساقه ثم أمسك بالمشريط، وفتح قدمه ونظر إلى الداخل، وبعد ذلك قطع النسيج المسبب للمشكلة، وبينما كان يخيط جرحه، جاءه اتصال استدعاء طارئ إلى غرفة العمليات.

كانت تلك مشكلة، فمع قدمه المخدرة والمخيطة، لم يكن لدى تشارلي أية طريقة للإسراع إلى الحالة الطارئة. لكنه لم يكن ليتترك مريضاً في حاجة إلى المساعدة، فأرسل في طلب كرسي متحرك، وقام بسرعة بلف قدمه بالشاش، ورغم الإعاقة المؤقتة بسبب قدمه، أسرع تشارلي بشجاعة إلى المريض.



ربى تشارلي أولاده بالطريقة المتساهلة نفسها التي تلقاها من والدته - بأسلوب غير صارم لدرجة أنه كان يبدو أقرب للإهمال، ويتذكر أولاده عبارات حكيمة أساسية، مثل: «افعل أفضل ما لديك. افعل الصواب. حافظ على معنوياتك ومرحك. ابقِ الدوبر لأعلى».

كانت هذه العبارة جديدة عليّ عندما سمعتها لأول مرة من عائلة تشارلي. كانوا مندهشين لأنني لم أكن قد سمعتها من قبل: ابقِ الدوبر لأعلى! حث تشارلي على ابقاء الدوبر لأعلى مائة مرة على الأقل، أو ألف مرة، أو مليون مرة - مرات عديدة لدرجة أن الأطفال ذوي البشرة البيضاء اعتبروا هذا التعبير أمراً مسلماً به. عندما ألححت في البحث، وجدت أنه ما من أحد متأكد بنسبة 100% مما تعنيه «الدوبر» بالضبط - وما يعرفونه فقط هو أن إبقائها لأعلى يعني العزيمة، واتزان النفس، ونوعاً قوياً من التفاؤل العملي.

بحثت عن المعنى، ووجدت أن الإنترنت مليء بأشخاص حائرين في تفسير هذا التعبير مثلي، كانت التفسيرات منتشرة على نطاق واسع، وقد انقسمت إلى فئتين عريضتين:

يتعلق أحدها بالرسم. ويبدو أن كلمة daub مرتبطة بالكلمة اللاتينية والتي تعني الأبيض. وأن كلمة daub تعني في الأصل التبييض أو التغطية بالجبس؛ لذا فإن الدوبر كانت عبارة عن نوع من فرشاة الرسم المستخدمة للطلاء، وإذا أهمل الشخص أو شعر بالإحباط وترك الدوبر متراخية، فإن الصبغة المتساقطة يمكن أن تسبب فوضى.

وتزعم مدرسة أخرى من مفسري الإنترنت أن التعبير مشتق من الحشرات المجتهدة والمعروفة باسم «دبور الطين الباني» أو (بشكل أكثر صله) “mud daubers” فبينما يبنون أعشاشهم من الطين متعدد الطبقات بما يشبه طلاء الجبس، فإن هذه الآفات الصغيرة المجتهدة تُبقي أنوفها متجهة إلى عملها، وذيولها مرفوعة، تلك الوضعية العنيدة التي تمثل دائماً العمل المتواضع الصادق.

بالنسبة للشباب الذين بلغوا سن الرشد في الستينيات والسبعينيات، كانت عبارة «ابق الدوبر لأعلى» تبدو قديمة الطراز إلى حد ما. لكنها تلخص بشكل رائع أسرار حياة تشارلي. فهي نصيحة من الفلسفة الرواقية: الطريقة التي نختار أن نحافظ بها على معنوياتنا تعتمد بشكل كبير على إرادتنا، وهذه النصيحة تُشجّع على الحرية والإبداع بالطريقة نفسها التي كان يعيش بها تشارلي بحرية وحيوية. فكل إنسان هو الذي يجعل هذا التعبير ذا مغزى حقيقي من خلال تطبيقه في حياته، فبالحفاظ على آرائنا مرفوعة نكون مستعدين للفرص، وجاهزين للتعلم والنمو من خلال التغيير، ونبقى يقظين ومفعمين بالحياة، وممتلئين بالعزيمة وغير قابلين للهزيمة.

تحمل العبارة في طياتها الاستعداد والجاهزية: كن يقظاً. لا تتخاذل. استمر في التقدم. تماسك. كن صادقاً مع نفسك وحافظ على معنوياتك. وقد حافظ رالف والدو إيمرسون، الفيلسوف الذي عرف حزنًا وخسارة لا حدود لهما حيث تعرض لفقدان والده عندما كان طفلاً، وفقدان إخوته في شبابه، وفقدان زوجته المحبوبة عندما كان شاباً، وفقدان طفله عندما صار أباً- على معنوياته بإدراكه أن اللحظة الحالية هي التي تهتم؛ لأنها الشيء الوحيد

الذي يمكننا التأثير فيه. لقد تجاوز الماضي قدرتنا على التأثير فيه، ولا يمكننا معرفة المستقبل، لذا لكي نكون سعداء ومثمريين، يجب أن نركز على اللحظة الحالية.

وعلى النقيض، يرى إيمرسون أن مصدر التعاسة والإحباط هو: «أن يؤجل الإنسان الأمور أو يسترجع الماضي، فهو بذلك لا يعيش في الحاضر، بل يأسى على الماضي بنظره الملتفت إلى الوراء، ولا يبالي بالفرص التي تحيط به، ويقف على أطراف أصابعه محاولاً التنبؤ بالمستقبل». ويخلص إيمرسون إلى أننا «لا يمكن أن نكون سعداء وأقوياء» حتى نعيش «في الحاضر بالكامل».

وبمعنويات مرتفعة.



يتحدث علماء النفس عن «الذكريات المضيئة». هذه هي اللحظات والصور التي تبرز كما لو كانت طاقة نور تضيء ظلام ذكرياتنا المزدهمة والمختلطة. لقد شاركنا جاك مور بعض الذكريات المضيئة لتشارلي في نهاية مسيرته المهنية، وإن لم تكن هذه الفترة تمثل نهاية حياة تشارلي. كان هناك حفل في الفناء الخلفي لمنزل جيرى ميلر، وهو طبيب متخصص في أمراض النساء والتوليد كان يتمتع بشخصية قوية والكثير من الأصدقاء. وبروحه المرحة، ظهر تشارلي مرتدياً تنورة من العشب أحضرها إلى المنزل من رحلته إلى هاواي، وأثناء تأديته رقصة الهولا على لوح الغوص، سقط في الماء وكاد أن يسحبه وزن تنورته المبللة إلى القاع.

وإليك ذكرى مضيئة أخرى: كان لدى تشارلي كلب من نوع داشوند كان يحبه كثيرًا. لكن لم يتم اختبار مدى هذا الحب إلى أن سُحق الكلب تحت فرع شجرة قد سقط أثناء عاصفة شديدة في كانساس. كُسر ظهر الكلب وأصيب بالشلل في رجليه الخلفيتين، لكن تشارلي لم

يستطع التخلص منه. حدثني جاك عن الكلب الذي رآه مربوطًا بلوح تزلج، يجر نفسه بسعادة عبر منزل تشارلي، متبوعًا برائحة غائطه الذي لم يكن بوسعته التحكم فيه.

كما تذكر جاك تشارلي وسط الاحتفالات المتجولة في الشارع وهو يغني بأعلى صوته، وكذلك وهو يقود أحدث سياراته الأنيقة إلى أفضل أماكن وقوف السيارات خارج مباريات كرة القدم بجامعة ميزوري - معتمدًا على لوحة ترخيصه المطبوع عليها كلمة «طبيب» لتبرير وجوده.

تذكر جاك أيضًا بطاقة تهنئة بذكرى ميلاده أرسلها له تشارلي بعد وقت قصير من طرح عقار الفياجرا الشهير. كان على غلاف البطاقة صورة للحبة الزرقاء الصغيرة بجوار صورة ديك، وكانت الرسالة الموجودة بالداخل تقول: «انهض وتألق!».

في هذه الفترة المشرقة والسعيدة من حياة تشارلي الطويلة جاء فصل آخر من الألم، فقد تم تشخيص لويس بالسرطان، وكما يتذكر جاك وآخرون، فقد تقبلت احتضارها باعتباره حتميًا - ربما قبل أن يعلن الأطباء ذلك. أخبرني جاك الذي كان تخصصه الطبي يجعله على اتصال يومي بمرض السرطان: «لقد دمرها ذلك من الناحية النفسية، وتركت نفسها تضعف أكثر فأكثر. ولم يستطع تشارلي أن يفهم لماذا لم تقا تل بقوة أكبر، فقد شعر بأنها استسلمت».

تذكرت نظرة تشارلي المتشككة إلى الطب - وهو الأمر الذي بدا غريبًا لكونه صادرًا من طبيب، فعندما كان يمرض المقربون منه، كان يعالجهم بالراحة في السرير وتناول الكثير من الماء، كان تشارلي يشجع على الإيمان بالقدرة على النماء والازدهار.

أما لويس، فبدت كأنها تفتقر إلى هذا الإيمان.

من ذكريات جاك المضيئة الأخرى أنه عندما كانت لويس في سريرها في الطابق العلوي، وكان يوجد بجانب سريرها جرس تستخدمه عندما تحتاج لأي شيء.

رن الجرس.

ورغم أن تشارلي كان يقترب من التسعين، فإنه قفز واندفع إلى الطابق العلوي، ثم سرعان ما نزل وقد بدا عليه التعب، وقال: «لم تكن بحاجة إلى أي شيء».

أظن أن لويس كانت بحاجة إلى شيء ما. ربما كانت بحاجة إلى أن تعرف أن شخصًا كان يهتم بها بما يكفي ليأتي راکضًا إليها. ربما كانت تحتاج لأن تشعر بأنها لن تموت وحيدة. ربما كانت تحتاج إلى الشعور بالقدرة والسيطرة، هذه المرأة التي كانت قبل أن تمرض تهيمن على كل غرفة تدخلها بجمالها وثقتها، وربما يكون وادي الموت أصعب مكان يمكن للثقة بالنفس الرواقية أن تصمد فيه، حيث نواجه وجهًا لوجه الحد الأقصى لقوتنا، والحقيقة المذلة التي لم يكن أي مخلوق قادرًا على تغييرها.

لا يمكنني أن أدين اختيار لويس قبول مصيرها بدلًا من محاربتها. فالقدر سوف يتحقق بكل الأحوال، وأنا لا أستهيئ بالاختبارات التي وضعتها لويس لتشارلي، كي يقفز ويركض عبر الدرج عندما كانت تشعر بالوحدة أو الخوف، ولم يكن تشارلي ليستهيئ بها أيضًا على حد علمي. وقد عاش تشارلي بعد لويس عشرين عامًا تقريبًا، وزال الاستياء الذي ربما شعر به بسبب عدم محاربتها للمرض، وخفت حدة ألمه، ولم يخبرني تشارلي قط عن جرس لويس المحتضرة أبدًا.

كل ما أخبرني به عن لويس كان قصصًا عن جمالها وقوتها، حيث إنها تمثل ذكرياته التي يعتز بها معها.

العاشر

بدأت قصتنا في ذلك الصباح الحار ليوم الأحد عندما نظرت عبر الشارع ورأيت تشارلي يحمل خرطوم الحديقة والإسفنجة. كانت لويس قد توفيت منذ سنوات عديدة؛ فالحياة الطويلة جدًا تشبه القصر الكبير؛ به العديد من الغرف وكل الغرف واسعة. لم يكن لتشارلي مسيرة مهنية واحدة فقط كطبيب، بل اثنتان: وهما سنواته كمارس عام، وعقوده كطبيب تخدير. وكانت فترة تقاعده بطول معظم المسيرات المهنية، كما لم يخض زواجًا واحدًا طويلًا بل خاض اثنين، بالإضافة إلى سنوات قضاها كرجل أعزب. كانت محطة القطار التي رآها تشارلي في صباه يتم بناؤها من الصفر قد شهدت فترة ازدهار طويلة ثم تدهورت، وأصبحت متهالكة حتى كادت المدينة أن تتخلى عنها. ولكن لاحقًا تم ترميمها تكميمًا لتاريخ مدينة كانساس - وكل هذه التحولات قد حدثت ضمن الإطار الزمني لحياة تشارلي.

لم يتباطأ تشارلي حتى وهو في التسعينيات من عمره؛ فبالإضافة إلى مشاركته المنتظمة في اجتماعات الأطباء لمواكبة أحدث التطورات الطبية وحضوره في المستشفى لقيامه بجولات كبيرة، كان تشارلي يحضر أيضًا بانتظام اجتماعات ناديه الاستثماري، والذي كان يتكون من مجموعة من الرجال الأصغر سنًا (فقد بدا أن العالم بأسره أصغر سنًا الآن) الذين درسوا الأسهم واستفادوا من السوق الصاعدة قبل انفجار «فقاعة الدوت كوم»، ثم استمروا في العمل والتكيف مع الظروف الجديدة بعد الانهيار. سافر تشارلي مرتين إلى هايتي مع صديقه طبيب الأطفال هيرب ديفيس، لتقديم الفحوصات الطبية وتقديم اللقاحات للأطفال الفقراء. وكانت حينها قد اكتملت مسيرته العملية، بدءًا من مائدة العشاء في طفولته حيث كان يستمع بإعجاب إلى قصص الأطباء المتدينين وقرر أن يصبح طبيبًا، وصولًا إلى البعثات التي قام بها. ثم عاد تشارلي إلى ممارسة الطب العام في هايتي مرة أخرى، كما كان يفعل أثناء فترة الكساد، حيث كان يقوم بتشخيص كل أنواع الأمراض

وتقديم حلول عملية للمرضى الذين يعانون أوضاعًا يائسة. كثيرًا ما كان تشارلي يقول إن كونه طبيبًا لم يكن مجرد وظيفة أو حتى مهنة، بل كان امتيازًا: إذ لم يكن هناك أي عمل آخر يضع الشخص في مثل هذه العلاقات المليئة بالثقة مع الآخرين. وفي رحلته الثانية إلى هايتي، كان تشارلي يبلغ من العمر تسعة وتسعين عامًا.

وسواء كان في هايتي أو في الوطن، فأينما ذهب تشارلي كان يُسأل عن سر عمره المديد. وكانت إجابته محبطة؛ فقد قال إن الأمر كان مجرد حظ؛ فجيناته التي لم يكن له أية سيطرة عليها، لم تسبب له مشاكل مثل ضعف القلب أو أي مرض عضال. وعلى عكس والده، لم يكن تشارلي أبدًا ضحية الحوادث الغريبة العشوائية. بعض الناس يصابون بسرطان الرئة رغم أنهم لم يدخنوا أبدًا. وكان تشارلي يدخن لعقود من الزمن دون أن يسبب له ذلك أي ضرر حقيقي.

إنه الحظ.

كانت ابنة زوجته ليندا قد بدأت تشعر بالضعف بعد عطلة وهي في السادسة والستين من عمرها. أظهرت الأشعة وجود أورام في جميع أنحاء جسدها، ثم ماتت خلال أشهر. وبعد أسابيع قليلة من وفاتها، بلغ تشارلي 102 عام.

نعم، الحظ.

تقبل تشارلي حظه وعاش اللحظة. وفي ذكرى ميلاده الخامسة والتسعين، رفّه عن أصدقائه بخلع سترته والعزف مع الفرقة على آلة الساكسفون. وفي الوقت الذي كان فيه معظم أقرانه قد فارقوا الحياة منذ فترة طويلة، بدأ تشارلي علاقة رومانسية جديدة ومهمة. فقد أصبح رفيقًا لإحدى أرامل مدينة كانساس الأكثر تآلقًا، وهي أرملة مفعمة بالحيوية من تكساس تصغره بنحو عشرين عامًا تدعى ماري آن والتون كوبر. وقد وصفها جاك مور بأنها «مذهلة فعلاً»، ووافقته على ذلك بعد أن قابلتها للمرة الأولى، وذلك بعد فترة قصيرة من رؤيتي لتشارلي وهو يغسل سيارتها.

كانت نابضة بالحياة بقدر ما كانت جميلة. تعرفت عليها لمدة أربع دقائق تقريبًا قبل أن تروي لي قصة عن الأيام التي كان زوجها الراحل، الذي كان يعمل جراحًا، يعتمد فيها على تشارلي في التخدير. وقد احتاجت ماري أن نفسها إلى إجراء عملية جراحية وقام زوجها بتشكيل فريق لإجرائها. وبعد أن قام تشارلي بتخديرها، كشف الأطباء عن خوفها من إجراء العملية. كانت قد كتبت على صدرها باستخدام أحمر الشفاه: «لا تفتحوه حتى ذكرى الميلاد»، في مزحة مرحة منها.

وجهت ماري آن أنظارها إلى تشارلي بعد فترة قصيرة من ترملة لسبب بسيط حسبما أخبرتني. كان كل منهما يجعل الآخر يضحك، وكانت تعلم أنهما سيحظيان بالكثير من المرح معًا. عندما أخبرت ماري آن حبيبها السابق، الذي كان في الواحد والتسعين من عمره في ذلك الوقت، بأنها ستصبح رفيقة تشارلي البالغ من العمر اثنين وتسعين عامًا، كان رده هادئًا ومتفهمًا: «لقد غلبني رجل أكبر سنًا!!».

وقد حظيا بالمرح حقًا؛ فكانا يزوران بانتظام لسنوات مطعم نادي بلو هيلز الريفي في عطلة نهاية الأسبوع. وكانت ماري آن تقود سيارتها من منزلها لتناول مشروب قبل العشاء في منزل تشارلي. وأحيانًا عندما كنت أرى سيارتها، لم أكن أستطيع أن أوقف نفسي عن طرُق الباب لأقول مرحبًا. وقد ملأ كل منهما كل زيارة بجرعة من قوة الحياة التي يطلق عليها الفلاسفة الصينيون اسم «تشي». إنها تتعلق بالحيوية والمعنويات، وتتدفق من العلاقة الصحيحة إلى النظام الطبيعي للأشياء.

كان تشارلي وماري آن يجسدان قوة الـ«تشي» بحق، فقد فهما أن الحزن لا يحتاج إلى سعي؛ فهو يجدنا متى شاء. لقد وجدهما الحزن سابقًا، وسيعثر عليهما مجددًا. وقد قررا أن يستمتعا باللحظات الجميلة في كل يوم ما دام الألم بعيدًا عنهما. وكان الضحك إحدى تلك اللحظات الجميلة. فعلى سبيل المثال: ضحكت ماري آن بشدة عندما وبخ تشارلي رجل الدين؛ لأنه أعلن عن بلوغه المائة عام خلال عظة الأحد. وتذمر قائلاً: «ستظن السيدات أنني كبير السن جدًا على المواعدة».

وقد نظر كل من ماري آن وتشارلي نظرة بها إحباط إلى عائلتنا. لقد أحبانا بما فيه الكفاية، ولكنهما كانا مقتنعين بأنني وزوجتي يجب أن نصبح أكثر مرحًا. في مساء أحد أيام الجمعة عندما مررت عليهما قبل أن يخرجنا لتناول العشاء، ذكرت مصادفة عطلة نهاية الأسبوع المزدحمة التي تنتظر عائلتي، والتي كانت مليئة بمباريات كرة القدم، وحفلات الميلاد، وغيرها من الأنشطة التي تركز على الأطفال.

وبختني ماري آن وهي تجعد شفتيها المتلائتين: «لا يا عزيزي!» (كانت ماهرة جدًا في استخدام أحمر الشفاه). «اذهب واطلب من زوجتك أن تتأق لأنكما ستخرجان معًا من دون الأطفال! سيكونون بخير من دونكما».

أومأ تشارلي برأسه مؤمّنًا على اقتراحها، بينما تواصل حديثها قائلة: «الزواج يأتي دائمًا في المقام الأول. سوف يكبر أطفالك ويغادرون. إنهم يعيشون حياتهم، ويجب أن تعيش أنتما أيضًا حياتكما؛ فعندما كان أبنائي صغارًا، لم تكن الساعة الخامسة تأتي من دون تجديد زينتي وتحضير مشروب مميز لزوجي».

وعندما عدت إلى المنزل وشاركت هذه النصيحة مع زوجتي، رمتني بنظرة مستنكرة. وربما قالت شيئًا من قبيل: «حضر مشروبك اللعين بنفسك». ولكنني لم أكن لأجرؤ على مجادلة ماري آن كوبر بشأن الحياة أو تربية الأبناء، فقد كانت مفعمة بالحيوية. كانت تشبه شخصية والدة الممثل كريس كوبر، عندما قام بدور شخص يفعل كل ما يريده بينما كانت والدته تتفنن في وضع مساحيق التجميل وتعتني بالمقهى المملوك للعائلة. قبل أن ألتقي بها بفترة قصيرة كانت قد حلت ضيفة الشرف (بصحبة تشارلي) في حفل لمشاهدة ابنها وهو يتسلم جائزة الأوسكار، وكان الحفل يُذاع على شاشة التلفزيون.

ولقد استمرت هذه العلاقة الرومانسية الجميلة بين تشارلي وايت وماري آن كوبر طوال حياة تشارلي. ولكن عندما دخلت ماري آن في أواخر الثمانينيات من عمرها ووصل تشارلي إلى سنواته الأخيرة، بدأ توهجها يخفت. فقد فقدت ماري آن ذاكرتها، لكن تشارلي لم يتركها

أبدًا. كان يجلس بجانبها ممسكًا بيدها، أحيانًا في صمت حنون، وأحيانًا يتحدث إليها أو يغني لها بصوت خافت.



في تلك السنوات الأخيرة، كنت أتفاجأ أن شهرًا أو شهرين أو حتى موسمًا قد مر دون أن أزور تشارلي. فقد كنت أحمل جريدته في كل صباح إلى ممر سيارته، وأضعها على بابه لأعلمه أنني لم أنسه. لكنني أضعت الوقت الذي كان يجب أن أقضيه معه. فقط الأحمق، أو من لديه أبناء مراهقون، هو من قد يهمل قضاء الوقت مع صديق تجاوز عمره 103... ثم 104... ثم 105 أعوام... لكنني كنت أتصل به بعد ذلك، فيُسامحني على الفور. كان تشارلي يخوض حياته بكل شجاعة وثبات، دون أن تزعزعه تقلبات الزمن.

كان عمره 106 أعوام عندما خطرت لي فكرة كتابة مقال عن المسيرة المهنية القصيرة للشباب والت ديزني كرسام رسوم متحركة في مدينة كانساس. ولقد قرأت قليلًا واكتشفت أن كل الرسوم المتحركة الأمريكية تقريبًا حتى عام 1975 - أي كل الرسوم المتحركة التي كبرت وأنا أشاهدها - يمكن تتبعها عبر شجرة عائلة من الفنانين إلى مجموعة صغيرة من الشباب الذين وظفهم ديزني في أستوديو مدينة كانساس الخاص به، الذي فشل قبل خمسين عامًا. كان هذا تأثيرًا متسلسلاً من الإبداع، يشبه ما حدث في مدينة فلورنسا الإيطالية خلال عصر النهضة أو في وادي السليكون في كاليفورنيا في أواخر القرن العشرين.

لم يكن تشارلي يعرف والت ديزني، لكنهما عاصرا الأماكن ذاتها. رننت جرس باب تشارلي وطلبت منه أن يحكي لي عن مدينة كانساس في عام 1921. وبالفعل، جلسنا في مطبخه، ومن دون أن يتردد لحظة، فتح آلة الزمن في ذاكرته وأخذني إلى الماضي.

وعلى الرغم من مرور حوالي قرن منذ أن نزل تشارلي من القطار إلى حظائر الماشية بمدينة كانساس، كانت ذاكرته استثنائية. كان يتذكر أسماء جميع دور السينما في المدينة، وليست الأسماء فقط، بل أيضًا عناوين الشوارع. كنت أظن أنني أعرف أين كان يقع مسرح نيومان؛ ذلك الصرح الكبير حيث عُرضت لأول مرة أفلام ديزني القصيرة، وحيث التقى الراديو بكارلتون كون وجو ساندرز. لكنني كنت مخطئًا في المكان، وصَحَّح لي تشارلي ذلك. قادني عبر المسارات المزينة بالزهور وتحت الأضواء الساحرة لحديقة إلكترونيك بارك التي تعود إلى زمن بعيد، ماحيًا آثار الزمن والتدهور من الحي الذي كان ديزني يدير فيه الأستوديو الصغير الخاص به فوق مطعم، والذي يحتفظ فيه بفأر أليف في درج مكتبه - ذلك الفأر الذي ألهم واحدًا من أشهر الإبداعات الفنية في التاريخ.

تخللت هذه التفاصيل قفزات واستطرادات وتعليقات جانبية عبر العقود: تعليق على حدث إخباري حديث قمت بتغطيته، وأسئلة عن عائلتي، وأحاديث قصيرة عن الاعتناء بالحديقة. وقد كان ذهنه بشكل ما حادًا ومرنًا في الماضي والحاضر على حد سواء. وظل مهتمًا بالغد بقدر اهتمامه بالأمس.

وقد زرعت حيوية عقل تشارلي حلمًا في ذهني، فعندما تذكرت محادثتنا الأولى، بينما كان تشارلي يتكئ على عكازه الذي كان في الواقع عصا جولف، ويتأسف على عدم قدرته على لعب الجولف، بدأت أفكر أن فكرة إخراج الرجل المسن إلى ملعب الجولف للمرة الأخيرة ستكون قصة رائعة. فكم من الممكن أن يكون عدد لاعبي الجولف في العالم الذين يبلغون من العمر 106 سنوات؟

أخبرت تشارلي بفكرتي، فابتسم لكنه هز رأسه رافضًا؛ فقد كان يعلم حتى إن لم أكن أدرك بعد، أن تقدمه في العمر كان يجعله عاجزًا عن ذلك حقًا.

٢

و ذات يوم انزلق على رقعة من الجليد خارج باب منزله في يوم شديد البرودة، وانكسر كاحله محدثًا صوت فرقعة. أعتقد أن هذا كان شتاء عامه السادس بعد المائة. وعندما سمعت الخبر من صهره دوج، فكرت أنه ربما تكون هذه بداية النهاية. لكن عندما زرت دار الرعاية التي كان تشارلي يتعافى فيها، وجدته في حالة معنوية رائعة، وهو يستقبل زوارًا بشكل مستمر. وصل هيرب ديفيس، منظم الرحلات إلى هايتي، في اللحظة التي دخلت فيها إحدى موظفي الدار وهي تدفع عربة إلى الغرفة بها صندوق من المشروبات وبعض الكئوس. أعلنت الموظفة: «لقد حان وقت المرح»، ورفعنا نخبًا صغيرًا في صحة تشارلي. وبدا أن ذلك كان له تأثير جيد؛ لأنه عاد سريعًا إلى منزله واستأنف حضوره لنواديه واجتماعاته الأسبوعية.

مضت شهور قبل أن يبلغ صهره دوج عن حالة طبية طارئة جديدة: معاناة تشارلي بعض هلوسات. لم تكن مجرد ومضات ضوء أو أنماط أمام عينيه، بل مخلوقات غريبة وملونة بدت كأنها قد اتخذت من غرفة معيشتة موطنًا لها. لم يكن الأطباء متأكدين من كيفية تفسير هذه الأعراض. قد يكون ذلك علامة على بداية الخرف، أو ربما يشير إلى ورم دماغي. وأيًا كان السبب، فإنه لم يكن يبدو جيدًا.

في الواقع، كان لي صديق كتب مقالًا قبل بضع سنوات عن هلوسات والده المسن. وتعرفت من خلالها على متلازمة ليست أكثر خطورة من مجرد ضعف النظر البسيط، فيها يكون الدماغ يعمل بشكل جيد للغاية، بل في الواقع يعمل بجهد إضافي لملء مجال الرؤية حتى عندما لا تكون العينان قادرتين على توفير بيانات كافية. أي أن الدماغ يقوم باختلاق الأشياء.

بدا ذلك كأنه تشخيص محتمل. وقد كتب صديقي أن الجانب الأكثر خطورة من هذه الحالة هو أن المرضى قد يشعرون بالخوف من رؤاهم أو من فقدان عقولهم؛ لذلك عبرت الشارع لأقيم حالة تشارلي النفسية.

قال لي تشارلي عندما جلسنا في غرفة معيشته: «الأمر غريب جداً. أرى هؤلاء الأشخاص والحيوانات والأشياء بوضوح كما أراك الآن. بل بشكل أكثر وضوحاً.

ثم هتف مشيراً إلى الصندوق الذي عرض فيه مسدسات المبارزة القديمة: «انظر هناك!». كانت هذه المسدسات بمثابة تذكارات لمغامراته في بيرو، وقد عاشت لفترة أطول من عمر القرد الصغير المسمى بيل دانكن. أردف: «هل ترى ذلك؟».

وقبل أن أتمكن من الرد، أجاب تشارلي نيابة عني: «لا، بالطبع لا تراه. أنت لا تراه لأنه غير موجود».

شاركت مع تشارلي ما عرفته عن متلازمة تشارلز بونيه، وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى العالم الذي عاش في القرن الثامن عشر ووصف تلك الحالة عندما أصابت جده المسن، والذي كان -مثل تشارلي- حاد الذكاء ولكنه كان شبه أعمى. يؤدي هذا المرض إلى ظهور رؤى مختلفة باختلاف الأشخاص، لكن عادةً ما تكون غير مؤذية. ويرى بعض المرضى أشخاصاً يشبهون شخصيات الكارتون. قرأت عن رجل كان يرى الأبقار ترعى على سجادة غرفة معيشته. وذكر والد صديقي الكاتب ذات مرة أن الطريق كان مليئاً باللوحات المكتوبة بلغة لاتينية قديمة.

سأله صديقي: «ماذا تقول هذه الالفتات؟».

فأجاب والده: «أنت تعرف أنني لا أستطيع قراءة اللاتينية».

أخذ تشارلي يومي برأسه بلطف بينما أخبره بكل ذلك. كان قلقاً بشأن الهلوسة عندما بدأت، لكنها لم تعد تبدو سيئة جداً الآن حسبما أخبرني. كانت هناك أشياء أسوأ بكثير يمكن أن تحدث للشخص. وكان يعلم ذلك لأن بعضها حدث له.

2

لقد تجاهل تشارلي كاحله المكسور ولم يكن مكثرًا بالهلوسات. لكنني كنت متأكدًا أن النهاية اقتربت عندما دخل تشارلي المستشفى وهو في سن 107 سنوات مصابًا بالالتهاب الرئوي.

وقد علق أحد رواد الطب الحديث، ويليام أوسلر، على ارتفاع معدل الوفيات في حالات الالتهاب الرئوي لدى كبار السن في كتابه الذي صدر عام 1892 تحت عنوان The Principles and Practice مبادئ وممارسة الطب. كتب أوسلر: «يطلق على هذا المرض اسم النهاية الطبيعية للعجائز». والواقع أن هذا المرض فعال للغاية في إنهاء الحياة بشكل رحيم نسبيًا، حتى إنه أُطلق عليه أيضًا لقب: صديق العجائز.

كان تشارلي مسنًا بكل معنى الكلمة. لم أكن أرغب في فقدان صديقي، لكنني كنت ممتنًا لأن وسيلة مريحة جاءت لتصطحبه إلى مثواه الأخير. وبهذه الحالة الفلسفية التأملية، طلبت رقم غرفة المستشفى وذهبت لأودع تشارلي.

كان في غرفة خاصة كبيرة في طابق مرتفع في مستشفى بالقرب من الفناء، ورأيتها لفترة لطيفة. كانت الستائر مغلقة في منتصف النهار، ما جعل الغرفة تبدو كأنها مضاءة بألوان غروب الشمس. كان جسد تشارلي النحيف مغطى بملاءة بيضاء. وكان الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت شخير الخفيف، الذي يشبه شخير طفل رضيع، وصوت جهاز مراقبة القلب مع كل قفزة متعرجة على الشاشة ذات الضوء الأخضر. تجمدت في المدخل، ثم تراجعت بهدوء إلى الممر.

وبعد بضع دقائق، عثرت عليّ ممرضة وأنا واقف هناك. فقالت: «هل يمكنك مساعدتك؟».

فأجبت: «كنت أود زيارة الدكتور وايت، لكنه نائم».

قالت: «آه، تفضل بالدخول. نحن على وشك إيقاظه على أية حال».

اقتربتُ بحذر من سرير تشارلي، ووقفت للحظة وأنا ما زلت غير متأكد. انقطع تنفسه المنتظم بصوت شخير خفيف؛ واهتز فجأة ثم فتح عيناه وسأل: «مَن هناك؟».

فقدمت نفسي واعتذرت عن إيقاظه، لكن تشارلي ركز نظره عليّ وبدأ على الفور في محادثة. لقد دخلت غرفته كما لو كنت أدخل قبرًا. ولكن بدلًا من ذلك، استأنفنا أحاديثنا السابقة بسهولة.

طمأنني تشارلي بأنه يشعر بتحسن بعد تلقيه بعض أكياس السوائل الوريدية والمضادات الحيوية. وتحدثنا لبعض الوقت، وكان كل شيء كما عهدناه دائمًا. قدم لي تشارلي تاريخ علاج الالتهاب الرئوي، ونبهني إلى أن أتذكر أن أوسلر كتب ما كتبه في الأيام التي سبقت اكتشاف البنسلين. أخبرني كيف تم إنشاء المستشفى الذي كان يقيم فيه، متذكرًا كل مبنى وجناح وملحق تم بناؤه. وسألني عن عائلتي ونصحتني بأن أثق في أن أطفالنا سوف ينشأون بشكل جيد. كان حيويًا كعادته، وسرعان ما استنتجت أن تشارلي تجاوز الموت مرة أخرى.

تأكدت من ذلك عندما دخل طبيب قلب يرتدي سترة بيضاء إلى الغرفة. كان ذلك صديقي مات من الحي، وكان سباحًا سابقًا في جامعة ييل. كان تشارلي في أيدٍ أمينة. أعاد مات مراجعة نتائج بعض الفحوصات على لوحه وأعلن أنه راضٍ تمامًا عن تعافي مريضه. وقال إن تشارلي سيخرج من المستشفى في غضون يوم.

واقترحت عليه: «ربما ترغب في تدوين هذا يا مات. فمن المحتمل أنك لن تخرج العديد من مرضى الالتهاب الرئوي الذين تبلغ أعمارهم مائة وسبع سنوات في حياتك المهنية».

٢

وعاش تشارلي سنة أخرى.

ثم في سن 108، فقد تشارلي استقلاله أخيرًا. إذ لم يعد بإمكانه العيش في المنزل حتى مع مساعدة مادلين ودوج. وانتقل إلى دار رعاية فاخرة كان بإمكانه فيها مشاركة الردهة مع ماري آن ممسكًا بيدها.

أخبرني صهره دوج ذات يوم أن تشارلي كان يتدهور بسرعة. للمرة الأولى، كان الرجل المفعم بالحيوية طيلة حياته يخبر أحباءه أن الموت بات قريبًا، ويطمئنهم أنه مستعد لذلك. كان أصدقاء تشارلي ومحبوه الكثيرون يترقبون اللحظة بتوجس. لكن الربيع عاد ليزهر في وادي نهر ميزوري، وانتشرت الأشجار بأوراقها الخضراء استعدادًا للصيف، وغير تشارلي رأيه. فقد اقتربت ذكرى ميلاده، وبعدها قطع ذلك الشوط الطويل، قرر أنه سيستمر حيًا وصولًا إلى 109 أعوام.

قلت لنفسي: «يا له من أمر غير معتاد من تشارلي أن يتخيل أن لديه سيطرة على شيء قوي ومتقلب مثل الموت». أحد التعاليم الأساسية للفلسفة الرواقية هو أن الموت يحتفظ بسجل خاص به؛ فيمكن أن يأتي في أي وقت، واليقين الوحيد هو أنه سيصل إليك في النهاية. ولذلك، «دعونا لا نُؤجل شيئًا»، على حد تعبير الفيلسوف والكاتب المسرحي الروماني اللطيف سينيكا. كان هذا هو نهج تشارلي طوال حياته. وقد انطلق نحو بلوغ 109 أعوام بالفعل.

تحولت أجواء مايو الرائعة إلى حرارة يونيو، ثم اشتد القيظ في يوليو. وتبعت الأيام الطويلة والحارة بعضها بعضًا، حتى جاء اليوم الذي رن فيه هاتفني، وأخبرني دوج بأن تشارلي قد فارق الحياة. كنت بصراحة قد فقدت إحساسي بالأيام. فنظرت إلى التقويم، ثم هززت رأسي الذي كان يدور بعض الشيء وسط فيض من الدهشة والبهجة. وهي مشاعر كثيرًا ما ارتبطت عندي بتشارلي. حدث ذلك في 17 من أغسطس في عام 2014.

رحل تشارلي بهدوء في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي لذكرى ميلاده.



تجمع المئات من الناس لحضور جنازة تشارلي. وفي خلال الرحلة التي استغرقت عشرين دقيقة إلى دار العبادة، كان كل واحد من أبنائنا الأربعة مستغرقًا في عالم رقمي واسع على شاشته الشخصية. توقفنا عند المدخل، وانفتح باب العربة العائلية كما لو كان بشكل سحري. وخرجنا من أجواء السيارة المكيفة إلى أجواء دار العبادة التي توفر أيضًا تحكمًا في درجة الحرارة. كانت الطائرات تحلق فوق رؤوسنا على ارتفاع لا يمكن رؤيته، وتحمل آلاف الركاب عبر القارة بسرعات تتجاوز مئات الأميال في الساعة؛ فالحياة التي بدأت بين الخيول والعربات والقطارات البطيئة في جيلسبيرج في إلينوي قبل أكثر من قرن، انتهت في عالم متغير بشكل كامل.

كانت دار العبادة مصممة بحيث تحتوي على أعمدة من الحجر ونوافذ زجاجية متألقة، وقد شُيدت على يد سكان مدينة شابة لتمنحهم شعورًا بأنهم كانوا هنا منذ الأزل. وعلى الرغم من أنها بدت قديمة، فإن عمرها كان أصغر من تشارلي. هكذا، بضحكات أكثر من الدموع، وموسيقى أكثر من الحداد، ودّعنا تشارلي.



«لم أفكر في الأمر كثيرًا»، كان هذا ما قاله تشارلي ذات مرة لمُحاورٍ سأله عن فلسفته في الحياة. لقد قام العديد من الكتاب الفضوليين والمؤرخين الشفويين بزيارة تشارلي خلال العقد الأخير من حياته. وشارك قصصه مع مراسلي الصحف والتلفزيون والمجلات، وسحر الجميع كما سحرني.

طرح هذا المحاور بالذات سؤالًا بدا بديهياً. وكان لدى تشارلي قرن كامل لاستكشاف الإجابة. لا بد أن التفكير في معنى الحياة قد بدأ في اليوم الذي انتزع فيه القدر القاسي

والده. ولكن بدا أن السؤال فاجأه.

وأجاب في النهاية: «لقد واصلت المضي قدمًا». في الواقع، لقد تبنى تشارلي فلسفة والدته التي كانت بسيطة للغاية، ونجحت معه بشكل رائع: «افعل الشيء الصحيح». وواصل تشارلي حديثه بأنها كانت فلسفة عملية للغاية: «إذا فعلت الشيء الصحيح، فسوف يغطي ذلك مجموعة كاملة من المواقف».

وأردف تشارلي: «دائمًا أقول: كل شيء سيمر، ومهما كانت التحديات، يجب أن تعمل على تجاوزها وتمسك بموقفك ولا تنهار. تمسك واستمر، فلا فائدة من السلبية».

وأعلن أخيرًا: «لن يقوم أحد بذلك نيابة عنك. عليك أن تحرك حياتك بنفسك. لذا احرص دائمًا على الحفاظ على معنوياتك مرتفعة مهما كانت الظروف».

هل يمكن لهذه الحياة، في هذه العاصفة من التغيير، وعبر فترات الكساد الاقتصادي والازدهار، وفي زمن الحرب والسلام، والشباب والشيوخوخة، والفرح والحزن، أن تختزل بمثل هذه البساطة؟



عثرت عائلة تشارلي بين أغراضه بعد رحيله على ورقة ملاحظات واحدة معنونة بالاسم «كلاريدج كورت»، وكان ذلك هو اسم المجتمع المحلي الذي قضى فيه أيامه الأخيرة.

لقد ظل سؤال المحاور عالقًا في ذهنه. ومع شعوره باقتراب نهاية حياته، جلس تشارلي وبدأ في تلخيص فلسفته في الحياة. ملأ تشارلي الورقة من الأمام والخلف بقلم الحبر الجاف المتدفق. وقد كان رجلًا عمليًا؛ لذا كتب بأسلوب محدد وحاسم.

بدأ كلامه بجرأة:

فكر بحرية.

تدرّب على الصبر.

ابتسم كثيرًا.

استمتع باللحظات المميزة.

وتدفقت قائمة نصائح تشارلي على الصفحة. كانت الكتابة متساوية ومنتظمة، ولم تكن هناك أية كلمات محذوفة أو أية علامة على التردد، كما لم تكن هناك أية جملة أطول من بضع كلمات، كما لو أن نظام عمل الحياة السعيدة والمثمرة يمكن تلخيصه في ثلاثين أو أربعين سطرًا من القواعد الواضحة المحددة. اصنع الأصدقاء واحتفظ بهم. أخبر أحبائك عن مشاعرك نحوهم. سامح واطلب المسامحة.

اشعر بعمق.

راقب المعجزات.

اجعلها تحدث.

لقد كتب عن الثقة الكافية بالنفس للمجازفة، وعن انفتاح المرء على الفرص والاستعداد لاغتنامها، وعن إيجاد الجمال في العالم: في أشياء مثل المطر المتدفق، وقوس قزح العابر، ووهج شروق الشمس.

كن لبيًا أحيانًا.

ابك عندما تحتاج إلى ذلك.

ارتكب بعض الأخطاء.

وتعلّم منها.

بينما كنت أدرس قائمة تشارلي - التي تضم خطواته النشطة نحو حياة مُرضية - بدا لي أن كل نصيحة منها في حد ذاتها كانت أشبه ببطاقة تهنئة أو صورة رمزية على فيسبوك. كانت الدروس التي تعلمها تشارلي من حياته، والتي استمرت لأكثر من قرن من الزمان، نعرفها بالفعل؛ لأننا سمعناها ألف مرة.

ولكن بعد بضع سنوات من التفكير في الأمر - سنوات رأيت فيها، كما قال الشاعر تي. إس. إليوت: «ها هو ذا الموت يراقبني ويضحك» - توصلت إلى نظرية مفادها أن الحياة الجيدة تتألف من جزأين. في الجزء الأول، نحن من يعقد الأشياء. حيث نأخذ عالم الطفولة البسيط ونكتشف تعقيداته. فلا شيء تمامًا كما يبدو، والأمور ليست كما أخبرونا. ونبدأ في القول: «نعم، ولكن...». أو: «من ناحية أخرى..» أو: «ربما ليس الأمر بهذه السهولة».

ثم إذا عشنا طويلاً بما فيه الكفاية، ننتقل إلى المرحلة الثانية، حيث نبدأ في التبسيط. وبالرغم من كل الكتب المتاحة على رفوف جميع مكتبات العالم، يجب في النهاية أن تُعاش الحياة كسلسلة من اللحظات المنفصلة المتفرقة والقرارات الفردية. قد يكون ما نواجهه معقدًا؛ لكن ما نفعله حياله بسيط. كما قالت لورا وايت لابنها: «افعل الشيء الصحيح». وكما قال العديد من الحكماء لتلاميذهم: «عاملوا الآخرين كما تحبون أن يعاملوكم».

لقد عاش تشارلي طويلاً لدرجة أن حاجز التعقيد والغموض قد تلاشى تمامًا، وأدرك أن الحياة ليست صعبة كما نميل إلى جعلها. أو بالأحرى: بغض النظر عن مدى صعوبة الحياة، فإن الطريقة التي ينبغي علينا أن نعيش بها يمكن تلخيصها في بضع كلمات بسيطة. الأمور الأساسية مألوفة؛ ليس لأنها مبتذلة، بل لأنها صحيحة.

وما زلت أتخيله حتى الآن، وقد ضعفت عيناه ولكن عقله ظل لامعًا كالماس، وهو يملأ هذه الورقة بنصائحه البسيطة.

اعمل بجد.

انشر البهجة.

انتهاز الفرصة.

استمتع بالحياة.

وقد قررت أن أستجيب للنصائح وأقدم كتابي هذا لأبنائي. أتساءل: كيف يمكن للمرء أن ينجح وسط دوامة التغيير؟ يحدث هذا من خلال الوقوف على أرض ثابتة.

شكر وتقدير

لقد اخترنا منزلنا في كانساس في عام 2007 لسببين؛ أنه كان به غرفة نوم لكل طفل من أطفالنا الأربعة، وكانت حافلة المدرسة تتوقف عند ممر السيارات الخاص بنا. وكانت رؤية تشارلي وايت عبر الشارع مجرد مصادفة. ومع ذلك، كانت المكافأة غير المتوقعة لعنواننا الجديد هي الحصول على أفضل جار في العالم. وقد أصبح دوج دالجليش - الذي كان أطفالنا وصهر تشارلي يلقبونه بالسيد دي - أبًا ثانيًا أكثر بهجة لأطفالنا، كما ربطني بعالم متسع من الأصدقاء الاستثنائيين.

وكان باقي أفراد عائلة تشارلي أيضًا كرماء وداعمين لهذا الكتاب، بدءًا من مادلين وايت دالجليش - ابنة تشارلي الصغرى - وأختها لوري وايت. وكان صهر تشارلي الآخر جاك مور كريمًا بتقديم ذكرياته عن الرجل العجوز (وكذلك بالنصائح الطبية عندما كنت في حاجة إليها). كما شارك ابن زوج تشارلي «بيل جريمشو» وابنة بيل؛ وهي لويس جريمشو ذكرياتهما وتذكارتهما. وفي الواقع، لقد استجاب الجميع في دائرة تشارلي، سواء من العائلة أو الأصدقاء دون تردد عندما طلبنا منهم المساعدة.

كانت السجلات الشفوية التي سجلها المتخصصون في مشروع «Voices in Time» مصدرًا لا يقدر بثمن. لقد سجلوا صوت تشارلي الساحر وقصصه المفضلة تمامًا كما كنت أتذكرها، وساعدتني تسجيلاتهم في استيضاح بعض النقاط المربكة بعدما لم يعد تشارلي موجودًا لمساعدتي.

لقد استغرق تأليف هذا الكتاب الصغير وقتًا طويلًا. وإذا قمت بإدراج جميع الأشخاص الذين ساعدوني، وشاركوا معي العبء، وأضاءوا أيامي، وأدفاؤني بلطفهم على طول الطريق، لتحول هذا الكتاب الرفيع إلى مجلد سميك. لقد نصحتني تشارلي كثيرًا: «راقب

المعجزات»، وقد اتبعت نصيحته وأنا أتأمل معجزة الحب والاهتمام التي أحاطني بها الأصدقاء والعائلة. (كان صديقي جون هيرون، المؤرخ المحترف لمدينة كانساس وخارجها، لطيفًا بما يكفي لقراءة ما كتبتّه وتصحيح بعض الأخطاء).

أيضًا، أنا ممتن للغاية لهنري، وإيلا، وأدي، وكلارا - أطفال الذين قرأت معهم العديد من الكتب منذ فترة طويلة. شكرًا لكم على صبركم: فأنتم تجعلونني أشعر بالسعادة حتى عندما لا أكون بحال جيدة. وكانت كارين بول مصدر إلهامي وأفضل زميلة يمكن أن يحظى بها كاتب، وهي المسئولة عن اكتشاف العديد من أفضل الأشياء في هذا الكتاب.

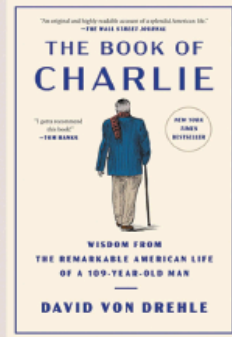
شكرًا لإستير نيوبرج وفريقها في آي سي إم بارتنز؛ ولرؤسائي الداعمين في صحيفة واشنطن بوست ومجلة تايم، ومن بينهم نانسي جيبس، ومايكل دافي، وروث ماركوس، والراحل العظيم فريد هاييت؛ وجوناثان كارب، وهانا بارك، وجاكي ساو، وفريق سيمون أند شوستر.

وأخيرًا إلى قائدة هذا الفريق: بريسكيلا بينتون، التي بدأت هذه القصة عندما منحتني وظيفة أحلامي بتوظيفي في مجلة تايم، والتي تولت قصة تشارلي بعد أن أصبحت مشرفة على الكتب. هذه السيدة أكثر بكثير من مجرد محررة موهوبة: فهي أيضًا إنسانة رائعة.

نبذة عن المؤلف

ديفيد فون دريل: كاتب عمود رأي في صحيفة واشنطن بوست، وكاتب مجلات حائز عدة جوائز، ومؤلف لعدة كتب. يعيش ديفيد في ضواحي مدينة كانساس مع زوجته الصحفية كارين بول.

الغلاف الخلفي



يكتشف أحد أبرز كتاب وطننا سر الحياة الطويلة والسعيدة من خلال تجربة جاره المعمر الذي تخطى المائة عام.

عندما انتقل صحفي محنك من واشنطن إلى ولاية كنساس، التقى بجار جديد تجاوز عمره المائة عام. لم يكن يعلم أنه على وشك بدء صداقة طويلة ودراسة عميقة لمعنى الحياة، فعندما قطعت مأساة صادمة طفولة تشارلي وايت الحالمة، أتقن تشارلي إستراتيجيات البقاء التي تعكس حكمة الإنسان المتراكمة عبر آلاف السنين. وقد حملة حس المغامرة لديه على القيام برحلة ملحمية عبر القارة، ولاحقاً وجد نفسه يتنقل بسيارات الإسعاف وسط حروب العصابات في فترة الكساد الكبير، ويبتكر تقنيات لجراحة القلب المفتوح المبكرة، ويجوب غابات الأمازون بعد أن حل ضيفاً على رئيس بيرو.

أدرك ديفيد فون دريل أن مرونة تشارلي واستعداداته الدائم للنمو قد جعلوا من هذا الجار الاستثنائي خبيراً في فن الازدهار وسط فترات التغيير الجذري. وكهدية لأبنائه، قرر أن يكشف أسرار تشارلي. إن هذه الرواية التي بين يديك هي دليل للتخلي بالشجاعة والصلابة؛ وقصة ملهمة لرحلة حياة رجل خلال قرن من التحولات الكبيرة.

"إن وصف هذه الرواية بأنها ملهمة لا يوفيها حقها ألبتة. فأنا الآن شخص أفضل بعد قراءتها".

— كانديس ميلارد، مؤلفة كتاب *RIVER OF THE GODS*

"في كل عصر، يظهر مؤلف يكتب كتاباً يتميز بالأصالة ويكسر القوالب التقليدية".

— بوب وودوارد

1. الغلاف
2. الغلاف الأمامي
3. حقوق الطبع والنشر
4. كتب أخرى للمؤلف
5. إهداء
6. الأول
7. الثاني
8. الثالث
9. الرابع
10. الخامس
11. السادس
12. السابع
13. الثامن
14. التاسع
15. العاشر
16. شكر وتقدير
17. نبذة عن المؤلف
18. الغلاف الخلفي